شيء منها

رواية

عادل الجندي

دار رحمة كتاب للنشر والتوزيع

شَـــــيءٌ مِنْها

عادل الجندي

رواية

تصميم وتنسيق : أحمد عويس

مراجع لغوي: شيماء هشام سعد

رقم الإيداع: ٢٠١٦/٢٣٥٤٠

الترقيم الدولى:٣-٨٤-٦٥٢٧-٩٧٧-٩٧٨

الناشر:

زحمة كتاب للنشر والتوزيع

Www.za7ma-kotab.Com
Www.facebook.com/za7makotab
Za7ma-kotab@hotmail.Com
01205100596_01100662595

شَـــيءٌ مِنْها

عادل الجندي

إلــى غائبة..

أمَا آن لجدار الهجر أن ينقَضَّ فنلتقي؟!

تُرَانَا نَلتقي؟

قَد نَلْتَقِي.

نَعم نَعم. سنلتقي من دونِ ريب.

تعرفينَ كيفَ سنلتقي؟

سأكونُ كاتباً مشهوراً، وستحضرينَ حَفل توقيع روايتي الجديدة، لقد زينتها ببعض رسائِلنا، ولن يعرفَ ذلك مخلوقٌ غيرك.

لا تخافي.. إنَّها ليستْ عنكِ، لكنها لكِ، فيها شيءٌ منكِ، شيءٌ منكِ أنتِ.. من جنونكِ وطفوليتك، شيءٌ من حبكِ لي، والكثيرُ من حُبِّي لكِ. فيها شيءٌ مِن ألم الْهَجْر الذي تَفجَّر داخِلي فحوَّلني فِي لَمْحِ الْفَقْدِ إِلى شَظَايا.. إلى قِطعٍ مُتناثرةٍ وإن بدوتُ في عينِ الأحمق كُتلةً واحدةً!

سَتَأتِينَ مِنْ دُوْنِ رَيْبٍ.

أعرفُ أنكِ ستأتين.

سَأسْعَى لأنْ أكونَ كَاتِباً مَشْهُوراً، لا لبريق الشُّهرة؛ ولَكِنْ لأنِّي في انتظارِ اللقاء المُوعود!

من كتاب (مُـــــلاحظاتي) لـ عادل الجندي.

إهداء..

إلى تلك التي آمنتْ بي قبل أي أحد، وقدَّمتني على كل أحد، وأعطتني ما لم يعطني إياه أحد. إلى أمي.. شكراً لكِ، لولاكِ ما كان هذا العمل، لولاكِ ما كنتُ يا أمي.

أسألُ الله أن يبارك في عمرك، وأن يرزقكِ دوام الصحة والعافية.

عرفانٌ بالجميل..

إلى شقيقتي التي لم تلدها أمي، وأمي التي لم تلدني، ومُعلمتي التي لم ألتقِ بها يوماً، ومع هذا فبمنتهى الإخلاص كانت تُعلمني وتُوجهني.

إلى أستاذتي الأردنية تسبيح راجح كردي: مهما تكلمتُ عنكِ فلن أوفيكِ حقكِ.

شكراً لكل ما منحتني إياه.

رغم مُعارضة أبي وأمي لزواجي من حسام إلا أننا تزوجنا، تزوجنا بعد قصة حب طويلة رغم قصرها، قصيرة رغم طولها، ممتعة رغم ما كان بها من ألم، مؤلمة مع ما كان بها من متعة.

صمَّمَ حسام على أن نحتفل بزواجنا، وأن ندعو الأهل والأصدقاء والجيران، وارتديت الفستان الأبيض للمرة الأولى في حياتي رغم كل ما حدث كما كنت أحلم بارتدائه، ولم يستطع أحد أن يعارضه، رغم اندهاش الجميع من ذلك.

كان حاسما كالسيف، وكانت صلابته تأسرني مرة بعد مرة، وكنتُ رقيقةً كوردة، وكانت رقتي تذيبُ صلابته.

كقعيدة لا حراك لها حالي في غيابه، وكعصفور من شدة البرد يرتجف حاله من غيري. كان كالعافية لجسدي، وكنت كالشمس لدنياه.

بسهولة كنتُ أستنشقُ عبقَ حُبي لهُ، ويوماً بعد يوم كان ذلك العبق ينمو حتى غدوت أستنشقه بكل سنتيمتر في جسدي.

أنجبتُ منه توأماً، صبياً وفتاة، عمرهما الآن ثلاثة أعوام، وكنت أشعر أنه طفلي الثالث، ورغم ذلك كان يعاملني وكأني ابنته.

كنت أناديه بعينَي: أبتي.

فأسمعه بأذني قلبي وهو يقول لي: ما تريدين يا صغيرتي؟

ما أسعدني، تزوجتُ أبي، وأنجبت منه طفلين، وغدا هو طفلي الثالث.

قلتُ له يوماً:

ـ لماذا كُتب الفراق على العشاق في الدنيا؟

قال:

ـ العشاق لا يفترقون أبداً.

ـ الموتُ يفرقهم يا حسام.

ـ الموتُ يفرق أجسادهم، والحب لا يكون بين الأجساد، لكن بين الأرواح.

ـ ماذا ستفعلُ لو مت فجأة يا حسام؟

ـ لن أسمح لكِ أن تفعليها.

ـ ستمنعني من الموت؟

ـ سأمنعكِ من أن تموتي فجأة.

ـ لكني سأموتُ في النهاية.

ـ سأتزودُ منكِ ببعض نظراتي إليكِ ثم أسبقكِ إلى هناك.

ـ كل العشاق يقولون ذلك الكلام، وقلّ من يفعل ذلك.

ـ كل من ادَّعى العشق تقصدين، ليس كل من عشق بصدق.

ـ لا أخشى من الموتِ، أخشى على الأولاد من اليُتم، وأخافُ عليكَ من خوفك عليهم من بعدي.

ـ إنْ متِ فلن أخافَ من شيء، فالأحياءُ هم من يخافون.

(الفصل الأول)

ـ ألا تتفق يا حسام معي في أن فترة الخِطْبة هي أجمل فترات العمر؟

ـ كلا يا ملك، لا أتفق البتة.

ـ حقا؟ ولم لا تتفق!

ـ لأنني أذكر جيدا حينما كنا في فترة خطبتنا، فقد كنت أعُطي ولا آخذ، وكنتِ تأخذينَ ولا تُعطين.

ـ حسام أنت تمزح، أليس كذلك؟

ـ كلا، لا أمزح مطلقا.

ـ وأي شيء أعطيتهُ لي ونحنُ مخطوبَانِ ولم تأخذه أضعافاً مضاعفة أيها الجاحد؟

ـ إن كنتِ جادة ذكرتُ لكِ أمثلةً، أما الحصرُ فأظنهُ أمراً مستحيلاً.

ـ نعم يا سخيف، أنا جادة جدا، هيا أخبرني.

ـ حسناً، في الشهر الأول من خطبتنا أعطيتكِ هاتفاً جديدا كان ثمنهُ ثلاثة آلاف جنيه، وفي الشهر الثاني أهديتكِ كاميرا كان ثمنها ثلاثة آلاف جنيه أيضاً، وفي الشهر الثالث خرجنا معاً خروجةً كلفتني قريباً من ألفي جنيه، أما في الشهر الرابع فأنا لم أعطكِ شيئا حقيقةً، فقد كنتُ أتسول أمام جامع الحسين مع أصدقائي الذين وقعوا في شبكة الخِطبة، وإلا فمن أين لنا أن نوفي بتلك المتطلبات في وقتٍ لا يكادُ أحد يبصق في وجه أحد إلا ويطالبه بثمن تلك البصقة الثمينة!

ـ لكني أعطيتكَ مُقابل ذلك كله في حينهِ معجلاً غير مؤجل.

ـ حقاً؟ ولكني لا أذكر أنكِ أعطيتني أي شيء مُقابل هذه الأشياء!

ـ هذا لأنك جاحدٌ يا حبيبي كما قلتُ لكَ منذ قليل، أما أنا فأذكر جيدا أني قلتُ لك حينما أهديتني ذلك الهاتف: شكراً لك يا حسام.

وحينما أهديتني الكاميرا فقد كانت سعادتي لا توصف، لذلك فقد تكرمتُ وتعاطفتُ وتنازلتُ وقلتُ لكَ: شكراً لك يا حبيبي، ثم صمَّمت أن تكون أول صورة تلتقطها الكاميرا هي صورتي وأنت تجلس إلى جواري.

وأما تلك الخروجة فقد كانت والحق يُقال أجمل خروجة خرجتها في حياتي، لكنك لم تكن بحاجة إلى مُكافأة مني لك عليها، إذ في مجرد وجودي معك في تلك الخروجة أكبر مُكافأة لكَ، أم أنك ستنكر؟

ـ طبعا يا حبيبتي لا أُنكر ذلك، لكن لا تنكري أنتِ أيضاً أن ألْفَي جنيه في خروجة واحدة مبلغٌ لا يُستهانُ به.

ـ وهل أجبرتكَ مثلاً، أم أنك أنت من صمم وأصرَّ وألحَّ وأنا التي كنتُ أرفض بغضِّ النظر عن كوني من داخلي كنت سأطيرُ من الفرحة؟

ـ لكني صممتُ وأصررتُ وألححتُ على أن نخرج أنا وأنتِ فقط، ولم يكن عندي مانع حينها في أن يكون الشيطانُ ثالثنا، وقطعاً لم أصمم ولم أصر ولم ألح على أن يخرج معنا والدكِ ووالدتكِ وإخوتكِ بل واثنتينِ من أصدقاءِ أختكِ، وإنما عزمتُ على الجميع عزومة مراكبية كما يقولون، ولا أدري لماذا صديقتا أختكِ أيضا!

ـ لأنها كانت تقترح الاثنتين على أخي علاء حتى يختار منهن واحدة يتقدم لخطبتها، ولم تجد فرصة أفضل من هذه حتى يراهما، ويتعرف عليهما.

ـ وطبعاً كنتُ أنا المغفل الذي كان ذلك كله على شرفه، لكن لا بأس، فقد كانت الخروجة الأولى والأخيرة أيضاً في خطبتنا، ولا أدري إن كان ذلكَ عقاباً مني لكِ أم عقاباً من نفسي لنفسي، أو لعل السبب في ذلك هو أني من بعدها قد أشهرتُ إفلاسي.

لكن بعيداً عن ذلك كله ألا تتفقين معي أنه من الأفضل إلغاء فترةالخِطبة وليكن أول الارتباط هو الزواج مُباشرة؟

ـ طبعاً لا أتفق أبدا، وكيف يتعرف كل واحد على شريكهِ المستقبلي في الحياة!

ـ ومن قال أن فترة الخِطبة هي فترة التعارف؟!

هذا من الأخطاء الشائعة، فترة الخِطبة لا وقت فيها للتعارف، إنما هي فترة النفاق والخداع، وتزييف الحقائق كي تبدو أجمل، وكل واحد منهم عنده مبرره طبعاً في ذلك، وإن لم يجد مبررا اخترعهُ، ثم هو في نظر نفسه لا يكذب، وإنما هو فقط يتجمل!

ويظلُّ الوضعُ على ما هو عليهِ حتى يأتي المأذون، فترتفعُ الأقنعة، ويتوقفُ التمثيل، ثم يظهر كل واحد على حقيقته.

ـ لكنك لم تكن كذلك يا حسام، لقد كنت تقريباً صادقاً معي في كل شيء، طبعاً بغض النظر عن كونكَ أخفيتَ عني أنك تدخن، ولم تصدمني بالحقيقة إلا حينما استوثقتَ من حبي لك.

ـ لكني ما أخفيتُ ذلك عنكِ، أنتِ لم تسأليني، ولم أرَ من داعٍ لأن أخبركِ، خاصة وأني كنت عازماً على أن أُقلع عنه من تلقاء نفسي.

ـ ومع ذلك فلم تقلع عنه إلا بعد زواجنا، وإياكَ أن تنكرَ دورَ زوجتكَ حبيبتكَ في كونكَ أقلعتَ عنها بشكل نهائي.

ـ طبعاً يا حبيبتي لا أنسى دوركِ في هذا ولا أنكره، وكيف لي أن أنسى أن جيوبي قد أصبحت فارغة إلا من الهواء من يوم زواجنا، وهذا بفضل نفقاتك الزائدة عن الحاجة، طبعاً كان لابد وأن أقلع عن التدخين، وهل بقي معي مال حتى أشتري به السجائر أو غيرها!

ـ يالك من سخيف يا حسام، مادمتُ أنا كما تقول فلتصبح على خير إذن.

ـ لا لا لا، أنا أمزح معكِ ليس أكثر، نحنُ في ليلة الجمعة، ولي ساعتين أحاول أن أقنع عمار وياسمين أن يناما بشتى الطرق، أرهقاني وما لهما من العمر غير ثلاثة أعوام، كيف لو كانا أكبر بقليل! ثم أنتِ تقولين لي بعد ذلك كله سأنام!

ـ إذن فأنت مدينٌ لي بالاعتذار.

ـ قطعاً مدينٌ بالاعتذار، ولا يختلف على ذلك عاقلين في الدنيا، ولكن أخبريني كيف أعتذر لجلالة الملكة؟

ـ لا أدري، تصرف، ألست أنت من أغضبتني؟

أضْحِكني، سأعتبر إضحاكك لي اعتذاراً، وهو الاعتذار الوحيد الذي يمكنني قبوله.

ـ اتفقنا إذن.. هل تذكرين يوم جاءني عمار وسألني:

ـ أبي.. كيف ولدتني أمي؟

دُهشتُ من سؤاله، ثم أردتُ أن أوقعكِ في مأزق فقلتُ له:

ـ وما أدراني أنا يا عمار؟! اذهب واسأل أمك فهي التي ولدتك ولست أنا.

أتى إليكِ وأنتِ منهمكة في أعمال البيت فقال لكِ:

ـ أبي يقولُ لكِ كيف ولَدّتِني يا أمي؟

كنتُ أراقبهُ وهو يسألكِ من دون أن تنتبهي لي، لكنهُ أفسد خطتي بطرحه للسؤال بتلك الطريقة، لماذا أقحمني أنا في السؤال!

قلتِ له:

ـ حسام هو الذي قال لكَ اسأل أمكَ كيف ولدتني؟

ـ نعم يا ماما، هو الذي قال لي ذلك.

قُلتِ له بدهاء:

ـ اذهب وقل له لقد ولدتني أمي كما ولدتك أمكَ تماماً!

وأبلغني الرسالة تماماً كما قلتها له، عرفتُ أنكِ فطنت إلى أني أريدُ وضعكِ في مأزق مع الولد، فقررتِ أن توقعي بي في حفرة حفرتها لكِ، لكني تماديتُ في المكر وقلتُ له:

ـ قل لها: وكيف ولدت جدتي أبي؟

عاد إليكِ فسألكِ، وكنتِ أكثر مكراً مني هذه المرة، قلتِ له:

ـ وما أدراني أنا يا عمار؟! فهي أمه وهي التي ولدته، إذن فهو يعرف ذلك أكثر مني، لو كنتُ أنا التي ولدت أباكَ لكنتُ أخبرتكَ!

اذهب وقل له:

ـ إنها أمك أنت يا أبي، وأنت الذي تعرف كيف ولدتك.

وكان عمار أكثر دهاء منا نحن الاثنين، أخذكِ الولد من يدكِ وأتى بكِ إلي ثم قال:

ـ هيا أخبراني كيف وِلِدت؟

غرقتِ في الضحكِ، ثم قلتِ لي:

ـ أخبرهُ أنتَ يا حسام، فهو رجلٌ مثلكَ أولاً وأخيراً.

قمتُ من فوري أشرحُ له كيف ولِد، قلت له:

ـ في يوم زواجي من أمك الجميلة هذه دخلنا شقتنا، وأول ما دخلنا الشقة حملتها هكذا. ثم حملْتُكِ بين يدي كطفلة وظللت أدور بكِ.. وأكملت لعمار فقلت:

ـ بعد أن حملتُ أمكَ يوم زواجنا حملتْ هي بكَ أنتَ وياسمين، وعندما استيقظنا بعد ذلك بعدة أيام وجدناكم معنا في البيت.

نظرتِ إليّ يومها وأنتِ قتيلة الضحك، وأذكر أنَّ عمار نظر إلي هو الآخر نظرة غريبة، استشعرتُ من خلالها أن الولد لم يقتنع بحرفٍ مما قلته.

ـ عمَّار ذكي، ما كان لهذا الهراء أن ينطلي عليه.

ـ من شابه أباهُ فما ظلم.

ـ في المحاسنِ فهو ابنك ومن شابه أباهُ فما ظلم، لكن حين يكسرُ شيئاً أو يبكي تقول لي: خذي ابنكِ. لنا اللهُ معشر النساء.

ـ مالي أنا وللنساء الآن! أخبريني هيا.. هل قبِلت الملكة اعتذاري؟

ـ قطعاً لا، لم يكن في قصتك ما يُضحكُ على الإطلاق، سأنام، تصبح على خير يا حبيبي.

ـ لا لا لا، انتظري، أعطِني فرصة أخيرة.

ـ آخر فرصة، تذكر ذلك، إن لم أضحك فصدقاً سأنام.

ـ حسناً، اتفقنا.. بما أننا بدأنا الحديث عن فترة الخِطبة وانتهينا بالحديث عن السجائر فسأذكِّرُك بشيء حدث أيام خطبتنا سيقتلكِ ضحكاً.

هل تذكرينَ أول مرة جئتُ فيها إلى بيتكم بعد أن اعترفت لكِ أنني أدخن؟

يومها طلبتِ مني أن أدخن أمامكِ لتري كيف أبدو وأنا أشرب السجائر، قلتُ لك:

ـ هل أنتِ مجنونة؟ أُدخن هنا في بيتكم؟ وفي وجودِ والدكِ!

قلتِ:

ـ لا تقلق، أبي ليس هنا، ولن يعود الآن.

قلتُ:

ـ لكن حماتي هنا.

ـ وهذا أيضاً لا يُقلقك، فهي تُعدُّ لنا الغداء، ولن تخرج من المطبخ حتى تنتهي كما هي عادتها، وأيضاً فهي تفضِّل أن تتركنا على راحتنا.

ـ لكني لم أجلب علبة السجائر معي، لم أكن أعرفُ أن اليومَ هو موعد جنونكِ، كنت أتمنى أن ألبِّي لكِ رغبتكِ، لكن كما ترين، كل الظروف تقف حائلة بيني وبين ذلك.

ـ وهذا أيضاً لا تحمل له همّاً، لحظات وسأعود.

ثم ذهبتِ إلى غرفتكِ ورجعتِ بسيجارة وعلبة كبريت!

قلتُ:

ـ ملك.. أنتِ أيضا تُدخنين وتخفين ذلك عني؟ صدقَ من قال: كما تدينُ تُدان!

منذ متى وأنتِ تدخنين يا ملك؟

قلتِ:

ـ لا يذهب عقلك بعيداً أيها الأستاذ، لقد سرقتها قبل مجيئك من علبة سجائر أخي علاء وهو نائم.

ـ ما شاء الله، خطة مُحكمة فعلا، وكل شيء تم إعدادهُ بعناية فائقة، ودقة كبيرة، سيكونُ لك مستقبلٌ باهرٌ في عالم الإجرام يا ملك.

ثم أخذتُ السيجارة، ومددت يدي لألتقط منكِ علبة الكبريتِ فأبيتِ إلا أن تشعليها بنفسكِ، ثم اقتربتِ مني فاشتعلتُ أنا والسيجارة في نفس اللحظة، أما هي فاشتعلت

من الكبريت حين قبّلها، وأنا اشتعلتُ منكِ حين اقتربتِ مني، وحمداً لله أنكِ لم تقبليني يومها وإلا قتلتني حرقاً.

وما هو إلا نَفَسٌ واحد أخذتهُ من السيجارة حتى هجم والدكِ علينا بغتة كالموت دون سابق إنذار!

اضطربتُ كثيراً، ثم رميتُ السيجارة على الأرض قبل أن يضبطني مُتلبساً بها فأدخل معهُ في سين وجيم ونون، لاسيما وأنا أعرف منكِ مدى بغضه لرائحة السجائر، ثم كان الحظ العاثر، أتى والدك ليسلم عليَّ فشم رائحة السجائر فقال:

ـ من كان يدخن هنا؟ لابد وأنه علاء، كيف يجرؤ الكلب على التدخين داخل البيت!

لي حساب عسير معه.

وجلس والدكِ على المقعد المجاور لي، فاحتضنتْ رجله بحميمية كبيرة تلك السيجارة الراقدة على الأرض بوداعة، فانتفض صارخاً بكل ما أوتي من فزع:

ـ ثعبان، عضَّني ثعبان.

أخذتُ السيجارة بسرعة البرق، ثم رميتها بعيداً عنهُ في حركة لا إرادية مني، وكأنها ثعبان حقيقي وأنا ببسالة أنقذتهُ منهُ، ثم قلتُ له:

ـ لا تخف يا عمي إنها السيجارة التي.. فقلتِ:

ـ التي دخَّنها علاء يا أبي!

وبشق الأنفس كنت أكتم ضحكاتي، وبقدر ما كنتُ غارقاً في لذة الإثارة والمغامرة بقدر ما كنتِ خائفة ومرعوبة.

ثم أقبلت أمكِ مهرولة على صراخ والدكِ، فرأت السيجارة على السّجادة وقد أحرقتها، فأصبح البيتُ كلهُ ناقماً على علاء المسكين النائم في غرفته بوداعة طفل.

وحينما أدركتُ الخطر المحدِّق، وعلمت أن الأمور دخلت في الجدّ أكثر من اللازم، اعتذرتُ بأنَّ علي الذهاب لأن هذا هو موعد الطبيب الذي حجزتُ لأمي عنده، ثم وليت هارباً.

خرجتُ وأنا أكتمُ قهقهتي، ثم علمتُ منكِ بعد ذلك أن والدك دخل بعصا المسَّاحة إلى غرفة علاء، وكان لا يزال نائماً، وظنَّ والدكِ أنُه يتصنع النوم، ولم تعرفي ما حدث بالداخل، غير أنكِ وأمكِ سمعتما صرخات استغاثة متتابعة من علاء ولم يقوَ أحد على إغاثته.

فأخذتكِ بالمسكين الشفقة فدخلتِ وبمنتهى الشجاعة والاستبسال، وفي عملية انتحارية منكِ اعترفتِ لأبيكِ بكل شيء، وحتى تبرئيني أنا أيضاً كما برَّأتِ علاء فقد أخبرتهم أنكِ أنت من أصررت على ذلك، وأنك السبب في جميع ما حدث، فحاول والدكِ إخراج علاء من الغرفة، ولكنهُ برّاً بأبيه، وانتقاماً منكِ أيضاً قرر البقاء معهُ من أجل إعانته، لتسمع العمارة كلها بعد ذلك صرخات استغاثة منكِ!

ـ حسام.

ـ قلب حسام وعيونه.

ـ تصبح على خير، أقسم أن أنام حالاً.

****

ـ حسام.. استيقظ يا حسام، ستفوتكُ صلاة الجمعة!

ـ صباح الخير يا أمَّ عمَّار.

ـ قلت لك مائة مرة لا تقل لي يا أم عمار هذه!

ـ لهذا لن أتوقف عن قولها أبداً.

ـ وأنا سأجبرك على التوقف على الرغم منك.

ـ وكيف ستفعلين ذلك؟

ـ أنا مَلك، وأنت تنادي على أم عمار، فلتجبك أم عمار إذن إن كانت هنا.

ـ ملك ألستِ أنتِ أم عمار؟ من أمه إذن!

اعترفي حالاً، لابد وأنكِ قمتِ بتعذيبها، ثم قطعتِ جميع أعضائها، بعد أن قمتِ بذبحها، ثم وضعتها في أكياس سوداء، ورميتِ بها في مكانٍ بعيدٍ، لا أحد يعرفه غيرك.

ـ حسام.. أقسم أنكَ سخيفٌ، وأن دمك أثقل من مترو الأنفاق.

ـ نعم، لابد وأن تقولي ذلك و أكثر منه بعد أن كشفت سركِ، لكن أخبريني بشيء واحد، شيء واحد أريد معرفته وسأغفرُ لكِ أنكِ قتلتها، أين وضعتِ أصابع يدها اليمنى؟

لم يمضِ غير أسبوع واحد على إهدائي لها ذلك الخاتم النفيس، إن كنتُ قد خسرتها بقتلكِ لها فلا أقل من أن أربح الخاتم.

ـ أصابع يدها اليمنى، واليسرى أيضا، ستكون كلها في عينيك الآن إذا لم تتوقف عن هذا المزاح الثقيل.

ـ لن أتوقف حتى تخبريني أين ذهبت أم عمار.

ـ أم عمار جالسة بجوارك على السرير، هل أنت سعيد الآن؟

ـ ومن أسعدُ مني يا..

ـ ها؟

ـ يا أحلى وأجمل ملك في الدنيا أجمعها.

ـ الآن تستحق الإفطار اللذيذ الذي أعددته لك.

ـ طبعاً طبعاً.. لكن لماذا تكرهين أن تُكنَّي بابنك البكر!

ـ عمار ليس البكر، وإنما ياسمين هي البكر.

ـ لا بأس، فالفرق بينهما أقل من نصف ساعة، ثم إنك تكرهين أن تُكني بياسمين أيضا، وليس عمار فقط.

ـ قلت لك مائة مرة أن هذا يُوحي لي بأنني قد كبرت.

ـ لكن مثلك لا يكبر أبداً يا ملك.

لحظة لحظة.. لماذا هذه الابتسامة وذلك الخجل؟! أنا لم أقصد ذلك الذي بدر إلى ذهنك، فليس هذا وقت غزل، فقط أردتُ أن العقل هو الذي يجعل المرء يتقدم بالعمر سريعاً، فكلما كان نشيطاً كان التقدم أسرع، وحبيبتي ما شاء الله، لا عقل لها أصلا!

ـ الطيور على أشكالها تقع يا حضرة الأستاذ حسام.

ـ إهانة لا أقبلها، إن كنت أحل أصعب المسائل الرياضية وأعقدها في لحظات معدودات ومع ذلك لا أحمل عقلاً فمن يحمل إذن!

ـ سبحان الله.. تخرجتَ في كلية التجارة، وتعمل مُحاسبا، ومع هذا لا تريد أن تكون بارعاً في حل المسائل الرياضية! غريب أمرك يا زوجي.

ـ وهل تظنين يا ذكية الأذكياء أن كل من تخرَّج في كلية التجارة فهو فيثاغورس زمانه!

والله بعضهم لا يحفظ حتى جدول الضرب، لم أكذب فعلاً عندما قلت أن حبيبتي لا عقل لها.

ـ التي لا عقل لها تلك هي التي سلبتك عقلك قديماً.

ـ نعم، أحسنتِ، سلبتني عقلي قديماً، متى سلبتني عقلي؟ قديماً، لا تنسي هذا أبداً.

ـ ماذا تقصد، أجب بسرعة وإلا قتلتك حالاً ولا حرج في فعل شيءٍ على مجنونة لا عقل لها.

ـ لا لا لا، فقط قصدتُ أنكِ قديماً سلبتني عقلي والآن سلبتني عقلي ونفسي وروحي.

ـ هكذا أحسنت القول.

ـ لكني لم أكمل بعد، كنت أقول أنك سلبتني عقلي ونفسي وروحي والفلوس والبيت وكل شيء حتى أصبحتُ على الحديدة ولا فخر.

ـ ومع هذا فكل ذلك كالشهد على قلبك، أم ستنكر؟

ـ لا أنكرُ طبعا، كأن إنكاري سيفيد بشيء!

ـ هيا قم، لقد سخنت لك الماء وأدخلته الحمام؛ لأن السخان في أجازة عن العمل منذ أسبوع بسبب تكاسلك عن إحضار أحد من عُمَّال الصيانة.

ـ لكن لماذا يجب عليّ أن أغتسل؟!

الذي أذكره أننا بالأمس نمنا كما ينام الإخوة تماما، أم أنكِ فعلتِ بي شيئاً أثناء نومي؟

ـ أقسم أنك سخيف، وأنك قليل الأدب أيضا.

ـ نعم نعم، أنا قليل الأدب فعلاً، معكِ حق في هذا، ولكن على حد علمي فإن لكِ طفلين مني، وذلك يعني أنني لستُ وحدي قليل الأدب.

ثم ألم تفسد سهرة الأمس بسبب نومكِ، أم أنني من كثرة العمليات الحسابية قد اختلطت علي الأمور؟!

ـ كلا، لم يختلط عليك شيء، لكن سهرة الأمس فسدت بسبب لسانك الذي يحتاج إلى قص قطعة صغيرة منه.

ـ الحمد لله أن لساني يحتاج إلى قص قطعة صغيرة فقط، فأنا أعرف من يحتاج لسانه حتى يستقيم إلى قص نصفه على الأقل.

ـ ماذا تقصد؟

ـ لم أقصد شيئا، وهل أقدر على قصد شيء!

ـ بل قصدت.

ـ نعم، قصدتُ أني سأذهب لكي أغتسل وأمري إلى الله.

****

ـ سأذهبُ إلى أمي يا حسام، فقد اتصل أبي منذ قليل وأخبرني أنها مريضة بعض الشيء.

ـ حسناً، لكن لا تتأخري، ولا تنسي أن تأخذي معكِ عمار وياسمين.

ـ لن أستطيع فعل ذلك من دون شك، أقول لك أمي مريضة، هل أذهب إليها بهما لأزيد في مرضها!

اعتنِ أنت بهم وسأحاول ألا أتأخر إن شاء الله، مع السلامة.

ـ سلمكِ الله.

****

ـ آلو، هل تسمعني يا حسام؟

ـ نعم أسمعكِ، ما الأمر، هل حماتي بخير؟

ـ أمر غريب يا حسام، ذهبتُ إلى البيت ولم أجد أحداً هناك، ثم أخرجتُ هاتفي لأتصل بأبي فوجدت رسالة منه يقول لي فيها: "أصبحت أمكِ بخير، فخرجتُ معها لنستنشق بعض الهواء، وإخوتكِ ليسوا في البيت؛ لذلك اضطررت لإغلاق الباب بالمفتاح"

حاولتُ الاتصال به، لكن هاتفه مغلق، وكذلك هاتف أمي!

ـ حسناً، لا مشكلة، تعالي هيا، وإن شاء الله كل شيء سيكون على ما يرام.

****

ظلت ملك ترن جرس الباب، ولكن لا أحد يفتح، مما اضطرها إلى أن تستخدم المفتاح الخاص بها وتدخل.

المصابيح كلها مُطفأة، ولا يوجد غير بصيص ضوءٍ ضعيف مصدرهُ الأباجورة التي في غرفة النوم.

وبمجرد أن ضغطت على زر المصباح إذ بحسام ووالدها ووالدتها وكذلك إخوتها، وأيضا والدة حسام وشقيقهُ سيف كلهم عندها في البيت، وما هو إلا أن أضاءت المصباح حتى قالوا جميعاً بصوت واحد:

ـ كل سنة وأنتِ بخير، عيد ميلاد سعيد على أجمل ملك في الدنيا.

وقفت مدهوشة أول الأمر لا تعرفُ ما الذي يجري، وللحظات استشعرت أنها دخلت شقةً غير شقتها، حتى استوعبت الأمر.

كان أول من تقدم نحوها عمار وياسمين، كانا في أجمل أحوالهما، عمار يرتدي بذلة ضابط شرطة بيضاء اللون، وياسمين ترتدي فستاناً يجعلها تبدو أكبر من عمرها، كانت تتلألأ فيه كعروس في ليلة زفافها.

قالا لها في صوت واحد:

ـ اقتربي منا يا ماما، نريد أن نقول لكِ سراً.

نزلتْ على ركبتيها حتى أصبحت قريبة منهما، فوقف عمار عن يمينها، وياسمين عن يسارها، ثم قبَّلاها في وجنتيها معاً في نفس اللحظة، ثم قالا لها بصوت واحد:

ـ كل سنة وأنتي طيبة يا ماما.

حملتهما معا، ثم قالت لهما ودموع الفرحة تنسكب من عينيها:

ـ وأنتوا طيبين يا حبايب قلب ماما.

تقدم حسام نحوها ثم أشار إليها وهو ينظر للجميع ويقول:

ـ وهذه هي ملك يا سادة.. إذا حزنت تبكي، وإذا فرحت فهي تبكي أيضا، لذلك باسمي وباسمكم جميعاً فإني أسألها فأقول:

زوجتي العزيزة.. منذ أسبوع ونحن نخطط لهذا اليوم حتى نُعد لكِ هذه المفاجأة، وقد حرَّجت على الجميع أن يخبركِ بأي شيء له علاقة بتلك المفاجأة، أنا شخصياً لم أنم منذ أمس حتى أنفخ كل هذه البلالين التي ترينها، وأرسم كل هذه القلوب، وكذلك من أجل جلب التورتة، والاطمئنان على سلامتها من أي خدش، وأيضاً حتى أؤكد على

الجميع الحضور، ولتدريب عمار وياسمين على قول هذه الجملة البسيطة بهذا الشكل فإني قد اقتنصت فرصة نومك فأيقظتهما حتى أعطيهما فيها محاضرة مكثفة، كنت أُمَثِّلُ فيها أنني ملك لا حسام.

هذا فضلاً عن المجهود الجبار الذي بذلته في الساعة التي خرجتِ فيها إلى زيارة أمك، طبعاً أنا وفريق العمل الذي تشاهدينهُ أمامكِ الآن، فأنا لا أريدُ أن أنسب ذلك لنفسي فقط، المهم هو أنني لم أدخر جهداً، ثم أنت في النهاية وبعد كل ذلك تبكين!

أخبريني هل هذه دموع الفرح أم الحزن قبل أن أقتل نفسي؟

ـ لا يا حبيبي، لا تتعب نفسك في ذلك، كفاك ما فعلته، سأقوم أنا بهذه المهمة بدلاً عنكَ، لن ينال أحد شرف قتلكَ غيري.

إذن فقد كان كل هذا من تخطيطك أنت.

ـ ولا فخر يا حبيبتي.

ـ وأيضاً مرض أمي المختلق كان من تخطيطك؟

ـ ولا فخر أيضاً.

ـ وأنتَ يا أبي اشتركتَ معهُ في هذه المؤامرة؟

ـ مُكرهٌ أباكِ لا بطل، زوجكِ هو من أكرهني على ذلك.

ـ حتى أنتما أيها المشاكسَين الصغيرين اشتركتما معهُ في ذلك، كبرتما وأصبحتما تُخفيانِ عن أمكما.

ـ الحقيقة أن هذين بالأخص لم أخبرهما شيئاً قط حتى لا يُفسدا علي جهد أسبوع كامل.

فأنا لا أثق فيهما البتة، لا صغيرة أو كبيرة تحدث في البيت إلا ويخبرانكِ بها، عندما كنت أدرّبهما قلتُ لهما أنهما سيفعلان ذلك مساء الغد، ولم أزد على هذا شيئاً، وفي مقابل ذلك فقد أخذ كل واحد منهما عشرة جنيهات.

ـ ولكنكَ طلبتَ مني أن آخذهم معي أثناء خروجي، وذلك كان سيضيع عليك مجهود تدريبك لهم!

ـ فعلتُ ذلك حتى لا تشكي في شيء، ثم إنني أعلم أنكِ لن تأخذيهم معكِ وإن طلبت منكِ ذلك، خاصة وأنكِ ذاهبة إلى زيارة والدتكِ المريضة كما زعمنا.

ـ وأنتِ يا أمي كيف طاوعكِ قلبكِ أن تتآمري معهم وتتركيهم يخبروني أنكِ مريضة؟ لقد قلقتُ عليكِ كثيراً.

ـ لم يكن لي شأن في ذلك، إنما هو تخطيط زوجكِ، وتنفيذ والدكِ.

قال حسام:

ـ والآن دعونا من ذلك كله، فقد حان موعد إطفاء الشموع وأكل التورتة والجاتوه.

ثم أطفأ المصابيح، وأشعل الشموع، والتفوا جميعاً حول التورتة والشموع، وبعد نهاية الأغنية المعتادة أطفؤوا كامل الشموع بنفخة واحدة، ثم قدَّم الجميعُ هداياهم لملك، عدا حسام الذي لم يقدم أي شيء، وبعد ذلك جلسوا جميعاً يتحدثون.

قالت زوجة علاء:

ـ لا أذكر يا علاء أنك فاجأتني منذ تزوجنا بمفاجأة واحدة من تلك المفاجآت التي يُمطرُ بها حسام زوجته، الذي أعلمه أن حسام من أعز أصدقائك، ألم تتعلم منه شيئاً قط!

قال علاء موجهاً حديثه إلى حسام:

ـ هذا ما أخذتهُ من مفاجأتك هذه يا حسام، ها أنت لتسعد زوجتك أشعلت نار الغيرة في قلب زوجتي.

ـ ومن قال أني أغار؟! ملك أختي أولاً وأخيراً، ولكني فقط أُطالبُ بأبسط حقوقي الزوجية عليك.

ـ لا عليكِ يا حبيبتي، إن شاء الله في عيد مولدكِ القادم سأعدُ لك مفاجأة أقوى من هذه وأفخم.

قال حسام:

ـ جميلة هذه المفاجأة التي يتم الإعلان عنها مُسبقاً، أظن أن ما قلتهُ الآن هو في حد ذاته مُفاجأةً، ليس لزوجتك فقط، لكن للجميع.

قالت والدة حسام:

ـ لقدْ عشتُ مع والد حسام نحواً من ثلاثينَ عاماً، ولا أذكرُ أنهُ في يومٍ من الأيام قد تذكر يوم مولدي، فضلاً عن أن يجلب لي فيه هدية ولو متواضعة.

لا أدري ممن أخذ حسام كل هذه الرقة، فوالده مع كونهِ كان حنوناً وطيباً إلا أنهُ كان يغلبُ عليه الحزم.

قال حسام:

ـ أخذتُ الرقة من أم حسام، وأنا أستعملها في موضعها، وأخذتُ الحزم من والدي رحمه الله، وأستعمله في موضعه أيضا.

قالت ملك:

ـ هل هذا تحريضٌ غير مباشر منكِ يا أمي لحسام؟ أنا ما عرفتكِ إلا وأنتِ دائماً تقفين في صفي فتنصفيني منه، هل ستتخلين عني يا أمي؟

ـ لا يا حبيبتي طبعاً، يعلم الله أنه لا أحب في الدنيا عندي بعد حسام وشقيقه إلا أنتِ، أنا أعتبرك ابنتي التي لم أنجبها.

قال حسام:

ـ الحمد لله أن ملك ابنتك مجازاً يا أمي، فلو كانت ابنتك على الحقيقة لكانت هذه ورطة ما بعدها ورطة.

قال والد ملك:

ـ يعلمُ الله يا أم حسام أن حسام وعلاء عندي سواء.

وأما عن والد حسام فقد كان رجلاً ولا كل الرجال، كان شديداً، لكن في الحق، والحزم كان من أبرز سماته، رحمهُ الله.

ـ هو كما قلتَ فعلاً، حتى أنه من حزمه صمم على أن يختار أسماء الأولاد لها دلالة على الحزم الذي كان يتصف به، فسماهما حسام وسيف. وكما تعلم فإن من أسماء السيف الحسام.

قال علاء مُغيراً مسار الحديث، وكأنهُ أرادَ مُشاكسة ملك أو حسام، وربما مشاكستهما معاً:

ـ ولكن أخبرني يا حسام لماذا وضعت في التورتة تسع عشرة شمعة فقط؟

فأنا أذكر أنك في العام الماضي وضعت أيضا تسع عشر شمعة كذلك، والذي أعرفهُ أن شقيقتي الصغرى قد تجاوزت التسعة عشر عاماً ببضعة أشهر، وربما بعام، فما عسى أن يكون عمر ملك الآن وهي التي تكبرها ببضعة أعوام!

قال حسام:

ـ حين عرفتُ ملك كان عمرها تسعة عشر عاماً، لذلك فأنا في كل عام أضعُ تسع عشرة شمعة، وأظن أنها حتى وإن بلغت المائة عام فسأضعُ أيضاً تسعة عشر شمعة، وذلك لأنها في نظري لم تكبر يوماً واحدا منذ رأيتها للمرة الأولى.

احمرَّ وجهُ ملكَ خجلاً، فأحنت رأسها للأسفل مبتسمة، فقالت زوجة علاء:

ـ انظر إلى الردود الرقيقة، والكلام الجميل، بالله عليك يا حسام علِّمه شيئا، لعل الله أن يفك عقدة لسانه على يديك.

قال علاء:

ـ يبدو أنني سألتزم الصمت أفضل لي، فكل كلام أقولهُ يعودُ علي بسيل من الاتهامات.

قال حسام:

ـ بل أرجو أن يلتزم الجميع الصمت، فقد حان موعد الإعلان عن هديتي لملك بمناسبة هذا اليوم غير العادي.

ثم وقف أمامها مُتكئاً على إحدى ركبتيه، وألصق الأخرى بالأرض بعد أن أخرج من جيبه علبة صغيرة، فقدمها لها وهو يمسك علبته بكلتا يديه، وبعد أن أخذتها منه انتصب قائماً، ثم قام بفتح علبته، فأخرج منها سلسلة ذهبية لها قرصٌ على شكل وردة، فقام بوضعها حول عنقها بمنتهى الرقة، ثم قبَّل جبهتها وقال لها:

ـ كل عام وأنتِ زوجتي وحبيبتي وأغلى شيء عندي في هذه الدنيا يا ملك.

بكت للمرة الثانية ثم قالت له:

ـ حسام، هذا كثير، كثير جداً، لقد اشتريت لي منذ أقل من شهرين خاتماً، أنت تُثقل على نفسك هكذا، لا أدري ماذا أقول لك.

ـ لا شيء في الدنيا كثير عليكِ يا ملك، لو أملك الدنيا كلها لوضعتها تحتَ قدميكِ.

وبعد جِلسةٍ دامت أكثر من ساعتين ملؤها الضحكُ، وأبرز سماتها البهجة والسعادة، استأذنوا جميعاً للانصرافِ، فودعهم حسام وملك، ثم ذهبت ملك كي تُرتب بعض الفوضى التي نتجت عن ذلك الاحتفال، فقال لها حسام:

ـ اتركي كل شيء، لن تفعلي شيئاً البتة.

فابتسمت لهُ، ثم ذهبت لتحمل عمار وياسمين إلى غرفتهما وقد كانا نائمين، فقال لها:

ـ قلتُ لكِ لن تفعلي شيئاً.

ـ لكني لا أفعل شيئاً، فقط سأنقلهما إلى مكان نومهما!

ـ أنا سأذهبُ بهما إلى غرفتهما، أنتِ اليوم لستِ ملك زوجتي، لكنكِ مَلك الملكة، والملكات يأمرن فقط، وعلى الجميع امتثال الأوامر.

ثم سبقتهُ إلى غرفة النوم لتغير ثيابها، وذهب هو ليضع عمار وياسمين في سريريهما، وعندما دخل غرفة النوم تفاجأ بها جالسة على السرير تبكي ولها نحيب، قال لها مدهوشاً:

ـ ملك.. ما يبكيكِ يا حبيبتي؟

ـ أبكي لأنكَ تُحاول بشتى الطرق أن تسعدني، هل أستحق كل ذلك يا حسام؟ أخافُ أن تندم يوماً على أنكَ فعلت كل ذلك من أجلي.

ـ قطعاً لن أندم أبداً، وإن كان ولابد من الندم فسيكون على أني لم أفعل ما هو أكثر، ثم إنني أحاول بشتى الطرق إسعادكِ لأن سعادتك هي في الحقيقة سعادة لي، وأنت تستحقين ذلك، وأكثر من ذلك أيضاً يا ملك، هذا لو اعتبرنا أنني قد فعلت شيئاً يستحق الذكر ابتداءً.

ـ كل هذا ولم تفعل شيئاً!

ـ نعم لم أفعل شيئاً، وإن كنتُ قد فعلت شيئاً فهو لا يُساوي ما فعلتهِ أنتِ من أجلي قديماً والآن أيضاً.

هل نسيتِ موقفكِ حين تقدم لخطبتكِ ذلك الطيار منذ سنوات؟

حينها واجهتِ ضغطاً كبيراً من أهلكِ كي توافقي عليه، وكذلك من صديقاتك، حيث كان من وجهة نظرهم جميعاً فرصةً قد لا تعوض، و وقفتِ أمامهم جميعاً، ورفضتِ حتى مقابلته؛ لأنكِ أعطيتني وعداً أن تكوني لي، وأنكِ ستنتظريني.

هل نسيتِ وقفتكِ معي حين تم إيقافي عن العمل؟ لقد بعتِ شبكتكِ من دون علمي، ثم أتيتني بكامل ثمنها وقلتِ لي:

ـ لا تحمل هماً، أنت لم تخسر شيئاً، عن قريب ستجد عملاً أفضل، لكن هم الذين خسروا ذكاءك وموهبتك.

بعد كل هذا يا ملك تستكثرين مني أن أفعل شيئاً بسيطاً كالذي فعلته اليوم؟!

لو أملك أن أجلب لكِ قطعة من السماء لفعلت.

ـ قد عوضني الله عن الطيار بمن هو خير لي منه، بل وبملء الأرض من مثله حين كنت أنت حبيبي وزوجي، وأما شبكتي فقد جلبت لي ضعفها وأكثر، فلا تتهم نفسك بالتقصير مرة أخرى؛ لأنك لم تكن قط مقصراً.

ـ أرجو أن أكون كذلك.

ـ لا تعرف يا حسام كم كانت سعادتي وأنا أراك تدللني هكذا أمام أبي وأمي وإخوتي، كنت أشعر بإعزاز وفخر، وكأنني ملكة أو أميرة على الحقيقة لا المجاز أو التخيل.

لا شيء في الدنيا عند الفتاة يعدل إكرام زوجها لها أمام أهلها، حين يفعل ذلك فإنها تود أنْ لو قالت لهم بلسانها، بل وبكل جزءٍ فيها: هذا زوجي يا أبي، هذا زوجي يا أمي ويا إخوتي ويا كل الدنيا، هذا الذي اخترته من دون رجال الأرض جميعاً وقلت له نعم، لم أُخطِئ حين اخترتُ بملء إرادتي أن أكون أسيرة عنده هو دون غيره.

لا أدري كيف أكافؤك يا حسام، فعلا لا أدري، أستشعر الآن أنك لو طلبت مني أن أرمي بنفسي من فوق برج القاهرة لما ترددت.

اطلب يا حسام مني شيئاً، لكن اطلب شيئاً كبيراً وصعباً حتى أستشعر وأنا أنفذهُ لك أني أقوم بفعل شيء يستحق أن أقدمه لأغلى الناس عندي.

ـ واثقة مما تقولين؟

ـ كل الثقة.

ـ أطلب إذن وستلبين؟

ـ ولن أتردد مهما كان طلبك، لكن أريدُ طلباً يصعب تنفيذه.

ـ إذن أريدكِ أن ترقصي لي.

ـ حسام.. لقد قلت لك شيئاً يصعب تنفيذه، ولم أقل شيئاً يستحيل تنفيذه!

ـ قد طلبتُ وانتهى الأمر.

ـ لكنك تعرف جيداً أني أخجل من ذلك بشكلٍ مبالغ فيه، فضلاً عن كوني لا أجيد الرقص مطلقاً، بل أنا لم أرقص يوماً!

ـ قد طلبتُ وانتهى الأمر.

ـ حسام لا تكن سخيفاً، اطلب أي شيء غير هذا، وصدقاً لن أناقشك فيه هذه المرة مهما كان.

ـ قد طلبتُ وانتهى الأمر.

ـ حسام.

ـ نعم؟

ـ هاتِ شيئا يُشجعِ على الرقص، فقد قررت أن أرقص.

(الفصل الثاني)

بعد مرور عام وبضعة أسابيع

أكثرَ من عامٍ وأنا أغفرُ لكَ، أنتَ تظن أني حمقاء لأني أفعل ذلك، لكني وببساطة أحببتك بصدق، ولأنني أحببتك بصدق فإنني أغفر لك دوماً، في كل مرة أندم على أني أفعل ذلك، ولكني كنتُ أعَزّي نفسي بأنني حبيبتك رغم كل شيء، جعلتُ من حبكَ لي مُسكناً لكل جرحٍ كان بيدك، وممحاةً تُزيلُ كل تجاوزٍ يصدرُ منكَ تجاهي، تتجاهلني فأقول لعل شيئا ما يشغله، تهملني فأقول لا بأس، لعل شيئاً ما يُعكّر صفو مزاجه فيريدُ لنفسهِ بعض العزلة، تكذب علي فأبرر كذبك الذي تعرف مدى كراهيتي له بأنك لا تريدني أن أغضب بسبب شيء فعلته فاجتهدتَ في إخفائهِ عني بكذبة بريئة.

أستطيعُ أن أغفر لكَ ذلك كله، وربما أكثر من ذلك، لكن مالا يمكنني أن أغفره لك أبدا هو الخيانة، صدقني لا أستطيع.

ـ ألا يشفع لي عندكِ أنني أحبكِ؟ فقد اعترفتِ بذلك منذ لحظات.

ـ بل ذلك يدينك، يدينك فوق ما تتصور، فإن كنتَ وأنت في عنفوان حبك لي تجيز لنفسك الخيانة هكذا بمنتهى السهولة، فكيف بكَ إذا تزوجنا وبدأ بُساط الحب ينسحبُ من تحت أقدامنا!

ولكن هل فعلا تحبني يا وليد؟

لا تجبني أنا، لكن أجب نفسك، أجب وليد يا وليد، فأسماء لم تعد تنتظر جواباً منكَ تعلمُ سلفاً أنهُ إحدى كذباتك التي لا تنتهي.

ـ ألا ترينَ أنكِ تُبالغين كثيرا؟ كل هذا من أجل أنكِ رأيتني أقفُ مع زميلةٍ في كافيتريا الجامعة!

ـ لا تبرر لنفسك، فأنت تعلمُ جيداً أن هذه الزميلة لها ماضٍ غير مشرف، وسمعتها سيئة جداً، وقد حذرتكَ أكثر من مرة من أن تقف مع أي فتاة، ومع هذه بشكل خاص.

عموماً افعل ما يحلو لك، لم يعد هناكَ ما يربطك بي، أو يربطني بك، فأنت لم تفكر حتى في أن تتقدم لخطبتي، مع كثرة إلحاحي عليك أن تفعل.

ـ لا مانع عندي في خطبتك، بل ذلك أقصى ما أطمح إليه، لكن التوقيت غير مناسب بالمرة، فأنا غير مستعد للارتباط هذه الفترة، وهذا مالا تريدين الاقتناع به!

فضلا عن كوني لا أزال طالبا، نعم في السنة الأخيرة، لكني لا أزال أحمل وبجدارة لقب طالب، كما أنكِ أيضاً لا تزالين في الفرقة الرابعة.

غلطة عمري أني دخلتُ كلية الهندسة، لولا ذلك لكنت الآن حراً طليقاً، هنيئاً لكم أن دراستكم أربع سنوات فقط، وليست خمسة مثلنا، ما رأيك أن نتبادل الأدوار؟ أنتِ في كلية الهندسة، وأنا في كلية الفنون الجميلة، هكذا أستطيع خطبتكِ حالا لو شئتِ.. لكن لحظة لحظة، ذلك لن يكونَ مُقنعاً أبداً، لا يوجد في كليتنا أجمعها فتاة بهذا الجمال، أكثر الفتيات عندنا لا ينقصهن إلا لحية تُضاف إلى الشارب، لا وقت لديهن حتى لكي يغسلن وجوههن، هذا إضافة إلى أنكِ ستكونين هدفا لجميع الطلبة، وربما الطالبات أيضا، فالنجوم كُثر في كل مكان، لكن لا أظن القمر إلا أسماء.

وأخيراً رُسمت البسمة على وجهك، يا الله، كم افتقدتُ تلك البسمة، لكنها لا تقنعني، متى تضحكين يا آنسة؟

ـ لن أضحك حتى تتوقف عن هذه الأفعال الصبيانية، كم مرة وعدتني أنك لن تتكلم مع أي فتاة وفي كل مرة تُخلف وعدك؟

ـ أنا لا أكلم فتيات فعلياً، ولم أخلف وعدي معكِ، غاية ما في الأمر أنها زميلة أولا وأخيراً، بغض النظر عن ماضيها غير المشرف كما تقولين، وقد طلبت مني جدول الامتحانات لأنها نسيت أن تأخذه من أمام الكلية.

ـ معكَ حق، فالمسافة من الكافيتريا إلى كليتها تأخذ حوالي دقيقتين، وهذا وقت كبيرٌ جدا، وسيرها دقيقتين من الكافيتريا إلى كليتها سيأخذ منها مجهوداً جباراً!

وليد.. من الأفضل لكَ ولي أيضاً ألا تبرر، فأنت حينما تُبرر لا تفعل شيئا أكثر من أنك تزيدُ الطين بلة، وتتمادى في استفزازي دون أن تدري، ولكن عدني وعدا صادقا ألا يتكرر ذلك العبث مرة أخرى، لا مع هذه ولا مع غيرها، وسأحاول تصديقك مرة أخرى لأنني محض بلهاء.

ـ حسنا، أعدكِ بذلك يا مُشاكسة، هيا اضحكي رجاءً.

ـ قلتُ لكَ لن أضحك، لقد قررتُ مُخاصمتك ثلاثة أيام لأنك خائن.

ـ ثلاثة أيام!

ولماذا ثلاثة أيام؟! لم لا نجعلهم يومين، أو حتى أربعة أيام؟

ـ لأنني سمعتُ الشيخ في التلفاز يذكر حديثاً عن رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم معناه أنهُ لا يجوزُ لمسلمٍ أن يهجر أخاهُ أكثر من ثلاثة أيام.

ـ وليد.. لماذا لم تقل صلى الله عليه وسلم؟!

ـ قلتُ، ولكن همساً، ومع ذلك لا بأس من الإعادة جهراً، صلى الله عليه وسلم.

ولكن لحظة، لستُ أخاً لكِ، أنا حبيبك يا حمقاء.

ـ معك حق، لقد أقنعتني فعلاً بذكائك الخارق كالعادة، لذلك فقد قرت أن أقاطعك شهراً كاملاً، وربما عاماً إن شئتَ.

ـ أنا لا مانع عندي في هذا طبعاً، على الأقل سآخذُ أجازةً لا بأس بها من ثرثرتكِ، ومن لسانك الطويل هذا، لكن هل تستطيعين فعل ذلك حقاً؟

ـ نعم أستطيع، فإن راحتكَ تعني لي الكثير، ومن أجلها يمكنني أن أفعل أي شيء، ما رأيكَ أن نجرب؟

ـ فكرة مجنونة وتُغريني كثيراً، وربما أموتُ غيظاً لو نجحتِ في تنفيذها، ومع ذلك فإنني أرحب بها، متى تبدئين تنفيذها؟

انتظري، هل تذهبين وأنا أكلمكِ!

ـ أنتَ مُستفز بشكل قاتل، عندي مُحاضرة، وحتى لو لم تكن عندي فإني كنتُ سأذهب، لقد بدأت قطيعتنا يا حضرة البشمهندس المستفز.

ـ مجنونة، أُقسمُ أنكِ مجنونة.

****

ـ آلو، هل أنت معي يا حسام؟

ـ نعم.. أنا معكَ يا علاء، كيف حالك؟

ـ أنا بخير والحمد لله.

ـ وكيف حال والدك ووالدتك؟

ـ الجميعُ بخير، وجدناكَ لا تسأل فقلنا نسأل نحن.

ـ اعذرني يا علاء، بعض الأمور تشغلني هذه الأيام، والله أودُّ لو أذهب لزيارتكم، أفتقدُ هذه الجلسات العائلية كثيراً.

ـ لهذا أتصل بك، فأنا مُوكل من قِبل أبي بأن أدعوك الليلة للحضور، لقد قرر أبي وكذلك أمي طبعاً أن تتناول العشاء معنا الليلة.

ـ لكن..

ـ لا أعذار، سننتظرك أنت وعمار والآنسة ياسمين.

ـ حسناً، سنأتي كلنا إن شاء الله، لكن هل ستكونُ أنت هناك؟

ـ وهل تكونُ هناك ولا أكون في انتظارك يا صديقي؟

كما أنني لا أستطيعُ أيضاً أن أتخلف عن أي فرصة يُتاحُ لي فيها أن ألتهم طعاماً خرج من مطبخ أمي. سأتركك الآن لأشغالك، في رعاية الله.

ـ في رعاية الله يا علاء.

****

ـ لابد وأن ندعوكَ إلى زيارتنا يا حسام؟ ألا تُخطئ مرة فتزورنا من نفسك؟

ـ اعذرني يا عمي، فالأولاد يأخذونَ كل وقتي، بالكادِ أتركهم أثناء العمل، ثم أهرول لآخذهم من عند أمي، بين الأولاد والعمل لا أجد لي مُتنفساً.

ـ أعانَك الله يا ولدي، فأنتَ الآن لهم الأب والأم في نفس الوقت.

ولكن لماذا لا تتركهم عندنا هنا حتى تعودَ من عملك فتأخذهم؟ فأمكَ أصبحت كبيرة الآن في السن ولا طاقة لها بهم.

ـ وأم علاء قريبة في السن من أمي أيضاً يا عمي، هذا فضلاً عن كونها تقضي أكثر أيامها طريحة الفراش، ولا أظنها هي الأخرى تقوى على العناية بهم، ثم إنهم عند أمي يلعبون مع أبناء أخي سيف، فأمي تعيشُ معه في شقته كما تعلم.

ـ رحمك الله يا ملك، رحمك الله يا ابنتي، لم أتألم لفقدكِ بقدر ما تألمتُ لفقد أطفالكِ لكِ، تجرَّعوا مرارة اليتم مبكراً وأمهم لا تزال في ريعان شبابها.

- ....

ـ لماذا أنت صامت يا حسام؟

ـ لا شيء يا عمي، ولكن أين علاء؟ لقد أخبرني أنه سيكون هنا.

ـ من ينادي على علاء؟

ـ كيف حالك يا متر، أين كنتَ؟

ـ في الحقيقةِ كنتُ في الحمام، كان عندي إمساكٌ رهيب، لا أراكَ اللهُ ألم الرغبة الشديدة في شيء ثم حيلولة الدنيا بينك وبينه على الرغم منك.

ـ قد رأيتهُ وكان ما كان.

ـ أنتَ أيضاً عندكَ إمساك؟ لكن لا يبدو عليك!

ـ علاء، لا يصح هذا.

ـ أمزح معه فقط يا أبي.

ـ لا بأس يا عمي، علاء هو علاء، لن يتغير أبداً.

ـ لكنكَ تغيرت، تغيرتَ كثيراً يا حسام، لم تعد حسام الذي يعرفهُ الجميع، يا رجل أنت لم تضحك منذ عام تقريباً، أعلم أنكَ حزينٌ على ملك، من منا ليس حزيناً عليها!

لكنها الدنيا يا صديقي، بقدر ما تعطي تأخذ.

كلنا بكينا عليها، لكن كلنا جففنا دموعنا، وقعدتَ أنتَ على ذكرى الأيام الراحلة تبكي.

تعرف يا حسام.. لو أن إسراء زوجتي هي التي توفيت لما فعلت بنفسي مثل الذي تفعله أنت بنفسك الآن.

لا تحسب أن سبب ذلك هو أني لا أحبها، فأنا أحب إسراء كثيراً رغم شجارنا المتواصل، وإنما لأني أعلم أن الدنيا قصيرة جدا، قصيرة لدرجة أن ضياع يوم واحد من أيامها في الحزن يعد ضياعاً كبيراً، فكيف بكَ وقد أضعت شهوراً عديدة في الحزن، بل وفي جلب المزيد منه كأن الذي عندكَ منه لا يكفيك!

ـ لا أظن أنكَ تحب إسراء يا علاء، ولا أظنك أحببتها يوماً، وإلا لما كنت تقول ذلك الآن.

ـ وجهة نظر أحترمها وإن كنتُ لا أتقبلها.

ـ ألم تكتفوا من الحديث؟ هيا فقد وضِعَت السفرة والطعام جاهز.

ـ وضِعَت السفرة والطعام جاهز.. أتحدى شعراء العالم جميعاً أن يكتبوا قصيدة لها لذة هذه الكلمات الأربع.

فكيف إن كانت أمي هي التي قالتها؟

هيا يا قوم هلموا إلى الطعام وإلا سبقتكم ثم إذا جئتم لم تجدوا إلا صحوناً خالية، وأوانٍ خاوية، ومائدة من الطعام عارية.

ـ صدقتَ يا حسام، علاء هو علاء ولن يتغير أبداً!

****

ـ حُسام، حسام.

ـ نعم؟ هل ناديتني يا أحمد؟

ـ هل ناديتني يا أحمد؟! قل هل صرخت علي يا أحمد، هل فضحت الدنيا وأنت تنادني يا أحمد، هل أيقظتَ جميعَ سُكان القاهرة الكبرى وضواحيها وأنت تردد اسمي دون أن أسمع من ذلك شيئاً يا أحمد، ما بك؟ لي ساعة أنادي عليكَ، وأنت كأنكَ في عالم آخر!

ـ أنا فعلا في عالم آخر، وليتني أبقى فيه ولا أعودُ منهُ أبداً.

ـ لا زلت تفكرَ فيها إذن. حاول أن تنساها وأن تعيش حياتك، لا أظنها ترضى لك شيئاً من ذلك الذي تفعلهُ بنفسك الآن.

ـ أنساها؟ وكيف أنساها!

وأي حياةٍ تلك التي أعيشها من بعدها، لقد كانت زوجتي وأمي وأختي وحياتي وكل شيء لي في هذه الدنيا، كيف أنساها وكل شيء يذكرني بها يا أحمد، كيف.

وإن نسيتها أنا فكيف ينساها الأولاد!

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله، تماسك يا حسام، لماذا تبكي الآن!

ـ لقد رحلت في مثل هذا اليوم، في مثل هذا اليوم منذ عام انتهت حياتي، هذه هي الذكرى الأولى على رحيلها، هل تظن مرور عامٍ على رحيلها قد خفف مصيبة موتها في نفسي؟

كلا يا أحمد، مصيبتي في ملك إن لم تكن تتضاعف بمرور الأيام فهي لا تنقص.

لا أزال أذكر تفاصيل ذلك اليوم كأنه أمس.

كنا عائِدَين من أحد المطاعم بعد أن أنهينا خروجتنا أنا وهي والطفلين، كنت أحملهما معا لحظة الحادثة، بينما كانت تحمل هي بعض الأغراض التي اشتريناها، وأثناء عبورنا الطريق دهستها سيارة يقودها حيوان بسرعة مُخيفة، ولم يكن في قلبه مثقال ذرة من رأفة أو رحمة، لم يتوقف حتى ليرى إن كانت حية فينقلها معي إلى المشفى!

ثم علا شهيقه وهو يكمل:

ـ أنزلت الطفلين على الأرض وهرولت إليها وهي غارقة في دمها، ثم ظللت أصرخ وأناديها، التفتُّ خلفي وجدت الأطفال يبكون، ركضتُ إليهم فأخذتهم في حضني وأنا أبكي، ثم أبعدتهم حتى لا يروا أمهم وهي تسبح في بحر من الدماء.

وماتت ملك يا أحمد، انطفأ فجأة ذلك النور الذي كان ينيرُ لي حياتي، أفرغت السماء كامل ما بها من أمطار على تلك الشعلة التي كنت أتقي بها برودة الحياة فأطفأتها.

أطفأت شمعتي الصغيرة التي كنتُ من خلال ضوئها أبصر طريقي.

كأنها كانت تُدركُ أنها ستموت في هذا التوقيت بعينه، كانت تحملُ عمار وكنتُ أحملُ ياسمين وبعض الأغراض، وقبل أن نعبر الطريق بلحظاتٍ طلبت مني أن أحمل أنا الطفلين، فقد كانا نائمين، ثم أخذتْ مني الأغراض لتحملها هي.

كانت تعلم أنها سترحل ولم تشأ أن تأخذ أحدا منا بصحبتها، آثرت أن تذهب وحدها ولا أحد معها، ليتها أخذتني معها.

ـ لعله خير يا حسام، لعله خير يا أخي، تماسك بالله عليك ولا تقل مثل هذا، فأنت رجل مؤمن، ومحافظٌ على الصلاة، ثم هي لن ينفعها بكاؤك هذا في شيء، بل أخشى أنها تتعذب به، إنما ينفعها منك أن تدعو الله لها، وأن تكثر من الصدقة على روحها.

ـ أستغفر الله العظيم وأتوب إليه، أستغفر الله العظيم وأتوب إليه.

أنا لا أتوقف عن الدعاء لها، أدعو لها في كل يوم، بل وفي كل صلاة، وكل سجدة تقريبا.

ـ هذا أفضل لها ولكَ أنتَ أيضاً.

والآن لنذهب، فلا أحد في المكتب باستثنائي أنا وأنت، وربما في الشركة كلها، جفف دموعكَ هيا، لا يصح أن يراكَ أحد وأنت هكذا، ولك مني أن أوصلك مجانا إلى البيت بسيارتي الجديدة.

ـ شكراً لكَ يا أحمد، لقد أرسلتُ عمَّار وياسمين إلى بيت جدِّهم في الصباح الباكر حتى أذهب إلى قبرها.

ـ لا بأس، جعلها اللهُ آخر أحزانكَ يا صديقي إن شاء الله. ولكن أخبرني، هل لا تزال ترى ذلك الحلم الذي حدثتني عنه؟

ـ لا أزال يا أحمد، لا أزال.

****

ـ ما بكِ يا أسماء؟ كأنكِ تبحثين عن شيء.

ـ لا أبداً، وعن أي شيءٍ سأبحث!

ـ عن وليدٍ مثلاً.

ـ ولماذا أبحثُ عن وليدٍ إن شاء الله؟

ـ لماذا تبحث أسماء فعلا عن وليد.. هل لأنها تُحبه مثلاً؟

ـ ما هذا الذي تقولينهُ يا مي؟

ـ أقولُ ما تقولينهُ بعينيكِ وإن أنكرتهِ بلسانك.

ـ ومتى قالت عيناي ذلك الهراء؟

ـ تقول عيناك ذلك الهراء كلما نظرتا إلى وليد.

ـ لكن وليد مجرد زميل وليس أكثر.

ـ فلماذا إذن من دون جميع الزملاء لا تنظرين إلا إليه، ولا تقفين إلا معه، مع أنه ليس معنا في الفِرقة، بل ولا حتى في الكلية!

لماذا سكتِ؟ هل ستخفين على صديقة عمركِ؟ يا لك من نذلة، لا أخفي عنكِ أي شيءٍ، وأنتِ بدأت تخفين عني، هل تظنين أني بلهاء إلى هذه الدرجة!

أعلم منذ زمان أنكِ مُتيمة به.

ـ نعم أحبه، هل أنتِ سعيدة الآن؟

ـ سأسعد فقط لو كان يُبادلكِ نفس الشعور.

ـ هو أيضاً يحبني كما أحبه، وربما أكثر، وسوف يتقدم لخطبتي بمجرد تخرجه إن شاء الله.

ـ أرجو ذلك يا حبيبتي. يا الله، ما كل هذا الالتفات؟!

ـ الحقيقة أنه لم يحضر إلى الجامعة منذ يومين، وقد بدأتُ أقلق عليه كثيراً، ومنذ الصباح وأنا أفتش عنه.

ـ لا تقلقي، ربما قرر أن يتفرغ قليلاً للمذاكرة، فقد اقتربت الامتحانات.

ـ ربما!

ـ سأذهب إلى البيتِ، فقد خرِبت رأسي من كثرة المحاضرات اليوم، هل ستذهبين معي أم ستظلين تبحثين عن حبيب القلب؟

ـ لا يا خفيفة الظل، سأذهب معكِ.

ـ إذن هيا بنا.

****

ـ السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ورحم الله المستقدمين والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون.

عامٌ يا ملك، عام قد مر على رحيلك، لا أصدقٌ أنني لن أراكِ مرة أخرى، ولا أريدُ أن أصدق.

كل شيء في بيتنا كما هو يا حبيبتي، غرفة الأولاد كما هي، غرفتنا كما هي، أثاث البيت وفرشه، لم أغير شيئاً، كأن عندي أملا في أنكِ ستعودينَ وتملئِين البيت سعادة وبهجة بحضوركِ، بعد أن امتلأ حزناً وكآبةً لغيابك.

لقد أخبرتكِ في آخر مرة زرتكِ فيها أن أمي تلح علي هذه الأيام كثيراً في أن أتزوج، طبعاً لم أفكر في أن أفعل ذلك، لا قبل أن تُلح ولا بعد أن ألحت، لكنها الآن غاضبة مني جدا، تقول أنها لن ترضى عني حتى أتزوج.

وأخي سيف يؤيدُ موقفها بقوة.

كيف أقنعهم أنكِ لا تزالين زوجتي يا ملك، لا تزال صورتكِ تنعكسُ على كل شيء تقع عيني عليه.

لا أزالُ أحيا معكِ بروحي ونفسي وكلي، كيف أقنعهم أن غيابك لا يعوضه أحد كائنا من كان، كيف أسمح بأن تسكن غيرك بيتك وأن تغير فيه وتبدل وتمحو من بيتنا أجمل ذكريات كانت لنا فيه معاً!

كل شيء في بيتنا يسألني عنكِ يا ملك، حتى ثيابكِ كأني أسمعها تقول لي: أين ذهبت، فقد اشتقنا رائحتها الزكية.

عمار وياسمين دوماً يسألوني عنكِ أيضاً.

وفي كل مرة أقول لهم أنكِ في بيتنا الآخر في الجنة تنتظريننا هناك، أقول لهم ذلك دوما وأنا أجاهد عيني ألا تفضحني.

وفي كل مرة يقولون لي: ومتى سنذهب إليها يا أبي؟

ودائماً أقول لهم: حين يأذن الله لنا بذلك.

لقد كبرا في غيابك كثيراً، كبرا أكثر من اللازم يا ملك.

لا أدري هل أفرح كون الأولاد يكبرون، أم أحزن لأن حزني عليك يكبر كلما كبروا حتى كاد يبتلعني.

****

ـ السلام عليكم يا عمي.

ـ وعليكم السلام ورحمة الله، مرحبا يا حسام، تفضل يا بني.

ـ أنا على عجلة من أمري، جئتُ فقط لأخذ الأولاد.

ـ ستأخذهم يا ولدي، ستأخذهم، ولكن فقط ادخل قليلاً، على الأقل استرح والتقط أنفاسكَ، فالطريق من المقابر إلى هنا ليس هيناً.

ـ حسناً يا عمي، ولكن من أدراكَ أنني كنتُ في المقابر.

ـ أخبرتني أم علاء أنك تركت الأولاد هنا في الصباح الباكر لأنك ستتأخر بعد العمل لأجل حاجة هامة ستقضيها.

وأي شيء وراءك في ذكرى وفاتها أهم من زيارتك لها.

ـ أعتذر لو أزعجكم الأولاد، فأنا عادةً أتركهم عند أمي، لكنها مريضة هذه الأيام، ولا طاقة لها بهم.

ـ مريضة أم امتنعت عن أخذهم كوسيلة للضغط عليك حتى تتزوج؟

لقد أخبرني علاء بإلحاحها عليك في ذلك، وأنا من جانبي أضم صوتي إلى صوتها.

ـ حتى أنت يا عمي تقول لي ذلك؟

ـ نعم يا حسام، حتى أنا أقول لك ذلك، وأكثر من ذلك أيضا يا بني، ملك ابنتي، ومهما بلغت درجة حبك لها فلن تحبها مثلما أحببتها، أنت الآن أب ولعلك تدرك جيدا كيف يكون حب الأب لأبنائه، ولأنني أحبها فأنا أطلب منكَ أن تتزوج.

أنت في حاجة إلى من يخدمك ويعمل على رعايتك، ألا ترى كيف وصل بك الحال يا ولدي، لقد أصبح وجهك شاحباً، وفارقت البسمة وجهك.

أين حسام الذي لم يكن يتوقف ساعة من ليل أو نهار عن الضحك والمزاح وافتعال المقالب كلما سنحت الفرصة؟

هل تظن ملك في قبرها ترضى بهذا الذي تفعله أنت بنفسك الآن؟!

هل تظنها بحاجة إلى عزوفك عن الزواج حتى تعلم كم أنت وفيٌ لها؟!

إن كنت تظن ذلك فأنت واهم، ثم إنها لم تكن زوجةً فقط، ولكنها أيضاً كانت أما، ويهمها في المقام الأول أن يكون هناك من يرعى لها أولادها، ويحافظ عليهم، ويعتني لها بهم.

فإن كنت أنتَ مُستغنياً عن حقك في زوجة فأولادك لا غنى لهم عن أم، أو على الأقل من يقوم بدور الأم.

ـ لعل الله أن ييسر الأمور يا عمي.

ـ سييسرها إن شاء الله لو سعيت أنت نحو ذلك، عدني أن تفكر في الأمر يا حسام.

- ....

ـ لماذا تصمت؟ هيا أعطني وعداً وإلا استخدمتُ معكَ نفس الذي تستخدمهُ أمكَ ضدك.

هيا عدني ولا تصمت هكذا.

ـ أعدك يا عمي، أعدكَ أن أفكر في الأمر، ليس لأجلي؛ لكن لأجلكم جميعاً، وخاصة الأولاد.

ـ هكذا أنت تحكّم عقلك، أعانك الله يا ولدي، وهداك إلى كل خير.

****

ـ وليد.. أين هاتفك؟

ـ أين هاتفك يا وليد، يا وليد أين هاتفك.. نعم، يبدو أنه في جيبي.

هل تريدين أن تُجري اتصالاً؟ أعلم أنكِ لا تشحنين هاتفكِ رصيداً إلا في الأعياد.

ـ بل أريدُكَ أن تخرجه من جيبكَ لتنظر فيه.

ـ لا تقولي أنكِ شحنتِ لي بخمسين جنيهاً كما شحنتُ لكِ بمثلها منذ فترة، وتريدين مني أن أتأكد من وصول المبلغ، صدقاً سأغضب لو ذلك كذلك، فأنا لم أفعل ذلك معكِ من باب القرض، وإنما نويتُ أن أجعلها صدقةً جارية، فالدنيا زائلة كما تعلمين.

ـ وليد.. أخرج الهاتف رجاءً.

ـ يبدو أنكِ مصممة، ها قد أخرجتهُ، وها قد نظرتُ فيه، لا يوجد أي رصيد وصلني منكِ!

ـ فما الذي وصلكَ مني إذن؟

ـ لم يصلني أي شيء!

ـ ولا قرابة المائة اتصال من البارحة وحتى الآن؟

ـ لكن ألم نتفق على أنكِ ستقاطعيني شهراً كاملاً وربما عاماً؟

ـ لقد قلنا ذلك مرارا كمزاح، وفي كل مرة كنتَ تتصل بي في يومها.

ـ لكني حملتها محمل الجد هذه المرة.

ـ ماذا تقصد؟ ولماذا تكلمني بهذه الطريقة؟!

ـ أقصد أنني كنتُ في المشفى، ولم أخرج إلا من يومين فقط، وأنتِ لم تتصلي بي إلا أمس!

ـ حقاً؟ هل أنت جاد؟ ما الذي أصابك؟ وكيف أنت الآن؟

ـ لقد أصابني مغص شديد في معدتي، وقرر الأطباء إجراء عملية سريعة لاستئصال الزائدة، كان من المفترض أن أخرج في نفس اليوم، لكن المغص كان لا يزال كما هو، مما جعلني أمكث بعض الأيام، كان مغصاً مؤلماً جداً، الذي كان يؤلمني أكثر من المغص هو أنكِ لم تفكري حتى في أن تتصلي بي!

ـ أنا آسفة يا وليد، آسفة جدا، لكني كنتُ أنتظر أن تتصل أنت بي كما هي العادة، ولكنك لم تفعل، فأخذني العناد، وقررت ألا أتصل حتى تفعلها أنت، لكني استسلمت بالأمس.

أنا حيوانة حقا، ولا شعور عندي، سامحني بالله عليك.

ـ حسنا، سأسامحك بشرط واحد.

ـ أوافق عليه مقدما قبل أن تذكره.

ـ نفذيه هيا.

ـ لكنك لم تقل شيئاً بعد!

ـ نعم، معك حق، الشرط هو أن تتوقفي حالاً عن البكاء، ما يُدريني أن أمن الجامعة لا يظن أني أضايقكِ فيفعلون بي ويفعلون، لا طاقة لي بهم وأنا في كامل صحتي، فكيف بي وأنا لم أغادر المشفى إلا من يومين!

ـ إذن تخاف على نفسك فقط!

ـ أخافُ على نفسي لأنها مِلك لكِ، وليس بمحب من لا يحافظُ على ممتلكات محبوبه.

لكن أكثر من خوفي على نفسي خوفي على عيونكِ الجميلة أن يؤذيها البكاء.

ـ ما هذه الرومانسية المُفرطة؟ هكذا ستجعلني أدعو لك بزيارة قريبة إلى المشفى.

ـ بالله عليكِ لا تفعلي، كفاني ما رأيتهُ هناك، فإن كان ولا بد من الدعاء فليكن لي لا علي.

ـ أنا دائما أدعو الله أن يجمعنا دوما وألا يفرقنا أبداً.

ـ لكن هذا دعاءُ لنا، وأنا قلتُ لي.

ـ ألسنا واحد؟

ـ نعم نحن واحد بلا شك، ولكن أكثري من الدعاء لي أن أستدرك ما فاتني أولاً، وأن تكون الامتحانات هذا العام مُيسرة، ففي لجنة الامتحان لن يكون معي سوى الله و ورقة الأجوبة.

أخبريني أنتِ كيفَ كانت أموركِ هذا الأسبوع الذي قضيته من دوني؟

ـ لقد وقعت مصيبة بالأمس، لكن لا أظن الوقت مناسب لأخبرك بها الآن، كفاك ما أنت فيه من المرض وضغط الامتحانات.

ـ دعكِ الآن من الامتحانات، ومن مرضي، ودعكِ من المصيبة أيضاً، وأخبريني شيئاً واحداً فقط.. بالأمس اتصلتِ بي لأنكِ اشتقتِ إليّ أم لأن هناك مصيبة؟

ـ في الحقيقة اتصلت بك من أجل الاثنين معا، فلم يكن أي واحد منهما يكفي لأن أتنازل عن كبريائي وأتصل بك.

- ....

ـ لا تجحظ عينيك إليَّ هكذا في صمت، فأنا لم أكن أعلم أنك طريح الفراش.

ـ لا بأس، أخبريني ما الذي حدث.

ـ هل أنت متأكد من أنك تريد أن تعرف؟

ـ أسماء.. تكلمي رجاء، ولا أريد أي مقدمات.

ـ ماذا ستفعل لو لم أكن لك؟

ـ ألم أقل لا أريد أي مقدمات؟

ـ أجبني رجاءً.

ـ طبعاً سأحزن وأتضايق وربما أنتحر بعد أن أقتلكِ وأقتلُ من فرَّق بيننا.

ـ لا تمزح، قل كلاماً واقعياً.

ـ حسناً.. سأفرح وأبتهج وربما أرقص من السعادة أيضاً.

ـ ....

ـ يا الله على هذه النظرات الشرسة، عموماً سأتكلم جاداً مادمتِ مصممة هكذا.

ألا تكوني لي يعني أننا سنفترق، وهذا مستحيل.

ـ ولماذا يستحيل تفرقنا؟

ـ لأن العشاق لا يفترقون.

ـ سبحان الله، ألم تفرق الظروف بين مئات الآلاف من العشاق؟!

ـ إياكِ أن تصدقي أبدا أن عاشقين في الدنيا افترقا بسب الظروف، العشاق لا يفترقون إلا بأحد أمرين: الموت، أو تخاذل أحدهما..

ـ يا أخي افترض أننا أول عاشقين في الدنيا تفرق بيننا الظروف وأخبرني ماذا ستفعل.

ـ حسنا.. الزواج كما يقول بعضهم وأتفق معهم نسبياً هو مقبرة الحب، والدليل على ذلك أن أكثر العشاق الذين خلدهم التاريخ هم العشاق الذين لم يتزوجوا، فلو قدَّر الله لنا أن نفترق يوماً فقطعاً قد أموتُ قهراً وحزناً، ولكني سوف أصبِّر نفسي بأن ذلك ربما كان خيراً من أجل أن يكتب لحبنا الخلود، وهو على كل حال أفضل من أن نتزوج فيلفظ الحب أنفاسه الأخيرة بين مشاكل الزواج ومتطلبات الحياة.

ـ كيف تقضي بأن العشاق لا يفترقون أبدا، ثم تقول بأن الفراق قد يكون أفضل لهم!

ـ الأصل هو بقاء العشاق معا، لكن الفراق قد يكون أفضل لهم من أجل بقاء الحب قويا وعنيفا حتى لا يختنق بينهما بسبب ضغوط الحياة.

وأعتقد أن نزار قباني قد أبرز هذا المعنى الذي أقصده بقوة في قصيدته الشهيرة (أسألك الرحيلا) والتي يقول فيها:

لنفترق قليلاً

لخير هذا الحب يا حبيبي وخيرنا

لنفترق قليلاً

لأنني أريدُ أن تزيد في محبّتي

أريد أن تكرهني قليلا

لنفترق..

كي لا يصير حُبنا اعتيادا

وشوقنا رمادا

وتذبل الأزهار في الأواني

أسألك الرحيلا

حتى يظل حبنا جميلا

حتى يكون عمره طويلا

أسألك الرحيلا

ـ غريب، أنت الذي تقول هذا الكلام؟!

ـ وما الغريب في كلامي؟

ـ الغريب هو أنك تتكلم هنا عن الحب الروحي، الحب العذري، بينما الذي أعرفه عنك هو أنك لا تعترف بوجوده.

ـ لا تعارض بين كلامي هذا وبين إنكاري لوجود ذلك الحب العذري المزعوم، وذلك لأني حكمتُ بأن الحب قد يقتله الزواج لما يتضمنه غالباً من مشاكل وهموم وأعباء، ولم أقصد أن الزواج يقتل الحب لما يشملهُ من تقبيل وعناق و و و، وغير ذلك من تلك الأمور التي يرى البعضُ أنها قاتلة للحب، فبعضهم يرى أن أوثق عرى الحب هو الشوق، وقبلة واحدة قادرة على أن تطفئ جبالا من نيران الشوق بين معشوقين،

وطبعاً لا أتفق معهم في ذلك، فالقبلة بين العشاق تشعل نيران الحب، فإن أطفأتها فذلك دليل على أن الحب لم يكن قائماً ابتداءً.

ـ بعيدا عن كلامك هذا الذي لا أحب أن أخوض في تفاصيله فإني أرجو أن أعرف منك السبب في عدم اعترافك بوجود الحب العذري.

ـ لا أعترف به لأني لا أفصل بين الروح والجسد، إذ كل منهما يصبُّ في الآخر، ما فائدة أن نظل أعواما يتغزل كل منا في الآخر دون أن نتبادل ولو قبلة واحدة، دون أن نتعانق عناقاً حاراً ممتزجاً بلهيب الحب، دون أن يلتحم كل منا في الآخر بلهفة مشتاق، فتتوحد أجسادنا كما توحدت من قبل أرواحنا.

ـ أنت حقاً قليل الأدب يا وليد.

ـ ليست مسألة قِلّة أدب صدِّقيني، لكن الاتصال الروحي لا يكون كاملاً ما لم يحدث اتصالاً جسديا حقيقياً، بل أرى أن ذلك الاتصال الجسدي هو الذي سيثبتُ إن كان هذا الحب حقيقيا أو مزيفاً، فإن كان حقيقياً فسيزيده الاتصال الجسدي تأججا واشتعالا، وإن كان مزيفاً لم تكن النتيجة شيئا عدا الملل، الملل من الطرف الآخر، وربما ملل الطرفين كل منهما من صاحبه، وهنا تُشيّد أركان العِشرة على أنقاض الحب الراحل، الحب الذي لم يكن حباً أصلا!

أما أولئك الذين ينسجون القصص والحكايات حول الحب العذري وشرف الحب العذري فأكثرهم ـ إن لم يكن كلهم ـ يثرثرون به وبفضيلته لعجزهم عن الاتصال جسدياً مع من عشقوهم لأي سبب كان.

ـ كأنكَ تقولُ بأن الحب لا يكونُ حباً إلا إذا كان ممتزجا بتلك الرغبة التي تشاركنا فيها حتى البهائم!

ـ وهل تظنيني سأخجل من رغبتي تلك لكونك نسبتها إلى البهائم؟ إذن فلتخجلي أنتِ أيضاً من الطعام، والشراب، ومن التنفس أيضا، فكل هذه الأشياء تشاركك فيها البهائم.

ـ وليد.. أنت تحبني أم تشتهيني؟

ـ أحبكِ وأشتهيكِ في نفس الوقت، وإن نفيتُ اشتهائي لكِ الآن فلا تفرحي به؛ لأن ذلك سيكون دليلا على أحد أمرين: إما أني كاذب، أو أني لا أحبك؛ وذلك لأن المحب بصدق يتمنى أن يقترب من محبوبه كأشد ما يمكنه الاقتراب، ومن جانبي فإني لا أتصور عاشقاً في الدنيا لم يتمنَّ اتصالاً جسدياً بمعشوقه، أو على الأقل قبلة منه، وبناء على ذلك كله فإني أنكر وجود ذلك الشيء الذي يسمونه حباً عذرياً، وإني لأتساءل بيني وبين نفسي عن طبيعة العلاقة الزوجية بين أولئك الذين يزعمون أن حبهم عذرياً، فإن كانت حياتهم الزوجية داخل غرف النوم طبيعية فكيف يكون حبهم عذرياً؟ وإن لم تكن طبيعية فلماذا تزوجوا؟!

ـ ما شاء الله عليك، كأنك تنوي أن تحضر الماجستير في هذه المسألة!

ـ ليست مسألة ماجستير أو غيره، غاية ما في الأمر أن صديقاً سلفياً لي كان يناقشني في هذه المسألة ويرى نفس قولك هذا حول الحب العذري، ثم اقترح علي أن أقرأ كتاباً عنوانه (روضة المحبين ونزهة المشتاقين) لابن القيم، وذلك حتى أُذعن برأيه، وحين قرأته وجدته يبسط المسألة ويفصلها، ويذكر حجج هؤلاء وهؤلاء بمنتهى الحيادية، ثم في النهاية لم أزدد عدا اقتناعا برأيي، وانقلب السحر على الساحر.

- رغم عدم اقتناعي بكلامك هذا كله رأساً على عقب إلا أنني أرى أنك الآن مستعدٌّ كي تتلقى المصيبة.

- يا لطيف.. هاتِ ما عندكِ.

- لقد تقدم لي عريس.

- وأي مُصيبة في هذا؟ لقد تقدم لكِ في الثلاثة أشهر الأخيرة فقط أكثر من عشرة عرسان ورفضتهم جميعاً!

- لكن هذا العريس له وضعٌ خاص، وبسببه انقسم البيتُ انقساماً كبيراً، فأبي موافقٌ عليه بشدة، وأمي ترفضهُ بشدة، وأخي الأكبر يقفُ على الحياد ويقولُ لي: هذه حياتك، وهذا مستقبلك، والرأي لكِ أولاً وأخيراً.

- جميل، وما رأي جلالتكِ إذن؟

(الفصل الثالث)

ـ هل فكرتِ في الأمر جيداً يا أسماء؟

ـ لقد أخبرتك يا أبي من حين عُرض الموضوع علي منذ أسبوعٍ أنني لا أفكر في الارتباط الآن، ليس قبل أن أنتهي من الجامعة على الأقل.

ـ أنا لا أرى أي إشكالية في ارتباطكِ الآن، فأمامكِ في الجامعة عام واحد، فما المانع في أن تتم خطبتكما الآن على الأقل لحين تخرجك!

اللهم إلا أن يكون اعتراضكِ على الشخص نفسه.

ـ الحقيقة هي أنني أعترض أيضاً على الشخص، لكن ليس عليه هو شخصياً، وإنما على ظروفه .

حسام يكادُ يكون شابا مثالياً، وأي فتاة في الدنيا تتمنى أن تتزوج من مثله، فهو خلوق ومتدين، ومعروفٌ باستقامتهِ، بالإضافة إلى أننا نعرفهُ جيداً، لكن ذلك كله ليس كافياً يا أبي.

مجرد تفكيري في كونهِ كان زوجاً لأختي يحولُ بيني وبين التفكير في الموضوع وبين تخيله زوجاً لي!

ثم إنني أخجلُ من ملك يا أبي، كيف أتزوج من زوجها وهي أختي!

ـ هل تعلمينَ أن أختكِ نفسها هي التي أوصتهُ قبل أن تموتَ بلحظات أن يتزوج منكِ لو قدر الله موتها حتى تكون مطمئنة على أبنائها؟

لم أشأ أن أخبركِ بهذا حتى لا يكون ذلك وسيلة ضغطٍ عليكِ، لكن هذا حدث أمام عيني حينما كنا معها في المشفى في آخر لحظاتٍ لها في الحياة.

ألا تفكرين في مستقبل أبناء أختكِ كيف يكونُ لو تزوج حسام؟ فحتماً سيتزوج يوماً، فمن يدرينا أنه يتزوج بمن تتقي الله فيهم.

قالت وهي تبكي:

ـ أنا في صراع كبير يا أبي لا أحد يتصور مداهُ، صراع ما بين أختي التي أحبها وأجد من واجبي أن أكون أما لأبنائها من بعدها، وبين نفسي التي أجدني سأظلمها لو وافقتُ على ذلك الزواج.

أقدِّرُ حسام وأحترمه كثيراً، لكني لا أتخيلهُ إلا أخاً لي أو زوجاً لأختي، وليس أكثر من ذلك يا أبي.

ثم إنهُ يكبرني بقرابة العشرة أعوام، أظن أن عشرة أعوام تُعدُّ فرقاً كبيراً قد يجعلُ بيننا فجوةً لاختلاف الثقافة والفكر، ودرجة نضج كل واحد منا.

ـ على أي حال هي حياتكِ، والخيار لكِ أولاً وأخيراً، وكما لم أغضب على ملك رحمها الله في اختيار حسام، فلن أغضب عليكِ أنتِ أيضاً.

من المفترض أن أرد عليهِ اليوم، فقد تقدم إليكِ رسمياً منذ أكثر من أسبوع، ولا يمكننا تأخير الرد عليه أكثر من ذلك.

ـ انتظر يا أبي، لا ترد عليه اليوم، أعطني يوماً واحداً فقط حتى أفكر في الأمر من جديد، فأنا لم يكن عندي أي علم بوصية ملك.

ـ لكِ ذلك يا ابنتي.

والآن فلتستعجلي أمكِ في إحضار الغداء، فأنا أتضور جوعاً.

ـ حسناً يا أبي.

****

ـ خيراً يا أسماء.. هل هناكَ أمر ما؟

ـ لا شيء، فقط أريدُ أن أتحدثَ معكِ.

ـ باللهِ عليكِ هل هذا وقت حديث؟ تتصلين بي بعد منتصف الليل لتقولي لي أريد أن أتحدث معك!

ـ معكِ حق، آسفة جداً يا مي، مع السلامة.

ـ انتظري انتظري، لم أقصد. أخبريني ما الأمر؟

ـ كنتُ أريدُ مشورتكِ.

ـ مشورتي بشأن حسام زوج أختكِ ملك الذي يريد الزواج منك، وقد أعطيتكِ مشورتي سابقاً، وقلتُ لكِ أنني لو كنتُ مكانكِ لما وافقتُ أبداً.

ـ لكن أبناء أختي يا مي، أليس من الممكن أن يكون قدري أن أكون أنا أمهم البديلة؟

ـ لا أنتِ ولا غيركِ يستطيعُ أن يعوضهم عن أمهم، والذي ستقومين به لو تزوجتِ من حسام يمكن لأي فتاة أخرى أن تقوم به لو تزوجها.

ـ لكن أبي صدمني اليوم حين أخبرني أن ملك قد أوصت حسام في حضوره أن يتزوجني لو توفاها الله، ألست بهذا أكون قد أضعت وصية أختي؟

ماذا أقول لها إذا قابلتها هناك في الآخرة؟ هل أقول لها من أجل نفسي أضعت وصيتكِ وفكرتُ في نفسي ولم أفكر فيكِ ولا في أولادك!

ـ لماذا تبكين يا أسماء، هوّني على نفسك يا حبيبتي.

لو أن أختكِ كانت تعلم أنكِ تحبينَ إنساناً آخر وهو يحبكِ وأنكما تعاهدتما على الزواج لما أوصت بذلك أبداً، ثم كيف تعيشين مع إنسانٍ بجسدك وقلبكِ وعقلكِ مع آخر!

ألا يكون هذا هو عين الظلم لنفسكِ ولحسام ولملك أيضاً؟ ثم ما ذنبُ وليد في كل هذا؟

ـ الكارثة كلها في وليد، لو لم يكن في حياتي لما ترددت في الموافقة على حسام لحظة واحدة، لا إشكال عندي في أن أدوس على قلبي وأضحي من أجل الجميع، لكن ما ذنب وليد لكي أدوس على قلبه!

ـ هذا هو عين ما أقوله لكِ، أنتِ بالنسبة لحسام كغيركِ من ملايين النساء، فالجميع يعلم أنه لا يُكن لك مثقال ذرةٍ من الحب الذي يكون بين الرجل والمرأة، وأما أولاده فأي امرأة في الدنيا يمكنها أن تفعل لهم ما ستفعلينه أنتِ، وربما أكثر مما قد تفعلينه، لكن أنتِ لوليد كل النساء، لذلك فزواجكِ من حسام كعدمه، إذ لا هو ولا أنتِ ولا وليد ولا حتى ملك ستسعدون بهذا الزواج.

ـ هذا هو أصعب اختبار أجد نفسي فيه منذ ولِدت.

ـ هو كذلك فعلا، ولكن ماذا أنتِ فاعلة؟

ـ لا أدري يا مي، صدقاً لا أدري، عاجزة عن اتخاذ قرار، لقد طلبت من أبي أن يؤخر رده على حسام يوماً آخر، عليَّ أن أحسم قراري الليلة ولا قدرة لي على التفكير.

ـ لابدّ وأن تفكري في الموضوع جيداً، فهو قرار مصيري.

ـ عاجزة عن التفكير تماماً، سأظل مُستيقظة حتى الفجر، وبعد أن أصلي الفجر سأصلي ركعتين استخارة ثم أخبر أبي بما ينشرح له صدري.

ـ هذا أفضل شيء تفعلينه.

****

ـ تُرى هل تسمعيني يا ملك كلما تحدثتُ إليكِ؟

ها أنا أقفُ أمامكِ لا يفصل بيني وبينكِ سوى باب قبركِ، يُخيلُ إلي أني لو فتحتهُ فسأجدكِ جالسة خلفهُ تصغين إلى حديثي.

قرأتُ يوماً أن الأموات يشعرون بالأحياء، فهل تشعرين الآن بي يا بعيدة رغم قربكِ قريبةً رغم بعدكِ؟

هل تشعرين بتلك النيران المستعرة في داخلي من يوم رحلت عن عالمي، بسببك اشتعلت، ولا أظن مخلوقاً في الدنيا يقدرُ على إطفائها غيركِ، لا أحد غيركِ يا ملك يقدر على ذلك.

آهٍ لو أقدرُ على شراء ساعةٍ أمكثها معكِ الآن ولو كان ثمنها الدنيا وما فيها، ساعةً واحدة فقط أملأ عيني من صورتكِ، وأسكب خلالها بعض نفسكِ في نفسي وشيئاً من روحكِ في روحي حتى أقدر على مواصلة سيري وحدي من دونكِ في معمعة الحياة.

آهٍ لو أقدرُ على أن أحادثكِ ولو دقائق معدودات، دقائق فقط أبثك فيها بعض همومي، لطالما كنتِ الإسفنجة التي تمتص كامل ضجري وحزني.

لو أقدر يا ملك على أن أرمي بنفسي داخل حضنكِ الدافِئ وأبكي كما لم أبكِ يوماً، لا أظنني سأبكي طويلاً، وهل بقي في عيني فضل دمعٍ حتى أجودَ به داخل حضنكِ!

لقد استنفذ مصابي فيكِ كامل ما بعيني من دمع.

لقد حاولتُ تنفيذ وصيتكِ وتقدمتُ لخطبة أختكِ أسماء رسمياً منذ أكثر من شهر، ولكنها رفضتني، رفضتني يا ملك.

لا أستغرب ذلك منها، ولا ألومها، فمعها الحق كل الحق في رفضي.

ما الذي يجبرها على أن تتزوج شبح رجلٍ مثلي، ما الذي يجبرها على أن تذيب عمرها المزهر الأخضر في عمري الذابل المدبر!

ما الذي يدفعها وهي المقبلة على الدنيا وبهجتها أن تقترن برجلٍ معرض عنها زاهد فيها.

برجل تعلمُ هي مسبقاً أن قلبهُ لن يكونَ لها يوماً، لأن قلبهُ مع غيرها، بل مع أقرب الناس إليها وأدناهم منها.

ألستِ أنتِ من كنتِ تقولين بأن المرأة تقبلُ الشراكة في كل شيءٍ إلا في رجلٍ أحبته؟

لا ألومها إذن، وليس لأحدٍ أن يلومها، هل تحسبيني غاضباً من أختكِ أو من والدكِ لأنه هو من أغراني بأن أقدم على ذلك؟

كلا يا ملك، لستُ غاضباً، فأنا كما تعلمين لم أكن أرغبُ في الزواج لا من أسماء ولا من غيرها، ولكن فقط أردتُ تنفيذ وصيتك وليس أكثر، أرجو ألا تكوني أنتِ غاضبة مني الآن أو ناقمة عليَّ، فقد كان حلمكِ المتكرر معي والذي كنتِ تطلبين مني فيه تنفيذ وصيتكِ يؤلمني كثيراً، وأظنني قد بذلتُ ما يسعني بذله حياله.

لا لوم عليَّ الآن ولا عتاب، الآن أستطيعُ استئصال فكرة الزواج كلها من رأسي دون أن أبالي.

نسيتُ أن أُخبركِ بأن الأولادَ كبروا وأصبحوا يتساءلونَ عنكِ بكثرة، وضعتُ نفسي مكانهم فرأيتُ أنهُ من الظلم لهم أن أحرمهم زيارتكِ، لذلك فسوف أجلبهم معي حتى يزوروك، وأيضاً حتى تنعمي بقربهم منكِ، يمكنني أن أدركَ مدى شوقكِ إليهم.

أعدكِ أن أجلبهم لزيارتك، لكن لا أظن ذلك سيكونُ قريباً .

سلامٌ عليكِ يا حبيبتي.

****

ـ وليد ألا تبارك لي؟

ـ مبارك، ولكن على ماذا؟

ـ غدا سيتم نشر أولى مقالاتي في جريدة الجامعة.

ـ ولماذا لم تخبريني بذلك من قبل؟

ـ في الحقيقة تم اختياري منذ شهر تقريبا، لكن بسبب موضوع حسام زوج أختي ملك وتقدمه لي لم أكترث للأمر، ولم تأتِ فرصة مناسبة لأخبرك.

ـ بسبب عدم اكتراثك هذا أخاف أن تكون هذه هي أول وآخر مقالة لكِ.

ـ تُحبطني بدلا من أن تشجعني؟! كأنك لا تعلم جيدا يا حضرة البشمهندس أن الكتابة هي هوايتي الأولى بعد الرسم طبعا.

ـ أعرف بكل تأكيد، وأمزح معك لا أكثر، أخبريني ماذا كتبتِ؟

ـ لم أكتب شيئا.

ـ سبحان الله، ألم تقولي منذ لحظات أن غدا سيتم نشر أولى مقالاتك؟!

ـ يا أخي أقصد أني لم أكتب شيئاً جديدا، لكنها مقالة قديمة كنت كتبتها منذ عامين ونشرتها على صفحتي عبر الفيس بوك ونالت إعجاب العديد من صديقاتي، أدخلت عليها تعديلات طفيفة ثم أرسلتها لهم.

ـ جميل، وما موضوعها؟

ـ هي رسالة على لسان فتاة ريفية تعاني من اضطهاد المجتمع لها لكونها فتاة، لحظة سأخرجها لك لتقرأها وتخبرني برأيك فيها، لكن أريدك أن تقرأها بصوت مسموع لأرى من خلالك انعكاس المقالة على الزملاء حين تقع في أيديهم غدا.

ـ اتفقنا.

ـ هيا تفضل، كلي آذان صاغية.

- (أكْبر كارثة ابتلاني اللهُ بها هي أني ولدتُ في مُجتمعٍ شَرْغَبِيٍ لا شَرقيٍ، مجتمع مَنعني أبسط حقوقي، بل وآكدها وأوجبها لا لشيءٍ إلا لكوني امرأة!

ولكوني امرأة فإنَّ كل شيءٍ هويتهُ أو رغبته منذ صغري وحتى بلغتُ مبلغ النساء فهو عيبٌ أو لا يصح..

لماذا يا هؤلاء؟

لأنكِ فتاة.

ومن الذي قضى بذلك؟

إنه المجتمع يا عزيزتي.

أذنبي أنني فتاة؟

بل هو أكبر ذنوبكِ على الإطلاق.

لأنكِ فتاة فإن عليكِ أن تضربي بينكِ وبين تلقائيتكِ بسورٍ ظاهرهُ فيه الرّضا، وباطنه من قِبله القهر!

لأنكِ فتاة فإن عليكِ أن تطرحي سيف الشجاعة، وأن تتكئي على عصا الضعف، لتهشي بها على غنم خيبتكِ في مُجتمع جاهلٍ رماكِ بنصال الظلم في صلابة فولاذ غير آبهٍ ولا مكترث بنص شرعي أو حكم عقلي!

لأنكِ فتاة فإن عليكِ أن تخلعي فستان البساطة، وأن ترتدي عباءة الصبر على تخلف مجتمع شعارهُ في الحياة هو جملة حمقاء لا يعرف من قائلها فحواها:

(اكسر للبنت ضلع يطلع لها ٢٤)!!!

لأنك فتاة فإن عليكِ أن تحذري من كل شيء، كل شيء بلا استثناء، ابتداء من ابن عمك الذي يترّقبُ منكِ هفوةً يُقيم بها الدنيا ولا يقعدها عند أهلكِ وذويكِ لأنه أراد خطبتكِ ورفضتهِ لأنه وببساطة محضُ تافهٍ أبلهٍ يحمِلُ عقل حمار في جسد إنسان، وانتهاء بألف عينٍ تغتصبكِ اغتصابا على الرغم منكِ كلما نزلتِ الشارع، فتعودين إلى بيت أبيكِ ـ أو زوجكِ ـ وأنت حَاملٌ سفاحاً بآلاف النظرات الوقحة التي اخترقت كل سنتيمتر في جسدك الشهي لتلك الذئاب الجائعة في كل وقت وحين، حتى وإن ارتديتِ ألف خيمة لا خيمة واحدة!

لأنكِ فتاة فجسدكِ عورة، وصوتكِ عورة ، وضحككِ عورة، وحركتكِ عورة، وقيامكِ عورة، وقعودكِ عورة، وذهابكِ عورة، ومجيئكِ عورة، وثقافتكِ هي عورة العورات التي عليكِ أن تفري منها فرار الصحيح من الأجرب، والأريب من المجذوم!

لأنكِ فتاة فعيبٌ أن تطالبي بحق، أو تردي على مُفترٍ، أو تُدافعي عن مبدأ، أو تناصري قضية، أو تفكري في مستقبل.. عيبٌ أن تفكري أصلاً في المستقبل أو غير المستقبل.. وهل خلق الله للمرأة عقلاً لكي تفكرَ به أو لا تفكر!

لأنكِ فتاة فعيب أن تطلبي من زوجكِ أن يُشبعكِ في الفراش، بل عيبٌ أن تطلبيهِ للفراش أصلا، فهذه خلاعةٌ ما بعدها خلاعة، ووقاحةٌ وأي وقاحة، لكنه يطلبك وقتما شاء وحيثما شاء، وكيفما اتفق له ذلك.. ثكلتكِ أمكِ وهل الذكر كالأنثى؟!

لأنكِ فتاةٌ فعيبٌ أن يكون لكِ قلبٌ يعشق، أو نفسٌ تطمح، أو جسدٌ يرغب، أو عينٌ تبصر عدا أنوثتها التي تقطرُ عاراً، وتنزفُ خزياً، والتي يتوجب عليها أن تخجل منها كل آنٍ وحين ما دامت مُتلبّسة بها!

لأنكِ فتاةٌ فأنتِ خلقتِ للذل والمهانة والعُبوديّة التي يأنفها حتى العبيد؛ لأنكِ وببساطة تعيشين في غابة الرجال!

عذراً أيها المجتمع غريب الأطوار..

لسنا أصفاراً على الشمال.

إننا والله زينة الدنيا وبهجتها،

وسرها وزهرتها،

وغيابنا عن الدنيا هو عينُ عين علتها.

أوصى بنا الله في كتابه لرقتنا،

ورسوله في سنته لعزتنا.

ما أكرمنا إلا كريم،

ولا أهاننا إلا لئيم.

أما والله إن أكثر ما يستطيعهُ الرجل تستطيعهُ المرأة، وإن الرجلَ ليعجزُ عن بعض ما تستطيعه المرأة، ولكنه الكبر قاتله الله الذي يمنعه من أن يذعن بذلك!

لسنا نصف المجتمع يا هؤلاء، إننا المجتمع بأكمله، ولأن افتخر المجتمع برجاله فإننا نفخر بأننا نحن من أنتجنا هؤلاء الرجال، ونحن من أنشأناهم على أعيننا إنشاء!

أما والله إن الدنيا قد تكون بغير الرجال عسيرة شاقة، لكنها بغير النساء جحيمٌ لا يُطاق ولا يُستطاع، رغم أنف كل ذكرٍ مُتغطرس سَتر الإنصاف في كبر، وأظهر الجحود في استعلاء).

ـ ما شاء الله يا أسماء، أبدعتِ.

ـ حقا؟

ـ حقا وصدقاً أيضا.

ـ راقت لي كلماتك كثيراً، ولكن هل تظنين أن تلك النظرة الدونية للمرأة لا تزال قائمة إلى الآن ونحن في الألفية الثالثة؟!

ـ نعم للأسف، لا تزال قائمة يا وليد، لا في مصر فقط، ولكن في ربوع الوطن العربي، نعم ليست في كل مكان، ولا بهذه السوداوية بكل تأكيد، لكن هذا لا ينفي أن رواسب كثيرة لا تزال قائمة في المجتمع بكل أسف.

ـ صدقتِ، أتفق معك، عموما مقالتك أكثر من رائعة.

ـ هذا أقل شيء عندي.

ـ ما شاء الله، ركِبك مارد الغرور من أول مقالة، ماذا ستفعلين لو أصبحتِ كاتبة مشهورة إذن!

ـ طبعا سأقطع علاقتي بك.

- ....

ـ لا تنظر إلي هكذا، أمزح معك، ثم إن الشهرة ليست من طموحاتي كما تعلم، كما أنّ حبيبي أيضاً كاتبٌ لا يشق له غبار وإن أبى أن يعترف بذلك.

ـ ومن الذي قال ذلك؟

ـ أنا أقوله.. ألا يكفي؟

ـ يكفي طبعاً ويزيد.

ـ هل تذكر يا وليد رسالتكَ لي على الفيسبوك حين أخبرتك أنّ مي بدأت تشك في أني أحبك، وأنها في ريبة من أمري؟ لقد قرأتها أكثر من خمسين مرة حتى حفظتها عن ظهر قلب.

ـ ذكّريني بها..

- (وأما الحُبُّ يا حبيبةُ فهو أجمل ما خلق الله..

يجعل نفسكِ أخف من فراشة، وقلبكِ أرقّ من زجاجة عِطر، ويُنبت لروحك جناحين يُحلقان بها في سماء الهوى خارج الزمان والمكان.

لم يولد يا حبيبةُ من مات ولم يعشق، ولا طرق الدنيا من لم يطرق العشق قلبه يوماً أو بعض يوم.

لا تخجلي أنكِ وقعتِ فيه يا حبيبة.. أيخجلُ المرءُ أن الله خلق بين جنبيهِ قلباً ينبض؟!

لا تطرقي رأسكِ إلى الأسفل أسفاً إذا أشاروا إليك في غطرسة وقالوا: هذه عاشقة.

أشيري أنتِ ناحيتهم في شموخ وقولي: هؤلاء صخور.

إذا قالوا لكِ: شقيٌّ من عشق يوماً.. فقولي لهم: أشقى منهُ من لم يعرف العشقَ يوماً).

- لم أكن أعلمُ أن رسالتي بهذا الجمال إلا حينما سمعتها الآن بصوتك.

- دعك مني ومن صوتي الآن، لم يتبقَ عدا أسبوعاً واحداً على امتحاناتك، هل أنت مستعد لها بشكل جيد؟

- لا أدري، سنعرفُ حين تظهر النتيجة إن كنت استعددت لها جيداً أو لا.

- لا تمزح، لابد وأن تتخرج هذا العام، وبتقدير عالٍ أيضاً، حتى تتقدم لخطبتي وأنت مرفوع الرأس.

- حين تربطين نجاحي بخطبتنا تزيدين في توتري وكأني أحتاج إلى مزيد من التوتر!

افصلي بينهما بالله عليكِ.

- هل معنى هذا أنك لن تتقدم لي بعد تخرجنا؟

ـ لم أقل ذلك طبعا، ولكن ننتهي من الامتحانات أولاً ثم نتحدث في ذلك كله.

ثم إنكِ أيضاً في عامكِ الأخير، وليس بينكِ وبين التخرج إلا بضعة أسابيع، فهل استعددت أم أنكِ ممن يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم؟

ـ يبدو أنني منهم، فأنا مُهملة جداً في المذاكرة، منذ عرفت بموضوع وصية أختي وأنا دائمة الشرود.

ـ يا إله الكون رحماك، هل رجعنا مرة أخرى لهذا الموضوع!

حسبتنا قد انتهينا منه دون رجعة، لقد مضى عليه عدة أشهر، أظن أن ذلك كان قبل امتحانات العام الدراسي الأول، ألم تكن كل هذه الفترة كافية لأن تنسي ذلك الأمر؟!

ـ لا تعلم مدى تعلقي بملك يا وليد، لقد كنت أعتبرها أمي لا أختي، فهي أختي الوحيدة، حينما كنتُ صغيرة كنت أظل أبكي من حين تذهب إلى المدرسة وحتى عودتها.

فلما كبرتُ قليلاً أصبحت ألازمها أينما ذهبت ملازمة الظل صاحبهُ، حتى أنني كنت أحضر معها بعض دروسها وهي في المرحلة الإعدادية.

هل تعلم أنها حين تزوجتْ ظللت شهراً كاملاً أبكي في كل يوم، ولم أذهب لزيارتها في بيتها الجديد إلا بعد أن توقفتُ عن البكاء كُليةً، وظللت فترة طويلة ناقمة على زوجها حسام ولا أكن له غير مشاعر الكره لأنني كنت دوماً أستشعرُ أنه خطفها مني.

لقد كنت أحكي لها جميع أسراري حتى بعد أن فارقتنا وتزوجتْ، وكانت تعرف عني مالا تعرفه أمي، بل ولا حتى مي نفسها، الشيء الوحيد الذي كتمته عنها هو علاقتنا هذه.

فهل تحسب بعد ذلك كله أن شيئاً كهذا الذي تهونه يكون هيناً عندي؟

ـ عموماً قد مضى ذلك الأمر وانتهينا منه والحمد لله، فدعكِ منه وانتبهي لمذاكرتكِ، فلستُ أنا وحدي من عليه أن يحصل على التقدير العالي.

ـ إن شاء الله.

****

ـ شيءٌ ما سيحدث، لا أكاد أصدقُ نفسي.

ـ ما بكَ يا أحمد؟

ـ ما بي أنا؟ بل ما بكَ أنت، فإني أرى شبح ابتسامةٍ يلوح في وجهك، أم أنني أصبحتُ أتخيلُ أشياءً لا وجود لها!

أخبرني ما سر هذه الابتسامة.

ـ شعور غريب يتملكني لا أستطيع أن أصفهُ لك، لكنه شعورٌ جميل.

ـ لا أظنهُ جميلاً فقط،، فرسم هذه الابتسامة على وجهكَ العابس دوماً ليس بالأمر السهل، ولا أظن أنه يتسبب في رسمها شيء جميل فقط، لكن شيء جميل ومبهج وممتع وربما لذيذ أيضاً.

لقد سكبتُ في أذنيك جميع الطرائف والغرائب والنكات التي أعرفها والتي لا أعرفها أيضاً عساك تضحك يوماً أو حتى تبتسم وما أفلحت في ذلك قط.

ـ هو كما قلت، شيء جميل ومبهج وممتع ولذيذ أيضاً.

ـ لا أظن ذلك ينطبق إلا على شيء أنت أبعد الناس عنه.

ـ وما ذاك؟

ـ إنه ال..

ـ ال ماذا؟ أكمل جملتك.

ـ الحب يا صديقي، الحب، هل وقعت فيه أم ماذا؟

ـ لا تذهب بخيالك بعيداً هكذا، غاية ما في الأمر أن اليوم هو اليوم الأول لذهاب عمار وياسمين إلى الروضة.

أشعر أني أريدُ من عقارب الساعة أن تسرع في سيرها حتى يعودوا إلى البيت فأسألهم ماذا درستم، وكيف وجدتم الروضة، وهل تعرفتم على أصدقاء جدد؟

ثم أوصي عمار أن يكون نعم الأخ لأخته، وإن تغزَّل فيها عِفريتٌ صغير من عفاريت الروضة فإن عليه أن يستأسد في وجهه ولا تأخذه به شفقة أو رحمة.

ـ جميل، لكن ما كل هذا، يا رجل لقد أوحيتَ إلي أن اليوم هو أول أيامهم في الدكتوراة لا الروضة!

ـ سامحكَ الله يا أحمد، هل تستكثر عليَّ ذلك القليل!

ـ لا يا أخي ما هذا الذي تقوله؟ أنا أمازحك لا أكثر، ثم لك العمر الطويل، وإن شاء الله غداً تراهم الاثنين من حملة الدكتوراة.

لكن اعلم أن الولد كلما تقدمَ نحو الرجولة خطوة دفع والدهُ نحو الشيخوخة خطوتين.

ـ كأنني أكترث لهذا، قل ذلك لغيري.

ـ حسناً سأقول لكَ شيئاً آخر.. هل تظن أن ابنك عمار هو ذلك الذي يستأسد في وجه أحد؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ لا أقصدُ شيئاً، ولكن هل تذكر يوم جئتَ به إلى الشركة معكَ منذ شهرين؟ إن كنتَ نسيتَ فلا أنسى أنا أبدا.

لقد كان يلعب هو وياسمين عند باب المكتب من الخارج فرأوا صرصارا صغيراً فظل عمار يصرخ كأنهُ رأى ثعباناً، فلما رأت ياسمين منهُ ذلك الفزع أمسكت الصرصار من شاربه ثم ظلت تجري وراءهُ به وهو يجري أمامها كأنهُ فأر يحاول إنقاذ نفسه من قط مفترس!

ـ لأن ابني عمار رقيقٌ كأمهِ، هل تظنهُ كتلةً من الصخر مثلكَ لا مشاعر عندهُ ولا إحساس.

ـ وماذا عن ياسمين، هل هي أيضاً رقيقة بعد ذلك الذي فعلته بالصرصار وبعمار المسكين؟

ـ من دون شك، بل هي أكثر رقة منه، لكني أستشعر أن روح أبي قد سكنتها في ذلك اليوم فشجعتها على أن تفعل ما فعلته، فلم يكن أبي يهابُ شيئاً في الدنيا.

ولو لوَّحت لي ياسمين بذلك الصرصار لما فعلتُ أقل مما فعله عمار، لذلك فالولد معذور فلا تكن مُتجنياً عليه.

ـ اعذرني، لستُ قادراً على كتم الضحك، لا أستطيع تذكر ذلك المشهد إلا ويقتلني الضحك.

ـ اضحك كما تشاء يا خفيف الظل، سأذهبُ لأن موعد الباص الخاص بالأولاد قد اقترب، لا أريدهم أن يعودوا إلى البيت فلا يجدوني.

****

ـ كأنكِ تريدين أن تخبريني بشيء يا مي.

ـ وأي شيء ذاك الذي أريد إخباركِ به!

ـ مي.. هل أعرفك منذ يومٍ أو يومين، نحن أصدقاء منذ كنا في الصف الأول الابتدائي. تكلمي هيا وأخبريني بما عندكِ.

ـ لا أدري هل ينبغي علي أن أتكلم أو لا.

ـ بل ينبغي عليكِ أن تتكلمي، يبدو أن هناكَ شيئاً ما تخفينهُ عني، وأظنهُ في غاية الأهمية.

ـ لقد رأيتُ وليد يقفُ مع إحدى الفتيات في كافيتريا الجامعة.

ـ وأي غريب في هذا، لا أشك في أنها زميلة له.

ـ هي زميلة له فعلاً، ولكنها الزميلة التي طلبتِ منهُ أن يقطع صلتهُ بها نهائياً.

ـ تقصدين نسرين؟

ـ نعم، هي نسرينُ بعينها.

ـ لكن وليد قطع علاقتهُ بها فعلاً يا مي، ربما كانت تريدُ منهُ شيئاً ما أو تسألهُ عن شيء لهُ علاقة بالدراسة، إنها إنسانة مُتطفلة جدا.

ـ هذا ما ظننتهُ، فذهبتُ وجلستُ قريبةً منهما وأنا مُوليةً ظهري لهما لأعرف عن أي شيء يتحدثان.

ـ وما كان حديثهما إذن؟

ـ لم أكن قريبة بالشكل الذي يسمح لي بإدراكِ حديثهما كاملاً، لكنها قالت لهُ في نهاية الحديث قبل أن تقوم مُباشرةً:

ـ قد أخبرتكَ بما عندي يا وليد، أقسم أنك إن لم تفعل ما قلتهُ لك أن أخبر حبيبة القلب بكل ما بيننا.

أنا آسفة يا أسماء، ليس من عادتي التجسس على أحد، فأنتِ تعرفيني جيداً، لكنكِ بالنسبة إليَّ أكثر من أختي، ولو لم تكوني كذلك عندي لما كنتُ تجرأتُ على أن فعل ذلك، ولا أخبرتكِ به.

ـ لا عليكِ يا مي، شكراً لكِ على كل حال.

****

ـ ما الموضوع الهام الذي لا يمكن عرضهُ هاتفياً؟ لا تقولي لي أنهُ قد تقدم لكِ عريس جديد، فقد سئمتُ هذه العبارة.

- ....

ـ هل طلبتِ رؤيتي لتسمعيني صمتكِ؟ لستُ مثلكِ يا آنسة أسماء، أنتِ أنهيت امتحاناتك، لكن لا يزال عندي مادة لم أُختبر فيها بعد، وهي تقريباً تعدل كل ما سبقها من حيث الصعوبة.

ـ لقد اتصلتْ بي نسرين وأخبرتني بكل شيء يا وليد.

ـ ماذا؟

ـ اتصلتْ بي وأخبرتني بكل شيء، كل شيء يا وليد.

ـ ماذا قالتْ لكِ؟ وهل صدقتها؟ إنها كاذبة، تُريدُ أن تفرق بيننا لأنها تحبني لكني لا أعطيها أي اهتمام.

مؤكد أنتِ لم تصدقيها، أليس كذلك يا أسماء.

- ....

ـ سوف أعرفُ كيف أنتقم من تلك الحرباء.

ـ لماذا الخيانة يا وليد؟

ـ أنا لم أخنكِ يا أسماء، صدقيني لم أخنكِ.

- ....

- لا تنظري إليَّ هكذا وتصمتي، ذلكَ يقتلني.

- لماذا فعلتَ ذلكَ يا وليد؟

- سامحيني أرجوكِ، أُقسم أني ما خنتكِ غير مرة واحدة، وقد ندمت ندماً كبيراً، ومن يومها وهي تلاحقني، تريدني أن أتزوجها لأني فعلتُ ذلكَ معها، لم تكن عذراء، أقسم أنها لم تكن عذراء، وكنت أعلم ذلك، بل هي اعترفت لي بذلك، لقد أخبرتْكِ لأنها طلبتْ مني أن أتزوجها ثم أطلقها حتى أستر عليها ولكني رفضت.

لقد أغرتني حتى ضعفت أمامها، إنها شيطانة.

- لماذا يا وليد؟

- أسماء أنا..

- لماذا يا وليد، لماذا تكسرني هكذا، هذه مكافأتي؟

أهذا هو ما أستحقهُ منكَ؟

- سامحيني يا أسماء، باللهِ عليكِ سامحيني.

- ....

- توقفي عن البكاء بالله عليك.

- لماذا أتوقف عن البكاء؟ لأنكَ تخشى أن يراني أحدٌ هكذا فيتصور أنك تضايقني فيضربكَ أو يؤذيك وأنت تخشى ذلك لأنك مِلك لي وأنت تحافظ على ممتلكاتي؟

أليس هذا هو كلامك!

لقد كسرتني يا وليد، كسرت أسماء، التي تراها أمامكَ شظايا إنسانة متناثرة وإن بدت لكَ غير ذلك.

أشعر أن خنجراً مسموماً قد اخترق قلبي، ليس أفظع من ألم شعوري به يمزقني إلا علمي أنكَ أنت من طعنتني به، أنت من غرسته بيدك يا وليد.

لقد وثقتُ فيكَ ولم تكن أهلاً لثقتي، لا ريب في أن يكون ذلك جزائي.

لكن الذي يؤلمني هو أني نهيتك سابقاً عن أن تربطكَ بهذه خاصة أي علاقة من أي نوع، وأنتَ وعدتني، وأنا بمنتهى السذاجة صدّقتك.

صدقتكَ يا وليد!

تعلمُ كم أكرهُ الخيانة وإن دقَّت، أخبرتكَ مراراً أنني يمكنني أن أغفر أي شيء، إلا الخيانة فلا أغفرها أبدا، ولا أقدر حيالها على المغفرة مهما كانت دوافعها.

- أسماء أنا..

- أنت كذاب وغشاش ومخادع وخائن يا وليد.

لا تقل شيئاً رجاءً، لا أريدُ سماع شيءٍ منكَ أبداً، ولو كنت آخر أهل الأرض فلن أتزوجَ منك.

اذهب وتزوج نسرين، استر عليها وعلى نفسكَ أيضاً، أنتما الاثنان وجهان لعملة واحدة، غير أنها في منتصف الطريق وأنت لا تزال في أوله.

لكن أبشر، فمن سار على الدرب وصل.

بالمناسبة.. لم تتصل بي نسرين ولا غيرها، حتى لا تظلمها، يبدو أنها أكثر وفاءً لكَ منكَ لي!

****

ـ أهلاً يا مي، تفضلي يا ابنتي.

ـ شكراً لكِ يا خالة، كيف حال أسماء الآن؟

ـ لا تزال كما هي يا ابنتي، لا تأكلُ إلا قليلاً ولا تنام تقريباً، ولا يدري أحد ما بها، لها على ذلك الآن أكثر من أسبوعين.

أخبريني ما بها يا مي، فأنتِ أقرب صديقة لها.

ـ ليس بها أي شيء يا خالة صدقيني، وحالتها هذه طبيعية جداً، فهي تترقب النتيجة وكلنا في رعبٍ متواصلٍ منها، الامتحانات هذا العام لم تكن هينة، ونحن في السنة الأخيرة كما تعلمين. هل يمكنني أن أراها؟

ـ بكل تأكيد يا حبيبتي، هي في غرفتها، ليتكِ تستطيعين إخراجها من تلك الحالة، أخبريها يا ابنتي أن والدها سيرد غداً على العريس الذي تقدم لها، فهي إلى الآن لم تُخبرنا برأيها إن كانت موافقةً أو لا.

ـ حسناً يا خالة، سأفعل، ائذني لي.

ـ تفضلي يا ابنتي.

****

ـ كيف حال القمر الحزين؟

ـ الحمد لله يا مي، بخير حال.

ـ حقاً؟ وأين هو ذلك الخير؟ لا أرى من حالك أي خير!

أين ذهبت أسماء المجنونة التي لم تكن تتوقف عن الثرثرة؟ أصبحت كلماتكِ قليلةً كأنكِ تدفعين ضريبة على كل كلمة تتلفظين بها.

- ....

ـ لو بقيتِ صامتةً هكذا فسأندم مرتين، الأولى لأني أتيتُ إليكِ اليوم، والثانية لأني كنت سبب كل ذلك الذي حدث، وأنا نادمة بالفعل على الثانية.

ـ لا يا مي، بل شكراً لكِ لأنكِ أيقظتني من رقادي وغفلتي.

لا تظني أني حزينة على فراق وليد، إنما حزني على كل ذلك الوقت الذي أهدرتهُ معهُ دون فائدةٍ تذكر.

لهذه الدرجة كنت حمقاء؟

هل كان خداعي سهلاً إلى ذلك الحد!

ـ لا أظن مثلكِ تكون حمقاء أبداً، فقد جعلتهِ يعترف بكل شيء وكأنكِ ضابط في أمن الدولة، لابد وأنهُ هو الذي استشعر حماقتهُ حين أدركَ أنكِ لم يكن عندكِ علم بأي شيء مما بينه وبينها، وإنما فقط كنتِ تستدرجينه ليعترف هو على نفسه بكل شيء.

ـ من الأفضل أن نغير هذا الموضوع، لا أريدُ حديثاً عنهُ يذكرني به.

ـ ولكن لو الأمر كما تقولين فلماذا ترفضين التخلص من متعلقاتهِ التي معكِ، وبالأخص من صورتهِ التي رسمتها له؟ أم أن هذه الأشياء لا تذكركِ هي الأخرى به!

ـ لن أتخلص منها، فمن خلال النظر إليها أُدرك كم كنت غبية فيزداد كرهي له.

ـ يؤسفني أن أقول لكِ أنكِ لا تزالين تحبينهُ يا أسماء.

ـ لذلك قررت أن أقتلهُ بداخلي.

ـ عموماً الحمد لله الذي أظهرهُ على حقيقته في الوقت المناسب، دعكِ منه ومن التفكير فيه وعودي إلى حياتكِ الطبيعية، فقد بدأ البيتُ عندكِ يرتاب في أمركِ ويظن بكِ الظنون، لاحظتُ ذلك من طريقة حديث أمكِ معي قبل أن أدخل عليكِ.

ـ دعيها ترتابُ، لن يطول هذا الأمر.

ـ ما رأيكِ في العريس الجديد، هل ستوافقين عليه؟

ـ ما رأيكِ أنتِ؟

ـ من خلالِ كلامكِ عنه، وأيضاً من خلال ما أخبرتني به أمكِ فهو فرصة ذهبية تحلم بها أي فتاة في الدنيا، فهو مهندس وصاحب شركة، وأهم من ذلك كله أنه ليس له أم

ولا أب، مما يعني أنكِ بارتباطكِ به ستضمنين النجاة من ثلاثة أرباع المشاكل الزوجية على الأقل، والتي تكون بسبب والدة المحروس، ومع كل تلك المميزات فهو لا يزالُ شاباً.

لو كنتُ مكانكِ لما ترددت لحظة واحدة في الموافقة عليه، إلا إن كنتِ تفكرينَ في الرجوع إلى وليد وإعطائهِ فرصة أخيرة.

هذا هو رأيي، فما رأيكِ أنتِ؟ لا تقولي لي أنكِ مترددة.

ـ بل حسمتُ أمري من اللحظة الأولى التي أخبروني فيها بأن هناك من تقدم لخطبتي.

ـ جيد جداً، فالظنون قد بدأت تأخذهم بكِ كما أخبرتكِ.

ـ سأُبدد كل ظنونهم غداً بجملةٍ واحدة.

ـ وما هي هذه الجملة السحرية التي ستبدد كل الظنون بمجرد نطقكِ لها؟

(الفصل الرابع)

ـ لقد قررتُ الموافقة على العريس يا أبي.

ـ جميل، يسعدني ذلك القرار، أظنه قراراً صائباً، فقد سألتُ عن الولد بنفسي ولم أكتفِ بسؤال أخيكِ علاء، وكل الناس تقريباً تمدحُ فيه وتثني عليه خيراً.

ـ لكني لا أتحدث عن العريس الذي تقدم لي منذ أسبوع.

ـ فحديثك عمن إذن؟ هل تقدم لكِ أحد بعده ولا أدري؟!

ـ بل قبله.

ـ لا أفهم منكِ شيئاً، أوضحي ما تودين قوله.

ـ لقد قررت الموافقة على الارتباط بحسام يا أبي.

ـ هل حدثَ لعقلكِ شيء؟ ما هذا العبث الذي تقولينه!

ـ ألم تكن أنت من تُؤيد ارتباطي به يا أبي.

ـ كان ذلك حين تقدم لكِ، لا بعد أن أخبرناهُ برفضكِ له، ثم مرور بضعة أشهر على الرفض.

ـ لكنني موافقة الآن.

ـ هل جننتِ يا أسماء أم ماذا حدث لعقلكِ أخبريني.

ماذا تنتظرين مني أن أفعل؟ أذهب إليه وأقول له يا حسام إن ابنتي أسماء التي تقدمت لخطبتها ورفضتك أعادت التفكير في الموضوع و وافقت؟

هل تظنين أني قد أفعل ذلك؟ ولو أني فعلتهُ فهل تظنين أن حسام قد يقبل بهذا العبث!

ثم ما الذي غيَّر رأيكِ هكذا فجأةً، لقد كنتِ ترفضينهُ بشكل قطعي، فما الذي حدث؟

ـ لقد فكرتُ في أبناء أختي وأيضا في وصيتها.

ـ نعم، أبناء أختك.. الآن تذكرتِ أن لكِ أختاً، وتذكرتِ أيضاً أن لها أبناء و وصية، وقديماً لم يكن عندكِ علم لا بأبنائها ولا بوصيتها، أليس كذلك؟!

- ....

ـ لماذا تبكين الآن؟

ـ لأنك تقسو عليَّ كثيراً، وأنا لم أعتد منك على ذلك يا أبي.

ـ أقسو عليكِ لأنكِ إما أنكِ جئتِ لكي تعبثي معي في أمر لا يحتمل العبث مطلقاً، أو أنكِ قد حدث لعقلكِ شيء.

ـ لا هذا ولا ذاك يا أبي، أنا لا أعبث، بل أنا جادة جداً، وأيضاً عقلي لم يحدث له أي شيء، فأنا أعرف جيداً ماذا أقول وماذا أفعل، وقد فكرت في الموضوع كثيراً وأنا أوافق الآن عليه عن اقتناع كامل.

ـ ولكن ماذا أقول لحسام بعد ذلك الذي كان، وهل لا تزال عنده الرغبة ابتداءً في الارتباط بكِ أو بغيركِ.

ـ أخبرني ماذا كان ردك عليه حينما رفضتُ الارتباط به.

ـ قلتُ له أننا عرضنا الأمر عليكِ، وأنكِ لا تفكرين في الارتباط حتى تخرجك في الجامعة.

ـ هذا رد مثالي جداً يا أبي، يمكنكَ الآن أن تفتح معه الموضوع مباشرة دون أي التواء أو مداراة، قل لهُ أنكَ حين تقدمت لخطبة أسماء فقد أخبرتكَ أنها لا تريد أن ترتبط وهي تدرس، وها هي قد أنهت جامعتها وستظهر نتيجتها بعد أيام، وقد عرضت أمها عليها الموضوع مرة ثانية فقبلت.

ـ وهل تظنين أن حسام غبي إلى تلك الدرجة حتى يصدق ذلك الهراء؟ لقد علم منذ ردي عليه أنكِ رفضتهِ رفضاً مباشراً، وأن حجتكِ تلك هي محض كلامٍ نُغلف به ذلك الرفض حفاظاً على مشاعره ليس أكثر.

ـ أخبره يا أبي وسيصدق، وحتى إن لم يُصدق، فالجميع يعرف أنه تقدم لي من أجل أولاده، ومن أجل تنفيذ وصية ملك، أي أنه وإن لم يقتنع بهذا الكلام فلن يرفض الزواج، وحتى إن رفضه فسأتحمل أنا عواقب ذلك الرفض.

وتدخل والدة علاء فتسأل زوجها:

ـ ماذا قررتْ أسماء؟

ـ لقد وافقت على الارتباط.

ـ عين العقل، اختيار موفَّق، فالولد لا يعيبه شيء البتة.

ـ هو كذلك فعلاً يا أم علاء، ولكنها لم توافق على ذلك الذي تتحدثين عنه.

ـ فعلى من وافقت إذنْ!

ـ على حسام.

ـ حسام؟ ما هذا الهراء!

ـ ليس هراءً، هو كما قلتُ لكِ.

ـ هل تقدم حسام مرةً أخرى لخطبةِ أسماء ولم تخبرني بذلك؟

ـ كلا، لم يفعل.

ـ إذن فما هذا الكلام الغريب الذي تقوله الآن.

ـ أنا لم أقل شيئاً، وإنما أسماء هي التي قالت.

ـ أنا لا أفهم منكَ شيئاً.

ـ ها هي ابنتكِ أمامكِ فافهمي منها ثم أفهميني فيما بعد، سأذهبُ إلى الصلاة.

ـ هل في حسام مشكلة يا أمي؟

ـ بل فيه مشاكل كثيرة، حينما تقدم لكِ في المرة الأولى كنتُ رافضةً رفضاً مطلقاً، و والدكِ كان يعلم ذلك، ولكني لم أتدخل لثقتي في أنكِ لن تقبلي به، فهل أوافقُ عليه بعد أن رفضناه، وأيضاً في ظل وجود عريس لا يعيبه أي شيء!

ـ لكني أرى أن حسام أفضل منه، ثم إنني أريد أن أقوم على رعاية أبناء أختي.

ـ حسام ليس أفضل منه، حسام أصبح كُتلةً من الحزن تمشي على الأرض، لقد حزن على ملكَ أكثر مما ينبغي، لقد حزن عليها أكثر مني أنا أمها!

ثم إنه لا يريد زوجة، إنما يريد أما لأولاده، أما لأولاده وفقط، وأنتِ بعدُ في مقتبل عمركِ، فما الذي يجبركِ على أن تضيعي شبابكِ معه، هذا فضلاً عن كونه يكبركِ بعشرة أعوام على الأقل.

ـ الذي يجبرني على ذلك هو أنني أريدُ فعلاً أن أكون أما لأبناء ملك.

ـ ولماذا لم يكن هذا هو رأيك منذ البداية؟

ـ لقد فكَّرت في الأمر الآن من زاوية غير التي كنت أفكر من خلالها سابقاً.

ـ تتركين هذا الشاب الذي لا يعيبه شيء، والذي اختارك بنفسه، من أجل أن تضيعي عمركِ وشبابكِ مع حسام!

ـ لن أتزوج من ذلك الشاب الذي لا يعيبه أي شيء، ولن أوافق عليه أبداً.

ـ وافقي عليه أو ارفضيه فهذا كله راجع لكِ، لكن زواجكِ من حسام لن يكون إلا على جثتي.

****

ـ ما الأمر يا أمي؟ لماذا طلبتِ رؤيتي على الفور؟

ـ حتى تُرجع عقل أختك إليها، يبدو أنها قد جنّت.

ـ ما الذي حدث، اشرحي لي.

ـ أختكَ تريدُ رفض العريس الذي سألتَ عنهُ منذ أيام وأخبرتنا أنه مهذب ولا بأس به وأن حالتهُ المادية جيدة جداً.

ـ لا بأس يا أمي، هي حياتها ولا يستطيعُ أحد أن يرغمها على العيش مع شخصٍ لا تريد أن تعيش معهُ.

ـ لكن يا بني العرسانُ قِلَّة هذه الأيام، وأختكَ لم تعد صغيرة، ما يدرينا أنه سيتقدم لها أحد مثل هذا مرة أخرى، وما أدرانا أنها لن تندم، هي صغيرة ولا تعرف ما ينفعها ولا ما يضرها.

ـ حيرتني معكِ يا أمي، هل هي صغيرة أم كبيرة!

ـ علاء.. إن لم تتوقف عن المزاح في هذه الأمور الجادة فسأضربك في وجهك بأقرب شيء مني، أعصابي لا تحتمل المزيد.

ـ حسناً، أنا لا أمزح، وأسماء ليست صغيرة فعلاً كما قلتِ أولاً، وبإمكانها أن تعرف كيف تختار يا أمي، هي لا تريد الارتباط بهذا الشخص، وأنتِ أخبرتها أنه مناسب جداً، وكذلك أخبرتها أنا وأبي، إذن فقد قدمنا لها النصيحة التي تجب علينا تجاهها، ويبقى الاختيار حق كامل لها لا ينازعها فيه أحد.

ـ ليست المصيبة في أنها ترفض هذا فقط.

ـ إذن فقد تقدم لها عريس آخر ورفضتهُ أيضاً دون أن تخبروني حتى بأنهُ قد تقدم.

ـ لم ترفضهُ، وإنما وافقتْ عليه.

ـ ومن هو؟

ـ حسام.

ـ حسام؟ هل تقدم لها مرة أخرى!

ـ لم يفعل، ولكنها تقولُ بأنها أعادت التفكير في شأن تقدمه لها ورأتْ أنها لم تفعل الصواب حين رفضته.

ـ بغضِّ النظر عن كونها فعلت الصواب أو الخطأ، كيف تسمحُ لنفسها أن تفكر في موضوع قد انتهى بغير رجعة!

ـ أخبرها أنت بذلك، عساكَ تستطيعُ إقناعها.

ـ وأين هي؟

ـ ذهبتْ لزيارة صديقتها مي، رغم كوني مُشتعلة منها غيظاً فقد سمحتُ لها بالخروج، فهي حبيسة البيت منذ أسابيع.

ـ لا بأس، سأنتظرها حتى تعود.

****

ـ لقد سئمتُ يا أمي من هذا الموضوع، كلما جئتُ لأجلس معكِ قليلاً تفتحين معي موضوع زواجي!

ـ يا بني أنا أم، هل تعرف معنى كلمة أم؟ في كل ليلة ينصدع قلبي لحالك، أريدُ أن أكون مُطمئنة عليكَ قبل أن أموت.

ـ أطال الله عمركِ يا أمي، لا تقولي هذا.

ـ كيف يطول عمري وأنت تُعجِّل بموتي، كلما رأيتكَ هكذا تملكني الحزن والأسى لحالك، هل أنت أول واحد في الدنيا تموت زوجته ويتزوج بعدها!

لماذا تفعل هكذا بنفسكَ وبي، لا تزال في ريعان شبابكِ يا بني، فلماذا لا تتزوج من جديد.

من يدري، لعلك تتزوج من فتاة صالحة تعوضك عما أخذه الله منكَ، وتكونُ أما صالحةً لعمار وياسمين، وربما أنجبتَ منها أيضاً.. ما الذي يمنع؟

لعلها تستطيع أن تخرجكَ من ذلك السجن الذي حبستَ نفسكَ داخله يا بني.

ـ وأين هي تلك التي تستطيعُ أن تعوضني عن ملك وتكون أما صالحة لأولادها؟

ـ موجودة يا بني، موجودة بإذن الله، لا أريد منكَ فقط أكثر من أن تراها وتجلس معها، لو لأمك من قلبك نصيب فاجلس معها.

ـ وماذا لو رفضتُ ذلك؟

ـ أقسم أنكَ لو رفضت هذه المرة أيضاً يا حسام أن أقاطعك حتى أموت وأنا غاضبة عليك.

ـ لماذا تفعلين هذا بي يا أمي؟ لا أريدُ أن أتزوج، لماذا تجبريني على فعل مالا أريده.

ثم إن تلك التي تحدثيني عنها حتى وإن كانت زوجةً صالحة لي فلا أظن أنني سأكون زوجاً صالحاً لها، لماذا تُبتلى المسكينة بي!

ـ لن تبتلى، وهل تجد لنفسها في الدنيا من هو أفضل منك.

ـ تقولين هذا لأنني ابنك، لكن على الأرجح سيكون لها رأي آخر، وأغلب الظن أنها إن جلست معي فسترفضني هي من تلقاء نفسها.

ـ ذلك لا يعنيك، ولا لومَ عليكَ فيه، اجلس فقط معها ثم دعِ أي شيء آخر عليَّ أنا.

ـ حسناً يا أمي، لأجلكِ فقط سأجلسُ معها، وإن كنتُ لا أعدكِ أنني سأوافق على زواجي منها. متي وأين يمكنني أن ألتقي بها؟

****

ـ ما هذا الذي تقولينهُ يا أسماء!

ولماذا لم تخبريني بهِ عندما كنتُ عندكم بالأمس؟

ـ كنتُ مُنشغلة بكيفية عرض الموضوع في البيت.

ـ لكن هذا جنون، جنون فعلاً.

ـ أتوقع من أي أحد أن يقول ذلك لي إلا أنتِ، فأنت الوحيدة التي تعرف أن من أكبر الأسباب التي جعلتني أرفض حسام هو وجود وليد في حياتي.

ـ وهل خرج وليد الآن من حياتك؟

ـ هكذا سأخرجه منها.

ـ وماذا إذا لم يخرج؟

ـ سواء خرج أو لم يخرج فأنا لن أتزوج منه، وإن كنت ولابد سأتزوج يوماً فليكن حسام هو زوجي، على الأقل أستشعر أني قد فعلت شيئاً لأختي.

ـ وما هو رأي البيت؟

ـ أمي لا تزال ترفض كما هو شأنها حين تقدم حسام أول مرة، غير أنها أصبحت أشد رفضاً بعد أن تقدم لخطبتي ذلك الذي لا عيب فيه كما تقول.

وأما أبي فأنا عاجزة عن تحديد موقفه، كان في البداية حين تقدم لي حسام موافق بشدة، حتى أنه ظل يُقنعني بشتَّى الطرق، والآن لا أعرف إن كان يرفض بشدة أو ما زال مرحباً بالموضوع غير أنه لا يدري كيف يمكن حصوله بعد الذي كان.

ـ وماذا عن أخيكِ علاء؟

ـ لم أتكلم معه في هذا، حتى مجيئي إليكِ لم يكن يعرف شيئاً، لكني أظن أن أمي قد أخبرتهُ الآن حتى يجعلني أعدِل عن قراري، بل أتوقع أن أذهب إلى البيت فأجدهُ في انتظاري، وإن كنتُ أتوقعُ منهُ أن يكونَ في صف أمي.

إذا كان أبي الذي كان يؤيد زواجي من حسام بقوة رجع عن تأييدهِ لي، فكيف بعلاء الذي كان يقفُ على الحياد!

ـ بعيداً عن ذلك كله أخبريني.. هل أنتِ واثقة من أنكِ ستستطيعين أن تتعاملي مع حسام هذا؟

ـ ما بكم؟ كلكم تتحدثون عنهُ وكأنه وَحْش، أو كأنهُ إنسانٌ بدائي لا يعرف إلا العيش في الغابات!

لقد عاشت أختي ملك معه أسعد أيام عمرها على الإطلاق، وكانت تدعو الله لي دوماً أن يرزقني زوجاً مثله، لقد كان حسام يا مي قمة في الذوق العالي والمشاعر الجياشة، وكان أيضاً مضرب المثل في الضحكِ والمزاح.

ـ قد قلتها يا أسماء، كانَ، لكنهُ لم يعد كذلك الآن.

ـ هذا لأنهُ وفيٌ لتلك التي أحبها، باللهِ عليكِ هل رأيتِ في حياتكِ وفاءً أعظمَ من هذا؟

ـ لكن وفاءهُ هذا سيكون حاجزاً عنيداً بينكما.

ـ لذلكَ فأنا مصممة على الارتباط به، حسام لا يريد زوجة، ولكن أما لأولاده كما تقول أمي، وأنا أيضاً لا أريدُ زوجاً، قد كرهتُ الرجال جميعاً، فإن كان ولابد من الزواج فليكن من أجل أختي.

ـ لستُ مُقتنعة بهذا الكلام، وليد ليس كل الرجال، وكما أن هناك من يخون كوليد، فهناك من شعاره الوفاء كحسام، وأخشى أنكِ ستندمين على هذه الخطوة حين يندمل جرح وليد لكِ.

ساعتها ستتذكرين أنكِ فتاة وأن لك احتياجات لن يستطيع حسام أن يعطيها لكِ، احتياجات أقلها أن تشعري أنك تعيشين مع رجلٍ يحبكِ.

الرجل يستطيعُ أن يعيش مع امرأة لا تحبه ويمارس حياته اليومية بشكل طبيعي، لكن المرأة ليست كذلك، لذلك لو خيَّرتِ أي رجل في الدنيا بين أن يتزوج ممن يحبها أو ممن تحبه لاختار تلك التي يحبها، خلافاً لنا نحن النساء.

ـ إذن فأنتِ أيضاً تضمين صوتكِ إلى صوتِ أمي!

إنا لله وإنا إليه راجعون.

****

ـ شخصياً أرى أن ما فعلتهُ أمكَ هو عين الصواب، ولا أرى سبباً مقنعاً لكل هذا الضيق.

- ....

ـ لا تنظر إلي هكذا، ثم إنكَ لم يكن لديك أي مانع في أن تتزوج من شقيقة ملك، إذن فلا أرى كبير فرق بين أن تتزوج منها أو من غيرها، المهم هو أن تتزوج.

ـ بل كان هناك موانع كثيرة، لكني غضضت الطرف عنها يا أحمد، منذ دخلتُ بيت أهل ملك أريد خطبتها وأنا أعتبر أسماء هي أختي الصغيرة، أعتبرها أختي فعلاً، فهل ترى مسألة زواجي منها ورضاي بذلك كان أمرا هيناً عندي؟ ومن أجل وصية ملك وافقت على الزواج، وأيضاً من أجل الأولاد ومن أجل أمي التي تكلمني صباح مساء في حتمية أن أتزوج، رغم أني لم أكن مُقتنعا بذلك، ولهذا فإني تركت موضوع أسماء هذا

معلقاً أكثر من عام، والحمد لله أن الرفض أتى منها هي، فقد أزالت من على كاهلي حملاً ثقيلاً.

ـ اسمعني جيداً فيما سأقوله لك يا حسام وحكّم عقلك فيهِ باللهِ عليك، ربما أكونُ أصغر منكَ ببعض الأعوام لكنني أرى أن رأيي أكثر تعقلاً من رأيك في هذا الموضوع، بنفسك قلت الآن أنك وافقت على الزواج من أسماء من أجل ملك وأولادك وأمك، وأنا أقول لك: والآن أيضاً ستتزوج من غيرها من أجل ملك وأولادك وأمك.

بل زواجكَ من غير أسماء لعله الأفضل والأصلح لكَ وللأولاد، فأنت تعتبر أسماء هذه أختكَ، لكن غيرها لن تعتبرها كذلك، بل ستكون زوجتك، زوجتك وأما لأبنائك أيضاً.

متي ستلتقي بالفتاة التي اقترحتها عليك أمك؟

ـ غدا في التاسعة مساء في بيت أهلها.

ـ اذهب يا حسام واجلس مع الفتاة، واجعل الحكم لعقلك أولاً، فإن وجدت الفتاة لا بأس بها فتوكل على الله وامضِ ولا تلتفت.

هذه نصيحةٌ لكَ من أخٍ يرجو لكَ من الخير مثل ما يرجوه لنفسه.

****

ـ هل تظن أنني وافقت على أن ألتقي بك من أجل هذا الذي تهددني به؟

ـ لكني لم أكن أهددك يا أسماء، كل الذي قلتهُ لكِ في رسالتي: إن لم تقابليني غداً في نفس الموعد والمكان فسأقابلك أنا في نفس الموعد لكن في بيت أهلك.

ـ وماذا لو كنتُ تجاهلت رسالتك؟

ـ كنت سآتي إلى بيتكم فعلاً.

ـ ولماذا تأتي بيتنا؟!

ـ من أجل خطبتكِ، لقد تخرجتُ يا أسماء وبتقدير عام جيد جداً

ـ مبارك عليك التخرج.

ـ وخطبتنا ألن تباركي لي عليها.

ـ لا، فأنت من سيبارك لي.

ـ بل سأبارك لكلينا.

ـ لقد فهمتني خطأً يا وليد، أنا الآن في حكم المخطوبة.

ـ ما هذا الهراء، نحن بيننا اتفاق وعهد.

ـ وأنت نقضته وانتهينا ولم يعد بيننا أي شيء.

ـ أنا أحبكِ يا أسماء، أعلم أنني أخطأت في حقكِ خطأ شنيعاً، لكني أقسم لكِ ألا يتكرر ذلك أبداً، وقد نفيتُ هذه الشيطانة من حياتي بشكل نهائي.

ـ الموضوع انتهى يا وليد، ولأجل الأشياء الجميلة التي كانت بيننا في يوم من الأيام، أو التي كنت أظنها كذلك، فسأدعو الله لك أن يوفقك في حياتك.

ـ أنتِ حياتي.

ـ دروبنا اختلفت يا وليد، قد تستطيع أي فتاة في الدنيا أن تغفر لك ذلك الخطأ، لكني لا أستطيع، صدقني لا أستطيع، لقد سقطت من نظري، بعد أن كنتُ أراكَ أكبر من هرم أصبحت أراكَ أصغر من ذبابة. هل يسركَ أن تعيش معي وأنا أراكَ بهذا الصِغَر؟

ـ لكني بشر يا أسماء، لستُ ملاكاً.

ـ وأنا لم أرد منكَ أن تكون ملاكاً، فقط أردتك وفياً لي بقدر ما كنت وفيَّة لك.

سأذهب الآن، ولكن قبل أن أذهب فإني أرجوك ألا تحاول أن تتعرض لي مرة أخرى بأي شكل من الأشكال، وإلا سأضطر ساعتها أن أخبر أخي علاء وهو يعرف جيداً كيف يتعامل مع مثل هذه الأمور.

****

ـ أنا موافق يا أمي على الزواج من هذه الفتاة.

ـ ألم أقل لك أنها فتاة صالحة وأنها ستعجبك كثيراً بمجرد أن تراها، ها قد تأكد كلامي.

ـ نعم يا أمي، قد تأكد كلامك فعلاً.

ـ ولكن لماذا أراكَ مهموماً هكذا يا ولدي؟

ـ وما الذي سيجعلني مهموماً، أنا سعيد، سعيد جداً.

ـ لكن لا أرى أي بوادر سعادة على وجهك.

ـ ماذا أفعل لكِ لكي أقنعكِ أنني سعيد يا أمي، هل أقوم فأرقص مثلاً، قد لبَّيتُ لكِ طلبكِ حتى ينتهي الحديث عن حزني وعن سعادتي، حتى ينتهي كلام كثير قد ضجرت تكراره، حتى ينتهي كلام كثير لا طائل من ورائه، ولكن ها نحن لم ننته من شيء من ذلك كله، لم ننتهِ من شيء يا أمي، فما الفائدة إذن!

أمي.. هل تبكين؟

ـ لا يا ولدي.

ـ بل تبكين يا أمي، أنا آسف، بالله عليكِ لا تغضبي مني.

ـ هذه أول مرة يرتفع فيها صوتك على أمك بهذا الشكل، لم تفعلها حتى وأنت صغير.

ـ سامحيني يا أمي، سامحيني أرجوك، لم أنتبه لارتفاع صوتي ولا لطريقة كلامي.

ـ أعرف أنك وافقت على الفتاة دون أي رغبة منك في ذلك، وإنما لترضيني، أعلم ذلك جيداً يا بني، قلتَ في نفسك أيام أمي في الدنيا قد أصبحت معدودة، أريح نفسي وأتزوج حتى ينتهي إلحاحها.

لا يا ولدي، إن كنت لا تريد الزواج فأنت وما تريد، فأيامي في الدنيا معدودة فعلاً، والعمر الطويل لك، فعش حياتك كما يحلو لك، ربما كان من الأصلح لك فعلاً أن تعيش بلا زواج، فأنت أدرى بنفسك مني.

ـ لا تقولي هذا أرجوكِ، بل العمر الطويل لكِ أنتِ، وسأتزوج من أجل نفسي يا أمي لا من أجل إلحاحك، كلكم على صواب، قد رحلت ملك، ولا أظن عزوفي عن الزواج يفيدها في شيء البتة.

بل الجميع متضرر من موقفي هذا، الجميع بلا استثناء، أنا وأنت والأولاد وحتى أهل ملك أنفسهم.

سأتزوج يا أمي، سأتزوج ولن تغضب مني ملك، لن تغضب لأنها تعلم أني أحبها هي حتى وإن تزوجت من غيرها، لن تغضب لأنها تعلم أن الأولاد بحاجة إلى من يعتني بهم ولست أقدر على ذلك وحدي، لن تغضب لأنها هي التي اضطرتني إلى فعل ذلك برحيلها عني، أنا الذي يحق لي أن أغضب منها.

ـ أنت أيضاً تبكي يا حسام، لا تبكي يا بني، لا تبكي يا حبيبي.

ـ خذيني في حضنك يا أمي، أحتاج إلى أن أرمي بنفسي في حضنك وأبكي.

ـ يا حبيبي، تعال إلى حضن أمك، تعال يا قلب أمك.

****

ـ ما شاء الله، أبحث عن عروسٍ لي منذ فترة دون جدوى وأنت في يومٍ واحد تُعرض عليك اثنتين لتختار منهما أيهما شئت.

ـ هل هذا وقت مزاح! لا أدري ماذا أفعل ولا كيف أتصرف، أنا في مأزق حقيقي.

ـ من حيث كونه مأزقاً فهو مأزق فعلاً، لكن ما دامت أمك لم تخبر أهل الفتاة التي رأيتها برأيك النهائي فإن الأمور لا تزال تحت السيطرة.

ـ ولكني مرتاب في هذا الذي يحدث، لماذا الآن تحديداً توافق أسماء على زواجنا؟

ـ يا أخي ربما كانت لا ترغب في الزواج فعلاً أثناء دراستها، فلما أنهت دراستها وعلموا أنك تقدمت لهذه الفتاة بادروا بإخبارك أن البنت لا مانع عندها.

ـ لكن لا أحد يعلم بموضوع رؤيتي لتلك الفتاة وتقدمي لخطبتها غيرك أنت وأخي سيف فقط.

ـ لماذا تنظر إلي هكذا؟ هل تظنني قد ذهبت إليهم فأخبرتهم مثلاً!

وحتى لو أني فعلت ذلك فهل تظن أن ذلك سبب كافٍ لأن يعيدوا النظر في شأن تقدمك؟

ـ قد أجبتَ على نفسكَ بنفسك، لهذا الذي تقوله فأنا لستُ مُطمئناً، أخافُ أن يكونَ والد أسماء قد أكرهها على الزواج مني.

ـ لو كان في نيتهِ إكراهها لأكرهها منذ البداية. لكن ما هذا الهراء الذي نقوله الآن!

نحنُ في الألفية الثالثة، هل أحد الآن يكره ابنته على الزواج، لاسيما إن كانت جامعية، و والدها مثل حماك!

ـ ومع هذا فأنا مُتوجس.

ـ وماذا قررت إذن؟

ـ لا أدري إلى الآن ما الذي يجب علي فعله، لكن حيرتي لن تطول، سأحسم أمري الليلة أو غداً كحد أقصى.

(الفصل الخامس)

ـ على بركة الله يا ولدي، سننتظرك الليلة أنت والوالدة حتى نتفق على كل شيء بخصوص زواجكما.

ـ لو أذنتَ لي يا عمي فإني أفضِّل أن آتي الليلة وحدي.

ـ لا بأس يا بني بكل تأكيد، لكن هل الوالدة معترضة على شيء؟

ـ إطلاقاً يا عمي، لا يذهب عقلك بعيداً، على العكس، فأمي سعيدة جداً، لكني أريدُ أن أجلس أولاً مع أسماء، عندي بعض الأشياء التي أود قولها لها قبل أن نشرع في الحديث عن تفاصيل الزواج.

ـ لا أمانع طبعاً يا ولدي، فهو حقك بكل تأكيد. سننتظرك الليلة على العشاء إن شاء الله.

ـ إن شاء الله يا عمي.

ـ مع السلامة يا ولدي.

ـ سلَّمك الله يا عمي.

ـ يمكنني أن أجزم أن هذه المكالمة الهاتفية التي من أجلها خرجت من مكتبك في غاية الخصوصية.

ـ هي كذلك يا أحمد، كنتُ أخبر والد ملك بموافقتي على الزواج.

ـ ما شاء الله، أصبح والد الفتاة هو الذي يخطب لابنته، ثم ينتظر رأي خاطبها إن كان بالإيجاب أو بالرفض.

ـ لا تكن سخيفاً، تعلم أني من تقدم لخطبتها وليست هي التي تقدمت لخطبتي، غاية ما في الأمر أنه قد تم رفضي أول الأمر، أو كما يقول عمي قد تم تأجيل النظر في الموضوع لحين تخرجها.

ـ وهل تشرح ذلك لي أنا!

أعرف ذلك يا صديقي جيداً، أمزح معك ليس أكثر.

ـ من الجيد أنك تعرف.

ـ هل اتفقتم على تفاصيل الزواج؟

ـ وهل كنتَ تنتظر منا أن نفعل ذلك عبر الهاتف!

ـ إذن سيتم الاتفاق الليلة؟

ـ ليس قبل أن أسأل أسماء سؤالاً واحداً.

****

ـ من الجيد أنهم سمحوا لي أن أجلس معكِ وحدي.

ـ لستَ غريباً يا حسام لتقول هذا، أبي يعتبركَ كعلاء تماماً، وربما يحبك أكثر من علاء.

ـ أردتُ أن أسألكِ سؤالاً واحداً وبعدهُ يمكنكِ أن تسأليني ما شئتِ من الأسئلة.

ـ تفضل يا حسام، أنا أسمعكَ.

ـ هل أكرهكِ أحد على أن توافقي على زواجنا؟

ـ لماذا تقول هذا؟

ـ فقط أجيبيني ولا تردي على سؤالي بسؤال.

ـ حسناً، لم يجبرني أحد البتة، موافقتي كانت عن محض إرادتي واختياري.

ـ هل أنتِ واثقة من ذلك؟

ـ كل الثقة، لكن لماذا هذا السؤال؟ هل تظن أن أبي ضربني مثلاً ثم حبسني ومنع عني الطعام والشراب حتى أوافق؟!

ـ لم أقل هذا، ولكن لماذا لم يكن هذا هو رأيك منذ البداية؟

ـ أظن أبي قد أجاب على هذا السؤال، ومع هذا سأجيبك.. ببساطة فإني كنتُ قد أجَّلت الموضوع إلى ما بعد تخرجي، وقد تخرجت والحمد لله، ثم إنني تقدم لي الكثيرين وكان ردي على الجميع واحد، وهو أني لن أرتبط حتى أتخرج.

ولتطمئن أكثر فإن آخر من تقدم لي كان منذ أقل من شهر، أي أنني كنتُ قد انتهيتُ من الجامعة وأترقب ظهور النتيجة، وكان البيتُ كلهُ يراهُ مناسباً، بل مثالياً جداً، ويمكنكَ أن تسأل علاء عن هذا، فهو صديقك، ومع هذا فقد رفضتهُ وأخبرتهم بأنني قد وافقتُ على حسام.

ـ قد وافقتِ على حسام، لكنكِ لم تكوني موافقة من قبل؟

ـ بل لم أكن نظرتُ في الموضوع، لأني كما أخبرتكَ كنتُ قد اتخذتُ قراراً بتأجيله.

ـ إذن فلم يكن أحدهم في حياتك؟

ـ ....

ـ لماذا سكتِّ؟

ـ كلا لم يكن أحد في حياتي. هل انتهت الأسئلة أم هناك المزيدُ منها؟

ـ بل انتهت، أعتذر، هل ضايقتكِ؟

ـ قليلاً.

ـ إذن أكرر اعتذاري، لكن كان ولابد من سؤالكِ.

ـ لا عليك، لم يحدث ما يستدعي اعتذارك.

ـ عموماً يمكنكِ أن تسأليني الآن عما شئتِ.

ـ ليس لدي أي أسئلة.

ـ حقاً؟

ـ نعم. لا لا، لدي سؤال واحد.

ـ وما هو؟

ـ أين عمار وياسمين؟ لماذا لم تحضرهم معكَ؟!

ـ هما عند أمي، لم أشأ أن أحضرهما معي حتى لا يتسببا في الفوضى والإزعاج الذي بدوره كان سيحول بيني وبين هذه الجلسة معكِ، إن شاء الله في الزيارة القادمة سوف أحضرهما معي.

ـ إن شاء الله.

****

ـ لماذا الزواج بعد شهر!

وهل شهر واحد كافٍ لأن تحكم أسماء عليه إذا ما كانت ستستطيع العيش معه أو لا؟

ـ كافٍ جداً يا أم علاء، كاف جدا جدا، ثم إنكِ تتحدثين عن حسام كأن أسماء لا تعرفه!

ـ كانت تعرفهُ زوجاً لأختها، وليس زوجاً لها هي.

ـ عموماً قد اتفقت مع حسام و والدته على ذلك وانتهى الأمر.

ـ وما رأي أسماء إذن؟ وكيف تفعل ذلك دون أن ترجع إليها هي أولاً وهي صاحبة الشأن كما يحلو لك دوماً أن تردد!

ـ قد أخبرت أسماء بذلك قبل أن يحضر حسام وأمه وشقيقه، ولا مانع عندها.

ـ ما شاء الله، إذن فأنا آخر من يعلم.

ـ كيف تكونين آخر من يعلم وكل ذلك كان على مرأى ومسمع منكِ منذ أقل من ساعة!

ـ لكن اتفاقك معها لم يكن على مرأى ومسمع مني.

ـ يُخيَّل إليَّ أنكِ تتمنين إفشال الخِطبة والزواج كله.

ـ لا تتخيل ذلك، بل كن منه على يقين، لو أن بيدي حيلة لما سمحت بأن يحدث شيءٌ من ذلك كله، لكن ما حيلتي وقد قررت أنتَ والهانم!

ـ إلى هذا الحد تكرهين حسام؟

ـ سامحك الله، هل أنا قلت ذلك؟

ـ تصرفاتكِ توحي بذلك.

ـ حسام مثل ابني تماماً، يكفي أن ابنتي رحمها الله قد عاشت في كنفه عزيزة مُصانة، ما أغضبها يوماً ولا أهانها، ولكنه كان يصلح لملك، لا لأسماء.

ـ وما الذي يجعله يصلح لملك دون أسماء وهما شقيقتان!

ـ قد قلتها يا أبا علاء، قد قلتها، شقيقتان، ولأنهما كذلك فهي لا تصلح له، ثم ما الذي يجبرها على أن تتزوج من رجل سبق له الزواج وعنده أولاد أيضاً!

ـ ستجننينني يا امرأة، تتحدثيبن عنهُ وكأنه كان زوجاً لأمنا الغولة وأولادهُ منها يحملون الديانة اليهودية!

يا امرأة قد أصابها الخرف هذه الزوجة التي تتحدثين عنها كانت ابنتك، وأولاده الذين تتحدثين عنهم هم أحفادكِ وأنتِ جدتهم!

ـ وأسماء التي لا تدرك عواقب ما تفعله ابنتي هي الأخرى أيضاً.

- وقد رضيتْ به ابنتك، وقررت أن تتزوج منه، وهي ليست صغيرة.

- ومع ذلك فلن أغير رأيي، أسماء لا تصلح له، وإن شاء الله ستدرك هي ذلك من تلقاء نفسها قبل أن تصيبَ الفأسُ الرأسَ ويكون مالا تحمد عقباه.

- سأنام قبل أن أرتكب جناية الليلة، تصبحين على خير.

****

- لن تصدقي من تقدم لخطبتي يا أسماء؟

- قولي وسأحاول أن أصدق.

- إنه صديق لخطيبكِ حسام، بل صديقه الأول ورفيقه في العمل.

- جميل جداً.

- لا يبدو لي أنكِ مُندهشة.

- ولمَ الدهشة؟

- حسناً، لا يهم، ألن تسأليني من من هو ذلك الشخص؟

- قد قلتها، صديق حسام ورفيقهُ في العمل، إذن فهو محاسب، واسمهُ أحمد، ويصغر حسام بقرابة الخمسة أعوام، أي أنهُ يبلغ من العمر سبعة وعشرين عاماً تقريباً.

- يبدو أنني أنا التي ستصاب بالدهشة، كيفَ عرفتِ عنه كل هذا؟!

ـ لأني أنا من اقترحت على حسام أن يقترحكِ عليهِ، لكن لم يخبرني أنه قد فعل، كان حديثاً عابراً، ولكن ما رأيكِ فيه؟

ـ لم أجلس بعد معه، لكن أبي سأل عنهُ ويرى أنه لا يعيبهُ أي شيء، فهو من أسرة طيبة، وحالتهم المادية ميسورة جداً، حتى أنه يمتلك سيارة، والذي يهمني قبل ذلك كله أنهم يقولون بأنه شاب مستقيم وأخلاقه حسنة.

ـ إذن فلا مانع عندكِ مبدئياً لحين جلوسكِ معه.

ـ هو كذلك، لكن إياكِ أن تخبري حسام بهذا حتى لا يخبر صديقه.

ـ لا تخافي، أنا وحسام لا نتكلم إلا نادراً.

ـ كيف ذلك؟ الذي أعلمه أنكما ستتزوجان بعد أسبوع.

ـ سنتزوج بعد أسبوع، ومع ذلك فنادراً ما يتصل بي، لكنهُ منذ خطبتنا يأتي لزيارتنا كل أربعة أيام تقريباً.

ـ غريبٌ أمركما.

ـ ليس غريباً، هو غارق بين العمل والأولاد، أعانهُ الله. المهم أخبريني متى سيأتي أحمد وأهله لزيارتكم؟

ـ أما هو فسيأتي غداً إن شاء الله كما حدد أبي معه الموعد، فإن ارتاح كل منا للآخر فسوف يحدد أبي معه موعد زيارة أهله من أجل الاتفاق على تفاصيل الزواج.

ـ يسر الله لكِ كل خير.

ـ لكن أنا لا أريدُ منك الدعاء فقط.

ـ وهل أملك لكِ غيره!

ـ نعم تملكين بالتأكيد.

ـ وماذا أملك إذن؟

ـ أريدكِ أن تسألي حسام عن رأيه في أحمد إن كان يراهُ زوجاً مناسباً لي.

ـ أولاً حسام لا يعرفكِ، فأول مرة يسمع فيها اسمكِ كان من خلالي، ثانياً من البديهي أنه سيمدح في أحمد لكونه صديقه المقرب، فضلاً عن كونهِ هو الذي اقترحكِ عليهِ يا ذكية، ثالثاً فقد قلتِ منذ قليل أن والدكِ سأل عنهُ بنفسه ولا يرى به تقريباً أي عيب.

ـ لا يعنيني ذلك كله، افعلي ما قلتهُ لكِ وفقط ثم أخبريني بما قاله لك.

ـ يا لك من فتاة غريبة الأطوار، ومع هذا فسأفعل وأمري إلى الله.

****

ـ أريدُ أن أعرف من أين أتيت برقم هاتفي الجديد؟

ـ هل تظنين أنه من الصعب علي أن أحصل على رقم هاتفكِ؟

ـ لا شيء يصعب عليكَ بكل أسف، ولا حتى الخيانة.

ـ أرجوكِ يا أسماء أعطيني فرصة أخيرة، بحق ما كان بيننا سامحيني وأعطيني هذه الفرصة.

ـ غريب أمرك، تطلب مني فرصة أخيرة من أجل ما كان بيننا، بينما أنت حينما خنتني بمنتهى السهولة كنت قد رميت بكل ما كان بيننا عرض الحائط!

ـ لكني أحبكِ يا أسماء، أحبكِ فوق ما تتصورين، وفوق ما كنتُ أتصور.

ـ وأنا لم أعد أحبك يا وليد.

ـ أنتِ تكذبين، أقسم أنكِ لا تزالين تحبيني.

ـ أنت واهم، حبي لك لا وجود له إلا في رأسك، وإلا فأخبرني لماذا وافقت على خطبتي من حسام إن كنت أحبك؟

ـ من أجل أن تنتقمي مني، أو ربما لأن والدك ضغط عليكِ، وربما من أجل أختكِ أو أولادها، لا أعرف تحديداً، المهم هو أنكِ وافقتِ من أجل أي شيء، أي شيء إلا أن يكون لأنك لم تعودي تحبينني.

ـ وربما وافقتُ من أجل أنكَ خنتني؟

ـ وربما من أجل هذا أيضاً.

ـ عموماً قد انتيهنا من ذلك، بل انتهينا من كل شيء، من فضلك لا تحاول أن تتصل بي مرة أخرى، سأتزوج بعد أقل من أسبوع، لم أعد لك يا وليد.

ـ لا تقولي هذا أرجوكِ، سأتقدَّمُ لخطبتكِ كما اتفقنا من قبل وخططنا.

ـ وليد.. ألم تسمع ما قلته لك؟ لا بأس، أعيد مرة أخرى، سأتزوج بعد أقل من أسبوع.

ـ لا يمكنْ أن يحدث ذلك أبداً.

ـ ولماذا لا يمكن ذلك؟

ـ لأننا اتفقنا على خطبتنا معاً، وخططنا لزواجنا معاً، وسمينا أولادنا معاً، لابد وأن نكون معاً إذن. أي شيء غير هذا سيكونُ خروجاً عن النص.

ـ أنتَ من خرجتَ عنهُ فأجبرتني على أن أفعل مثلك.

ـ قد عدتُ سريعاً، عدتُ قبل أن أبتعدَ كثيراً.

ـ لكن لا يمكنني أن أعود.

ـ بل يمكنكِ.

ـ قلت لكَ لا يمكنني، لم يعد بيدي ما أستطيعُ فعله.

ـ بيدكِ الكثير يا أسماء، يمكنكِ أن تخبريهم بأنكِ تسرعتِ في اتخاذ قرار الزواج من حسام وتنهي خطبتكِ منه.

ـ ولماذا أفعل هذا؟

ـ من أجلي.

ـ ومن أنت لأفعل ذلك من أجله؟

ـ حبيبك.

ـ حبيبي الخائن؟

ـ بل التائب.

ـ توبتكَ هذه يقبلها الله، أما أنا فلا.

ـ إذا كان الله يقبلها فلماذا لا تقبليها أنت؟

ـ لأنني ببساطة لست الله، أنا بشر.

ـ حتى البشر يغفرون.

ـ يغفرون كل شيء إلا الخيانة.

ـ حتى الخيانة بعضهم يغفرها.

ـ وبعضهم لا يغفرها وأنا منهم.

ـ لكن الحب يمحو كل ذنب.

ـ إلا الخيانة يا وليد، إلا الخيانة.

- ....

ـ تظنني سأتأثر بهذه الدموع يا وليد؟ ما كان أغناك عن ذلك كله، لقد أضعتني منك بسبب استهتارك وخيانتك.

ـ أنتِ أيضاً تبكين، تبكين لأنكِ تحبيني، تحبين وليد وستسامحينه، أليس كذلك يا أسماء؟

ـ قلت لكَ لم أعد أحبك، ألا تفهم؟!

مضطرة أن أغلق، من فضلك للمرة المليون أتوسل إليك ألا تحاول الاتصال بي لأي سبب من الأسباب وإلا سأضطر فعلا إلى إخبار أخي علاء.

****

ـ عادة لا تتصلين بي بعد منتصف الليل إلا وهناك مصيبة، ما وراءكِ؟

- ....

ـ لماذا تبكين الآن؟

ـ لأني لا أزال أحبه، لا أزال أحبه يا مي، لا أزال.

ـ أعرفُ أنكِ لا تزالين تحبينه.

ـ ظننت أني سأنساه بسهولة.

ـ وقد حذرتكِ من أنكِ لن تنسيه بسهولة.

ـ ساعديني يا مي، ساعديني على إخراجه من داخلي، أريد استئصالهُ مني.

ـ لو أقدر على أن أفعل ذلك لما ترددت لحظة واحدة.

ـ هل أخطأتُ حين لم أعطهِ فرصة أخيرة؟

ـ لا أدري إن كنتِ أخطأتِ أو لا، أنتِ الوحيدة التي يمكنها أن تدرك ذلك.

ـ لقد تسرعتُ في قرار الموافقة على حسام، تسرعتُ كثيراً، لو لم أفعل ذلك الذي فعلتهُ لغفرتُ له، بل أنا غفرتُ لهُ يا مي فعلاً، لكن ما حيلتي وقد تهورتُ وأخبرتُ أبي برغبتي في الارتباط من حسام.

ـ لكل مشكلة حل كما قال أفلاطون أو سقراط لا أدري تحديداً.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أقصد أنه بإمكانكِ أن تخبري أهلكِ بأنكِ لستِ سعيدةً مع حسام، لا يزال خطيبكِ فقط، والخطبة شرعت لكي يرى كل طرف إن كان سيتقبل الشخص الآخر ويرى أن بإمكانه مواصلة الحياة معه أو لا.

ـ لو فكرت في ذلك مجرد تفكير فلا أستبعد من أبي أي شي، ربما قتلني ولست ألومه في ذلك، لقد واجه بسبب هذا الموضوع متاعب كثيرة، وكلها أتته من تحت رأسي أنا.

ـ وماذا عن أمكِ؟

ـ ما بها أمي؟

ـ أقصدُ كيف ستتقبل رفضكِ لحسام من جديد؟

ـ لا أدري، لكن أظنها ستفرح كثيراً، وإن كنتُ أتوقع منها الكثير من كلمات التقريع، وربما السبّ إذا لزم الأمر.

ـ هذه جناية يدك على نفسكِ.

ـ مي.. بالله عليكِ لست بحاجة إلى مثل هذه الكلمات، يكفيني ما بي.

ـ وماذا ستفعلين الآن؟

ـ لا أعرف.

ـ لا بد وأن تعرفي، الوقتُ ليس في صالحكِ، زواجكِ بعد أقل من أسبوع.

ـ وهذه هي الكارثة، لا وقت.

ـ إن شئتِ تكلمتُ أنا مع أمكِ وهي بدورها ستكلم والدكِ.

ـ تتحدثين وكأن المشكلة في الكلام، المشكلة الحقيقية فيما بعد الكلام، ستقوم الدنيا ولن تقعد.

ـ بل ستقعد، لا شيء يظل قائماً.

ـ ولكن ما ذنب حسام في كل هذا؟

ـ وما ذنب وليد؟

ـ وليد خانني.

ـ معكِ حق، إذن فهو يستحق القتل.

ـ لا تقولي هذا عنه.

ـ أمرك غريب وعجيب ومريب.

ـ وأنتِ مستفزة فعلاً.

ـ لا أدري ماذا أفعل لكِ لأرضيكِ.

ـ أخبريني بالصواب حتى أفعله وأرتاح.

ـ أما الصواب فصدقيني لا أعرفه، لكن لا أظن أنكِ ستحصلين على الراحة.

ـ هل تريدين مضاعفة تعذيبي؟!

ـ وهل تريدن مني أن أكذب عليكِ؟ أكلمكِ بصراحةٍ حتى لا تُصدمي فيما بعد.

ـ سامحك الله يا وليد، لماذا خنتني، ولماذا اتصلت بي الليلة!

ـ كأنكِ نسيتهِ فاتصل هو ليذكركِ بنفسهِ.

ـ لم أنسه ولم يُذكِّرني، لكن على الأقل ما كنتُ لأقع في هذه الحيرة، وفي هذا التوقيتِ تحديداً.

ـ إذن فلا تحتاري، تعاملي مع الأمور كأنه لم يتصل.

ـ وكيف أفعل ذلك؟

ـ قولي لنفسك: وليد لم يتصل، ثم كرريها إلى أن تقتنعي بها.

ـ تمزحين أليس كذلك؟

ـ إن كان الجدُّ لم يأتِ بنتيجة فربما أتى المزاح، وإن لم يأتِ فقد روَّحْنا عن أنفسنا.

ـ لقد بكى وليد وهو يتوسل لي أن أسامحه يا مي، هل تعرفين ما معنى هذا؟

ـ وما معنى هذا؟

ـ لا أدري تحديداً ما معناه، لكن وليد لم يبكِ في حياته، حتى حين مات شقيقهُ الأصغر غرقاً منذ عام لم يبكِ رغم حزنه الرهيب عليه، لكنهُ بكى من أجلي أنا، بكى من أجل أن أسامحه.

ـ مسكين وليد.

ـ ليس مسكيناً، إنه يستحق الشنق لقد خانني.

ـ معكِ حق، إنه يستحق الشنق.

ـ قلتُ لكِ لا تقولي هذا عنه.

ـ حسناً لن أقول ذلك عنه، أنتِ فقط من يجب أن تقولي، لقد جننتِ وكان ما كان.

ـ لقد ظلمتُ وليد حين رفضتُ أن أعطيه فرصة أخرى، لقد ظلمته فعلاً، كل الناس تخطئ، كان يجب أن أعطيه فرصة أخيرة. أليس كذلك يا مي؟

ـ فعلاً كان يجب أن تعطينه تلك الفرصة الأخيرة.

ـ لكن كيف، كيف أعطيه فرصة، لقد خانني يا مي، خانني، وهو يعرف جيداً كم أكره الخيانة، لم يكن مستحقاً لهذه الفرصة.

ـ فعلاً، لم يكن مستحقاً لهذه الفرصة.

ـ مي.. أنتِ سخيفة جداً جداً جداً، لا تكرري كلامي هكذا كالبغبغاء!

ـ حسناً، أنا سخيفة جدا جدا جدا، وأنتِ قد جننت والحمد لله، عوض الله أهلك في مصابهم.

ـ لقد ضجرتِ منكِ يا مي، تصبحين على خير.

ـ وأنتِ من أهل الخير يا حبيبتي.

****

ـ هل جلستَ مع الفتاة يا أحمد؟

ـ كنتُ في بيتهم بالأمس.

ـ وكيف وجدتها؟ أرجو أن تكون قد حظيت بإعجابك.

ـ لا أعرف كيف أشكرك يا حسام، لقد وجدتُ فيها تقريباً جميع ما كنتُ أبحث عنه.

ـ وما الذي كنتَ تبحث عنه ووجدتهُ فيها؟

ـ الجمال أولاً طبعاً، ثم الذكاء ورجاحة العقل، إضافةً إلى الهدوء والمرح، من النادر أن تجد فتاة تجمع بين الهدوء والمرح، عادةً الفتاة الهادئة كئيبة، والمرحة لا يعرفُ الهدوء إليها طريقاً، أما هي فقد جمعت بين الاثنين، وهذا أكبر ما يميزها.

ـ ما شاء الله، اكتشفتَ كل ذلك من الجلسة الأولى معها؟!

ـ وهل تحسبني تلميذاً؟ أستطيعُ أن أغوص في أعماق أي فتاة خلال خمس دقائق، لهذا لم تكن تعجبني أي فتاة، أكثر الفتيات في زماننا هذا بداخلهن مستنقعات، فإذا تمكنت من الغوص بداخلها لم تجد إلا عفناً، نادراً ما تجدُ فتاة بداخلها ذلك الجدول العذب، أو بمعنى أوضح باطنها كظاهرها.

ـ إذن فالحمد لله أن هذه قد أعجبتك.

ـ لا أخفيكَ سراً، لقد كنتُ خائفاً جداً من زواج الصالونات هذا، فالغش والتدليس فيه كثير، ولكن ما دام قد أتاني من ناحيتك أنت يا حسام فأهلاً ومرحباً به.

ـ لا تعتمد عليَّ في هذا كثيراً، أنا لا أعرف الفتاة، لقد اقترحتها عليَّ أسماء فأخبرتك بها، ولا تظن أن هذا كان بتدبير من أسماء وصديقتها، فأسماء أقسمت لي أن صديقتها لا علم لها بكونها قد اقترحتها عليك.

ـ عموماً لا أرى بها بأساً بشكل أوَّلِي، ولا يزال أمامي الوقت حتى أسأل عنها وأحسم قراري.

ـ قد أكدت أسماء لي صلاح البنت واستقامتها، وطبعاً هذا لا يغنيك عن أن تسأل أنت عنها بنفسك.

ـ سأفعل إن شاء الله، دعكَ مني الآن وأخبرني هل استعددت للزواج؟

ـ وكيف أستعد؟

ـ زواجك بعد أيامٍ تعدُّ على أصابع اليد الواحدة وتسألني كيف أستعد!

هل أصبح البيت مؤهلاً واشتريت فرشاً جديداً وثياباً جديدة أيضا، والبذلة الجديدة طبعا، وهل اتفقت مع الحلاق الذي سينال شرف حلاقته للعريس؟

ـ لم أفعل شيئاً من ذلك يا أحمد، ولا أظنني سأفعل.

ـ ما هذا الذي تقوله، ألستَ عريساً!

ـ لا، لستُ عريساً، لقد اتفقت مع أسماء على ذلك كله، ولم يكن عندها أي مانع أو اعتراض.

ـ غريب أمركما، زواج هذا أم جنازة!

ـ لا أظن الفرق بينهما كبيراً.

ـ أعتقد أن تلك المسكينة التي ستتزوجك قد دعت عليها أمها في ليلة مباركة فاستجاب الله دعاءها.

- ....

ـ لا تنظر إلي هكذا، تلك النظرات تخيفني منك، أمزح معكَ ليس أكثر.

ـ الجم لسانكَ حتى أرد على الهاتف.

ـ قد فعلت.

ـ خيراً يا أسماء، أسمعكِ بوضوح.

ـ أريدكَ في أمر هام يا حسام.

ـ خيراً ما الأمر؟

ـ أظن أن الموضوع الذي أريدك فيه أكبر من أن نتناوله عبر الهاتف.

ـ حسنا، سوف أحاول أن ألتقي بكِ الليلة في بيتكم.

ـ لكني لا أريد أن أحدثك به في بيتنا.

ـ فأين إذن!

ـ أي مكان خارج المنزل.

ـ لا بأس، سأستأذن من عمي في أن نخرج معاً.

ـ لا تفعل ذلك، لا أريد من أحد أن يعلم أني خرجتُ معكَ أو أنني تكلمت معكَ في هذا الموضوع الذي أريدك فيه.

ـ لقد بدأت أقلق، ما الأمر يا أسماء؟

ـ ستعرف حين نلتقي.

ـ متى وأين تريدين اللقاء؟

ـ غداً في تمام الساعة الرابعة عصراً في نفس المكان الذي التقيت فيه أنت وملك أول مرة، قطعاً تذكره.

(الفصل السادس)

وتزوجنا أنا وحسام بالرغم من أني كنتُ قد فكرتُ جدِّياً في أن أنهي كل شيء، بل رتبتُ تقريباً لإنهاء كل شيء ولم يكن مجرد تفكير فقط.

ولكني في اللحظات الأخيرة قبل أن ألتقي بحسام لأخبره بقراري كنتُ قد اتخذتُ قراراً جديداً وهو أن أمضي في قراري الأول الذي اتخذتهُ بخصوص موافقتي عليه، نحّيتُ نفسي جانباً ثم فكرتُ في الجميع فرأيتُ أن الصواب هو أن تسير الأمور كما تم التخطيطُ لها مُسبقاً.

الحقيقة هي أني لم أكن أعلم إن كان ما فعلتهُ صواباً أم خطأ، لكني نجحتُ في إقناع نفسي به وهذا هو الأهم.

الشيء الوحيد الذي فشلتُ فيه هو إخراج وليد من داخلي، كنتُ أعلمُ أن حبي له لا يزالُ يجري في دمي، لا يزالُ قلبي ينبض باسمه.

أينما نظرتُ كنتُ أراهُ أمامي يبكي لي، أو يتوسل إليّ، أو يستعطفني كي أسامحهُ، وكلما كنتُ أتصورهُ يبكي كنتُ أحتقرُ نفسي.

فمن أنا حتى يبكي من أجلي وليد، وليد الذي كنتُ أراهُ جبلاً شامخاً، وبحراً لا ساحل له، وسماءً عالية لا تُطال.

كنتُ أراهُ مثلي الأعلى الذي أودُّ أن أكونَ مثلهُ، لم يكن عندي مجرد شخص أحببته ورغبته زوجاً لي، ولكنه كان بالنسبة لي حياة، حياة بكل ما تحتمله كلمة حياة من معانٍ يعجز المرء عن حصرها إن هو أراد الحصر.

كنتُ أعتبرُه كل عالمي، ويرضيني منهُ أن أكونَ جزءاً من عالمهِ، ما يضيرني لو كان واحةً وكنتُ وردةً في تلك الواحة، ما دمتُ أجمل وأرق ما في واحته.

لكن ها هي الواحة قد التهمتها الصحراءُ المُحيطة بها فأضحت قاحلة، وها أنا وردتهُ الرقيقة حاولتُ الفرار من صحرائه فكان الذبولُ لي بالمرصاد!

كنت أعلم أني وإن كنتُ قد صنعتُ سفينة الفراق التي أبحرتُ من خلالها عن عالم وليد فإنه هو الذي قد وضع المسمار الأول في جسم تلك السفينة بخيانته لي.

ما حيلتي وقد كان في نظري في قوة أسد، واستعلاء نسر، ثم ها هو الآن يتراءى لي في ضعف فأر، وهوان دجاجة!

كيف كان لي أن أستمر معه وهذا هو الحال!

بكيتُ كثيراً جداً في الليلة التي سبقت زواجي من حسام، بكيتُ كما لم أبكِ في حياتي، ولولا أن مي قد أخذت هاتفي المحمول مني في اللحظة الأخيرة لكنتُ اتصلتُ بوليد، لم أكن أعرف لماذا كنتُ أريد الاتصال به، هل لأخبرهُ بأني قد سامحتهُ، أم لأعنّفه على تلك النهاية التي أوصلنا إليها، أم لأطلب منهُ أن يسامحني لأني قد خنته تماماً كما خانني، وربما كانت خيانتي لهُ أكبر، إذ هو في لحظة ضعفٍ منه خانني، أما أنا فمع سبق الإصرار والترصد قد خنتهُ، وهو لم يكن يدرك عواقب ما يفعلهُ، أما أنا فقد كنتُ أدركُ جيداً عواقب ما أفعل.

كان زواجي أنا وحسام في ليلة الجمعة، وحسب اتفاقنا فإننا لم نحتفل بزواجنا، تماماً كما لم نحتفل بخطبتنا، وإنما جاء حسام بسيارة صديقه أحمد فأخذني من بيت أهلي إلى بيته، أخذني دون أن يكون هناك حشدٌ من الناس، ودون أن يكونَ هناكَ أضواء

وموسيقى صاخبة وأطفال ترقص على أنغام الموسيقى، وفتيات تبارك وتغبط العروس فرحتها، دون أن أرتدي حتى فستان الزفاف الأبيض الذي تحلم بارتدائه كل فتيات العالم.

هل كنت شاذة عن جميع الفتيات حين تنازلت بملء إرادتي عن فستان الزفاف الأبيض؟

لم أكن شاذة، فأنا مثلهن تماماً، لي رغبة في ارتدائه لا تقل عن رغبتهن إن لم تكن أكبر، بل كلما كنتُ أمر أمام محلات الثياب وأجدها تعرض فساتين الزفاف كنت أجد عيني تغلبني على الرغم مني، كان بي شوق عارم لأن أرتديه عروساً، ولكني أردت ارتداء الفستان لوليد، لوليد وليس لأحد غيره، لست أنا تلك الحمقاء التي يهمها في المقام الأول أن ترتدي الفستان الأبيض بغض النظر عمن سترتديه له.

كنت أرى للفستان الأبيض قداسة لا تقل عن قداسة الحب نفسه، لذلك فهو لا يُرتدى إلا من أجل من نحب فقط.

ربما لو لم أكن قد وقعتُ في الحب لما شغلتني كثيراً هذه المعاني، لكن ما حيلتي وقد وقعت فيه.

لم أرتدِ الفستان الأبيض، ولم أحتفل، ولم أدعُ من صديقاتي إلا أقل القليل.

وبَّختني مَي توبيخاً كبيراً على تنازلي عن ارتداء الفستان الأبيض رغم تغاضيها عن عدم الاحتفال بالزفاف ككل، ربما لأنها فتاة مثلي وتعرف ما يعنيه فستان الزفاف بالنسبة للفتاة، وربما لأنها تعرف مدى عشقي له، خاصة وأنا مهووسة بنشر صور فساتين الزفاف على صفحتي عبر الفيس بوك.

وأما أمي فكعادتها معنا وكما هو متوقع منها فقد كانت معترضة على زواجنا بهذه الطريقة اعتراضاً شديداً، لكن أبي أقنعها بذلك لأنه كان يقف في صفنا كعادته هو أيضاً، بمعنى أدق فإنه أرغمها على أن تقبل بالوضع مادمنا أنا وحسام قد قبلناه؛ فقبلتْ به مكرهة غير مختارة.

أمي لا تكره حسام، بل على العكس، هي تحبه كثيراً، لكنها ترى أنه ليس الزوج المناسب لي، ومع كون أمي تحب حسام كثيراً فإني أكاد أجزم بأنه كان يقرأُ في وجهها رفضها لزواجنا، إذ لم تكن تقابلهُ أثناء خطبتنا بذلك البِشر الذي كانت تلقاهُ به قبل أن أكون مخطوبته.

نزلتُ من البيت بصحبة حسام وجميع الحضور من أهله وأهلي، كان أخي علاء مُصراً على أن يذهب معنا إلى بيتي الجديد حتى يطمئنَّ بنفسهِ على وصولنا سالمين، لكن أبي أصرَّ هو الآخر على عدم ذهاب أحد معنا باستثناء صديقتي مي، والتي رغبتُ في بقائها معي أطول وقت ممكن، جلستُ في السيارة في المنتصف بين حسام ومي، وبعد خمس دقائق من سيرنا توقف أحمد بالسيارة ثم طلب من مي أن تنزل من السيارة لتجلس بجواره حتى لا تكون مُتطفلة علينا.

لم تتردد مي لحظة واحدة في النزول، ولا أدري إن كان أحمد قد فعل ذلك وتلك نيته فعلاً أم أنه رأى في ذلك فرصة مناسبة تتيحُ له أن يخلو بمخطوبته، أو بمن هي في حكم مخطوبته؛ إذ خطبتهما لم تكن بعد قد أعلنت بشكل رسمي، وإن كنتُ أعلم أنَّ مي

معجبة كثيرا بأحمد وأظن أن أحمد هو الآخر معجب بها، وذلك ظاهر جدا من نظراته إليها والتي تكاد تلتهمها التهاماً.

ظل أحمد يثرثر مع مي كثيراً، كانت مي أقل حديثاً منه وأكثر استماعاً، أما أنا وحسام فلم نتكلم في شيءٍ تقريباً، وإنما ساد بيننا الكثير من الصمت الذي يشبه صمت سكان القبور!

لم يكن حسام صامتاً فقط، وإنما كان عابساً أيضاً، الحقيقة هي أنه منذ وفاة أختي ملك وهو لا يُرى عادةً إلا عابساً وكئيباً، لكن لا أدري ما الذي خَيَّل إلي أنه حين كان يجلس بجواري كان شديد العبوس، هل لأنه تذكر أختي ملك حين كانت تجلس بجواره في ليلة كهذه وسيارة كهذه والبهجة قد تخللت كل سنتيمتر فيهما؟

هل لأنهُ قارنَ بين سعادتهِ بزواجه من ملك وتعاسته بزواجه مني؟

هل كان كذلك لأنه استشعر أنه بزواجه مني قد خان ملك؟

هل كان ذلك لأنه لم تكن لديه رغبة في الزواج ولكنه أُكره على الزواج من كل المحيطين به فاضطر لأن يرضيهم ولو على حساب رغبته؟

هل حسام يتصرف على طبيعته وأنا التي يُخيل إليَّ ذلك بسبب حالتي النفسية السيئة؟

لا أدري، ولم أشغل نفسي بهذا كثيراً، لم يكن يهمني كثيراً إن كان حسام سعيداً بزواجنا هذا أم تعيساً؛ إذ كنت على يقين من أنه مهما كانت تعاسته بهذا الزواج فإنها قطعاً لن تكون أكثر من تعاستي.

على الأقل فهو قد فارق حبيبته بموتها، أم أنا فقد فارقت حبيبي وهو لا يزال بين الناس يمشي.

قطع أحمد صمتنا بقوله:

ـ لو كنتُ أعلم أنكما قد تخاصمتما لما طلبت من مي أن تجلس هنا بجواري كي لا تكون متطفلة على العروسين.

ثم نظر إلى حسام نظرة خاطفة أثناء قيادته السيارة وهو يقول له:

ـ ما بك يا أبا الهول؟ هل ستظل صامتاً هكذا!

لم يجبه حسام وإنما اكتفى بصمته، فأضاف أحمد ممازحاً:

ـ والله يا أسماء إنه يتكلم، لو رأيته وهو يثرثر أثناء العمل لعلمتِ صدق كلامي، لا تظني أننا قد غششناكِ وزوجناكِ رجلاً مقطوع اللسان، فلسانهُ أطول من ذراعهِ، لكن يبدو أنه يُعاني بعض الخجل لا أكثر.

ثم نظر إلى حسام نظرةً خاطفةً أخرى وقال له:

ـ تكلم أيها الأبكم فقد سودتَ وجهي أخزاكَ الله.

ولم يجبه حسام بشيء، ولكني أجبتُ نيابةً عنهُ بابتسامة مُصطنعة بشق الأنفس استطعتُ رسمها.

عاد أحمد إلى حديثه مع مي، وعاد حسام أيضاً إلى حديثه الصامت مع نفسه، ثم فجأة توقف أحمد مرةً أخرى أمام أحد المطاعم ثم طلب من الجميع النزول.

لم تتردد مي في النزول، لكن الذي تردد هو حسام.

قال له أحمد:

ـ لن أسمح لك أن تُفسد هذه المفاجأة، فقد حجزتُ لنا جميعاً هنا منذ يومين، مما يعني أنكَ بامتناعك ستضيع على أخيك نقوده الثمينة التي يَكِدُّ ويتعب حتى يحصل عليها.

أجابه حسام:

ـ لكن لماذا لم تخبرني من قبل، على الأقل كنت عرفتَ رأيي.

ـ على ما أعتقد فقد قلتُ أنها مفاجأة، كيف تكون مفاجأة ثم أخبرك بها!

ثم دخلنا المطعم جميعاً وكان قد حجز أحمد لنا طاولتين متباعدتين حتى يجلس وحده مع مي ويسمح لنا أنا وحسام بالجلوس وحدنا.

ومن جديد ساد الصمت بيني وبين حسام إلى أن قطعه بقوله:

ـ نسيتُ أن أباركَ لكِ على تخرجكِ يا أسماء، مبارك عليكِ التخرج.

استغربتُ كثيراً من كلامه، لقد تخرجتُ في الجامعة قبل خطبتنا، فما الذي ذكّره بذلك الآن!

قلتُ له:

ـ شكراً لك يا حسام.

ومن جديدٍ غرقنا في الصمت إلى أن أتى الطعام، أكل قليلاً، وأكلتُ أقل منه، ثم نادى حسام على أحمد ومي حين أدرك أنه إن لم يفعل ذلك فسيظلان جالسان إلى منتصف الليل على الأرجح.

أوصلنا أحمد بسيارته إلى بيت حسام، ولكنه رفض أن يصعد معنا، وكذلك رفضت مي أن تصعد هي الأخرى، ولكن قبَّلتني وهي تعانقني، ثم ركبت السيارة من جديد كي يوصلها أحمد إلى بيتها، مضوا بالسيارة وصعدتُ مع حسام إلى شقته ومشاعر كثيرة متناقضة تتصارع بداخلي.

****

دخلنا الشقة أنا وحسام، كان يسبقني بخطوتين وزوجة راحلة وطفلين، وكنتُ أتأخرُ عنهُ بخطوتين وعشرة أعوامٍ وحبيب خائن.

كان يسيرُ بحزن ثكلى، وكنت أمشي ببطء سلحفاة.

كان يمشي أمامي وهو يحملُ على كاهليه حزناً ثقيلاً أبطأ من سيره وهو الذي كان يمضي في الحياة مبتهجاً فاتحاً لها ذراعيه وكأنه يريدُ أن يحتضنها.

وكنت أمشي خلفهُ أجرجر ذيول خيبتي في حبيبٍ طعنني بخنجر الغدر في صميم كبريائي كأنثى.

ها قد أصبحتُ عروساً يجدر بها أن تمشي على الورد المتناثر تحت قدميها، لكني لم أرَ شيئاً متناثراً تحت قدَمَي عدا دموعاً حائرة مثلي.

كانت عندي رغبة عارمة في البكاء، بكيتُ بكاء مريرا من دون أن تنسكب دمعة واحدة من عيني، وإنما الذي انسكب علامات الاستفهام والدهشة في تدفق وتتابع!

هل أضحى عالمي الآن بلا وليد؟

هل جنيتُ بزواجي على وليد أم جنيتُ على نفسي؟

هل أصبحتُ زوجة فعلا؟

هل هذه الليلة هي ليلة زفافي؟ إذن فأنا الليلة عروس؟!

لم أستشعر للحظة واحدة أني عروس في ليلة زفافها، كنتُ أعلمُ أني تلكَ الحمقاء التي تركت من تحبهُ ولم تمنحهُ فرصة يتيمة، لتتزوج من آخر لم ولن يحبها يوماً من الأيام!

كان عزائي الوحيد في أولاد أختي.

على الفور قلت لحسام وأنا أتوسل لحنجرتي أن تخرج الكلمات المحبوسة بداخلها:

ـ أين عمار وياسمين؟

قال:

ـ لقد أصرت أمي على أن تأخذهم عندها يومين، أمام إلحاحها الشديد لم أجد بُداً من الخضوع لرغبتها.

خجلتُ من إجابتهِ بعض الشيء، ورأيتُ أن سؤالي هذا دليل حماقتي، وحتى أخفي ذلك الخجل الذي تملكني فقد أضفت:

ـ كنتُ أريدُ رؤيتهم، لا بأس، عند عودتهم إن شاء الله.

لم يُعقِّب على كلامي، فقط أشار إلى غرفة النوم كأني لا أعرفها ثم أضاف قائلاً:

ـ يمكنكِ تغيير ثيابكِ.. إن شئتِ.

استشعرتُ لحظتها بعض الحرج، بل غرقتُ في بحورٍ منهُ، عبثاً حاولت أن أجد شاطئاً أستنشق على متنه بعض الهواء.. ولم أُفلح!

هل قال حسام لي يمكنكِ تغيير ثيابكِ إن شئتِ، أم أنني من توهمت ذلك؟

ماذا يقصدُ بقوله: يمكنكِ تغيير ثيابك؟ ولماذا أضاف إن شئت!

وهل يقصدُ بقولهِ هذا تغيير ثيابي فقط أم أنهُ يريدُ شيئاً آخر.

ماذا لو كانُ يريدُ شيئاً آخر فعلاً، لستُ مستعدة لهذا مطلقاً، لكن ماذا لو طلب ذلك مني ذلك تصريحاً لا تلميحاً، فهو حقه على كل حال، ولا يحق لي الاعتراض أو الرفض.

لا إرادياً مني وجدتُ نفسي أتقدم نحو الغرفة بخطوات سريعة كأني كنتُ أريدُ أن أختفي من أمام حسام بأي شكل، تمنيتُ لحظتها لو أني قطعة سكر والشقة كلها كأس ماءٍ كبير فأذوب في قعره، أو أنني قطعة ثلج صغيرة والشقة بركاناً يبتلعني فيمحوني في أقل من لمح البصرِ فلا يراني حسام.

لم أدرِ ما الذي أفعله لأنقذ نفسي منه، على الأقل هذه الليلة، هذه الليلة فقط وليكن بعد الليلة ما يكون.

أخيراً قمتُ بإغلاق الباب بعد أن قررتُ أن أتصنع النوم، ثم أراقب ما يكون، فاتجهتُ إلى السرير وبكامل ثيابي التي خرجتُ بها من بيتنا نمتُ عليه أو تصنعت النوم وأنا أترقب تلك اللحظات التي سيطرق عليَّ حسام فيها الباب.

ماذا أفعل لو طرق الباب، هل أقوم فأفتح له، هل أتجاهل الطرق لأنني نائمة، لكن ماذا لو فتح هو الباب من تلقاء نفسه ودخل.

تصنعت النوم، ومضى كثيرٌ من الوقت، أو هكذا تخيلتهُ لمراقبتي إياهُ، ولم يدخل حسام، ولم يطرق الباب، ولم يأت ليتفقدني ويرى إن كنتُ بحاجةٍ إلى شيء أو لا.

بالرغم من كون هذا هو عين ما كنت أريدهُ إلا أنني استشعرتُ شيئاً من الإهانة؛ إذ كيف يتركني مهملة هكذا في أول ليلة لي معهُ في حياتنا الزوجية كما هو مفترض، هل أنا نكرة إلى هذا الحد ليتعامل معي بهذه الطريقة!

وفجأة إذ بطرقاتٍ خفيفة تتابع على الباب بهدوء، أسقط قلبي في يدي، وأصابني كثير من القلق والتوتر، مع الكثير أيضاً من الهلعِ والخوف، لماذا يطرق حسام الباب، ما الذي يريده مني، ليس عندي ما يمكنني إعطاؤه الليلة على الأقل.

تصنعت النوم ولم أرد عليه لعله أن يتوقف عن الطرق ويمضي، وتوقف فعلاً عن الطرق ومضى.. لكن إلى داخل الغرفة لا إلى خارجها!

لم أكن أراهُ لأني كنت قد أغمضتُ عيني، لكني كنت أسمعُ جيداً صوت دبيبه على الأرض، ظل يمضي إلى أن أصبح قريباً جدا مني، لم أكن أعرف ما الذي يريدهُ مني تحديداً، وربما كنت أعرفُ لكني كنتُ أغالطُ نفسي.

دنا مني حتى لم يعد يفصلهُ عني غير بعض السنتيمترات القليلة، ثم دنا مني أكثر حتى لم يعد يفصله عني غير الغطاء الذي اختبأتُ تحته عندما بدأ الطرق، ظللت أدعو الله في نفسي أن ينصرف عني لكنه لم ينصرف، وإنما ناداني بصوت مبحوحٍ خُيل إليّ أنه صوت أي أحد في الدنيا غير حسام، ثم قال لي:

ـ هل نمتِ يا ملك؟

لم أتضايق من جرَّاء غلطه في نطق اسمي واستبداله بغيره، بل رأيت ذلك أمرا مستساغا حيث لم يعتد بعد عليَّ كبديلة لملك.

ثم قال مُستدركاً خطأه:

ـ هل نمتِ يا أسماء؟

لم أجبه، وإنما أجابهُ صمتي، فما كان منه إلا أن سحب ذلك الغطاء الذي اتخذت منه حصناً، فكاد قلبي ينخلعُ من شدة توتري، ثم أخذ يخفق بأقصى سرعةٍ يمكنه أن يخفق بها، بشق الأنفس تمكنت من السيطرة على جسدى حتى لا يضطرب فينكشف أمري، ولكن لم أتمكن من السيطرة على قلبي الذي راح يخفق مسرعاً وكأنه في سباق شرسٍ مع طائرة!

واقترب حسام مني كثيراً، بل كثيراً جدا لدرجة أنني كنت أشعر بحرارة أنفاسه تلفح وجهي، هممتُ بأن أتصنع أنني استيقظت حتى يبتعد عني، ولكني تحجَّرتُ في مكاني، وفجأة إذ بحسام يقبلني في جبهتي، ثم فتح أحد أدراج المكتب الصغير جوار السرير فأخرج منهُ شيئاً، ثم مضى بعد أن أطفأ المصباحَ وأغلق الباب خلفهُ، وتنفستُ الصُّعداء أخيراً بعد أن كدتُ أموتُ رعباً.

وتساءلتُ في نفسي لماذا فعل حسام هذا؟ ولماذا هذا فقط!

ثم لماذا لم يحاول إيقاظي؟

ألستُ زوجتهُ، ونحن الآن في أول ليلة لنا في زواجنا، أم أنهُ لا يرى بي ما يغريه لإيقاظي!

وللمرة الثانية استشعرتُ شيئاً من الإهانة، كنتُ أدرك جيداً أني متناقضة جداً، فأنا لا أريدهُ أن يقترب مني، وفي نفس الوقت لا أريدهُ أن يُهملني.

لا أريدهُ أن يتعامل معي كزوجة، لكن أيضاً لا أريده أن ينسى أنني أنثى أولاً وأخيراً. كما أنني لا أريدهُ أن يتعامل معي على أني أنثى، ولكن أيضاً لا أريدهُ أن يترك التعامل معي كُليةً.

عبثاً حاولتُ أن أقذف أفكاري في يمِّ اللامبالاة حتى أتمكن من استقبال النوم، لكن أفكاري أبت أن تفارقني، وأبى النوم أن يأتي وأفكاري لا تزال داخل رأسي تتصارع، كما أنني كنتُ أخشى أن يعاود حسام الكرَّة من جديد حين أغرق في نومي.

مضى بعض الوقت ولا أدري كم مقداره تحديداً، لكن أظننا أصبحنا قريباً من منتصف الليل، أو ربما بعدهُ بقليل، وفجأة قررتُ أن أتجسس على حسام لأرى ماذا يفعل، كان أغلب ظني أنه قد نام في غرفة الأطفال، ومع ذلك فقد فتحتُ باب الغرفة بهدوء وحذر خشية أن يكون نائما في الصالة وهي في مواجهة غرفة النوم مباشرة، وكان ما خشيتهُ غير أنه لم يكن نائماً، ولكنهُ كان جالساً، كان الضوء خافتاً، ومع هذا فقد استطعت أن أدرك بوضوح أنه كان يُدخن، استغربتُ من ذلك كثيراً، فالذي أعرفه هو أن حسام لا يدخن مُطلقاً!

استشعرت بعض الضيق، بل كثيراً من الضيق، فأنا أكره السجائر كثيراً، ولا أستطيع أن أجلس مجرد جلوس بجوار مُدخن، فكيف أتزوج منه!

بل كان من أول ما سألتُ وليد عنه في بداية تعارفنا إن كان يدخن، وإني على يقين من أنه لو كان يدخن لكنت قطعت علاقتي به قبل أن تبدأ.

ثم إنها ضارة جدا، لا له هو وحده، وإنما لعمار وياسمين أيضاً.

وعدتُ إلى سريري مرة أخرى أتوسل إلى النوم أن يُعجل بالقدوم حتى ينقذني من هواجسي، ولكنه لم يفعل، كانت أفكاري لا تزال تتصارع في رأسي، تباً لها، لو أني أقدر على أن أقتلها حرقاً لفعلت حتى أستمتع برؤيتي لها تتعذب على مرأى ومسمع مني كما كنتُ أتعذب بها.

ومرة أخرى من جديد قمتُ لأرى إن كان حسام قد نام أم لا يزال جالساً في مكانه، وكان لا يزال على هيئته الأولى، الشيء الوحيد الذي اختلف هو أني أسمع صوتاً غريباً يصدر من حسام، صوتاً كأنه بكاء، بل هو بكاء فعلاً، كان يبكي وينتحب!

لم أكن بحاجة إلى أن أستعين بذكائي حتى أدركَ استشعارهُ أنه بذلك الذي فعله معي منذ قليل قد خان ملك، لكنه الآن زوجي، ألا يكون بهذا خائناً لي أنا!

ولكن لو أن تذكرهُ لملك وهي أختي وقد كانت زوجته خيانة لي، فإن تذكري لوليد الذي لا يربطني به أي شيء خيانة أيضاً لحسام الذي غدا زوجي.

تباً.. هل أصبتُ بوسواس قهري في الخيانة أم ماذا جرى لي!

لماذا كل شيء في نظري هو محضُ خيانة، أو لهُ صلة مباشرة أو غير مباشرة بها، لماذا غدت كلمة خيانة متصدرة قاموس كلماتي وأفكاري معاً!

سامحكَ اللهُ يا وليد.

ظللت واقفة في مكاني كأحد أعمدة الكهرباء لا حراك لي، وإنما فقط أحدق إلى حسام من خلال فتحة الباب الضيقة التي تتيح لي أن أراه دون أن يراني.

كانت لحسام في تلك اللحظات هيبة غريبةً في نفسي، كانت هيبته طاغية بشكل كبير، لذلك فقد كنتُ أنظرُ إليه ببعض الحذر مع الكثير من الإجلال.

فجأة قررت أن أخرج إليه وأن أجلس معهُ، لن أتركه هكذا في هذه الحالة، لابد وأن عنده ما يريد قوله لي ولكني أضعتُ عليه فرصة الحديث إليَّ بتصنعي النوم، وإن لم يكن عندهُ ما يود قوله لي فإن عندي أنا ما أود أن أقوله له، بل إن حالته تلك هي التي شجَّعتني على أن أخبره بما أود قوله له الليلة قبل الغد.

ولكن كيف أخرج إليه فجأة هكذا وهو بهذه الحالة، سأكونُ قليلة الذوق لو فعلت هذا، فقطعاً لن يسره أن أراهُ هكذا وهو على تلك الهيئة.

وأخيراً اهتديتُ إلى أن أفعل شيئاً يجعلهُ ينتبه لاستيقاظي، حتى يأخذ استعداده لمقابلتي والجلوس معي.

وبالفعل فقد قمت بإضاءة المصباح، ثم تعمدت أن أفتح خزانة الثياب بطريقة عنيفة تجعلها تصدر صوتاً، وبعد ذلك بأقل من دقيقتين اثنتين فتحت باب الغرفة وانطلقتُ كالسهم حيث يجلس حسام دون أن أتكلم أو ألتفت، ثم جلستُ بجوارهِ.

وحدث ما كنت أرجوه، كان قد جفف دموعه وأحكم السيطرة على نفسه، ولكنه لم يطفئ السيجارة التي كانت في يده، بل كان يُدخنُ تماماً كما كانَ يُدخنُ قبل دخولي عليه.

جلستُ على مقعد الصمت لا أنبس ببنت شفة، وظل حسام صامتاً حتى تصورتُ للحظاتٍ أنه لم ينتبه إلى أني أجلسُ بجواره!

وفجأة قطع الصمت السائد بيننا بنظرة قاسية نظرها إليَّ، أو هكذا خِلتها، ثم قال لي:

ـ ما الذي أيقظكِ؟

استشعرتُ أنهُ صفعني بهذه الجملة فابتعلت ريقي، ومع ابتلاعي له فقد ابتلعتُ خطأً جميع الكلمات التي يمكنني أن أرد عليه بها فلم أجد في قاموسي كلمة واحدة تسعفني.

لماذا يسألني هذا السؤال وبهذه الطريقة الجافة!

بدا لي منزعجاً بشكل كبير، ولكن هل هو منزعجٌ من كوني نمت، أم من كوني استيقظت.. لا أدري!

لم أعرف بماذا أرد عليه ولا بأي شيء أجيبه، هل أقول له بأنني قلقتُ أثناء نومي فاستيقظت، أم أقول له بأنني استيقظت لأنني لستُ معتادة على النوم خارج بيتنا، بل خارج غرفتي، أم أعترف له بأنني لم أنم مطلقاً، وإنما فقط كنت أتصنع النوم.

لكني في النهاية لم أرد عليه بشيء، كنتُ كإسفنجةٍ مشبعة بالكلمات، وكانت جملتهُ هي الشمس التي جففت كلماتي بداخلي فكأنها ما كانت!

أضاف:

ـ يمكنكِ أن تُعاودي النوم.. إن شئتِ.

مرة أخرى إن شئتِ!

تمنيتُ أن تكون عندي الجرأة التي تسمح لي أن أقول له: وما تشاء أنت؟

لكني اكتفيت بقولي:

ـ لا رغبة عندي في النوم.

ولم أبرح مكاني، بل بقيت جالسة بجواره، ومن جديد عَمَّ الصمت الشقة كلها إلى أن قطعهُ بقوله:

ـ مُتأكدة من أنكِ لا رغبة عندكِ في النوم؟

فقلتُ له بجرأة:

ـ أريد أن أتحدث معكَ.

قال:

ـ تودين الحديث في شيء بعينه أم حديثاً عاما؟

ـ بل في شيء بعينه.

ـ قولي ما شئتِ، إنني أسمعكِ.

ـ هل أتكلم بصراحة؟

ـ حبَّذا لو تفعلين.

ـ حسام.. أنا لستُ مؤهلة الآن لتقبلك زوجاً.

انتهيتُ من الجملة ثم صمتُّ لكي أبلع ريقي من جديد، لكني كدت أغص به حين صوَّب حسام نظره إلي في سرعة البرق.

فأضفتُ قبل أن يتكلم أو أن ينطق بشيء:

ـ لا تفهم كلامي خطأً يا حسام، أعرف أنني زوجتكَ على سنة الله ورسوله، وأني مِلك لك، لكن أريدُ أن أتكيف مع كونكَ زوجاً لي لا زوجا لـ ..

وتلعثمت وأنا أقول: لا زوجاً لأختي.

ثم أكملت:

ـ تعرفُ أن فترة خِطبتنا لم تتجاوز الشهر، فضلاً عن أننا أثناء ذلك الشهر كنا نادراً ما نتحدث، بالتالي لم أتأقلم على تقبلك زوجاً، ولم أتشبّع الفكرة كما ينبغي.

أنا أقولُ لكَ ذلك لأنني أعلم أنك متفاهم وستسمعني جيداً ثم تقدر موقفي، لكن لو كنتَ تريدُ حقوقكَ كاملةً دون النظر إلى كلامي هذا فطبعاً يحق لك ولا أحد يلومك.

ولا أدري كيف نطقتُ بهذه الكلمات، وإنما أحسست أن وجنتي قد اشتعلتا من شدة الخجل، وحمدت الله في نفسي على أن المصابيح مطفأة؛ وإلا لأدرك حسام حالتي هذه من نظرة واحدة إلى وجنتي المحمرتين خجلاً.

أشعل سيجارة جديدة ثم قال بمنتهى الهدوء بعد أن ارتشف منها رشفة:

ـ كم تريدين من الوقت حتى تتقبليني زوجاً؟

قلتُ:

ـ لا أدري، لكن ليس وقتاً طويلاً إن شاء الله.

ثم صمتَ قليلاً كأنه يرى إن كان بإمكانه تقبل الوضع أو لا، ثم قال:

ـ لا بأس، خذي وقتكِ.

قلتُ لهُ في امتنان:

ـ لا أدري كيف أشكركَ يا حسام.

فأجابني بنفس الهدوء:

ـ لستِ بحاجةٍ إلى شكري بالتأكيد، استأذنكِ من أجل النوم.

قال كلمته الأخيرة ثم قام من جواري متوجهاً إلى غرفة الأطفال دون أن ينتظر ردي، ودون أن يقول لي حتى تصبحين على خير!

ومع استشعاري لبعض الإهانة من جديد من جرَّاء قيامه من جانبي بهذه الطريقة إلا أنني سعدتُ بقيامه؛ فقد أتاح لي فرصة السيطرة على نفسي والتخلص من بعض الخجل الذي تملكني.

لم أكترث كثيراً لقيامه بهذا الشكل؛ إذ كنتُ أشعرُ بأني قد أحرزتُ انتصاراً بذلك الذي حصلتُ عليه، ها هو مزيدٌ من الوقت قد حصلتُ عليه حتى أستعيد نفسي وأعرف ما الذي أريدهُ وما الذي يجب علي فعلهُ تحديداً، مزيدٌ من الوقتِ أمامي سيتيح لي فرصة الإصغاء إلى بوصلة حياتي لأرى إلى أين ستشير عليَّ بالمسير.

كما أني التمستُ له العذر في قيامه بهذه الطريقة، فعلى الأرجح لم يرق لهُ كلامي، وربما استشعر من خلاله بعض الإهانة التي لم أتعمدها.

كنتُ أعلمُ بيني وبين نفسي أنني لم أكن أريدُ تلك الفترة لأتقبل حسام زوجاً، وإنما لأخرج وليد من داخلي، أو على الأقل لأستطيع أن أحِدَّ من سيطرته على قلبي.

وكنت قد عزمتُ بيني وبين نفسي أن أجعل هذه الفترة تمتد لأطول وقت ممكن، ثم ذهبتُ إلى السرير كي أصوب تفكيري كله نحو اختراع حجج جديدة يمكنني من خلالها أن أحول بين حسام وبيني أطول وقت ممكن، وأقض مضجعي علمي أن حسام أولاً وأخيراً إنما هو رجل، ويطلب ما يطلبه جميع الرجال، وهو إن صبر عليَّ اليوم تفهماً منه لحالتي فعلى الأرجح لن يصبر عليَّ غداً، ولم أسمح لهذه الهواجس أن تقلقني كثيراً، فطردتها عني، وربما طردها عني ذلك النوم الذي أتى أخيراً بعد طول انتظار فأخذني في شباكه أسيرة.

****

استيقظتُ من النومِ في تمام الساعة العاشرة صباحاً، للحظاتٍ كنت ذاهلة تماما عن جميع ما كان حولي، لم أعرف ما الذي أتى بي إلى هذا المكان، ولا ماذا أفعل فيه، لكن لم يطل هذا، وسريعاً كنتُ قد استوعبتُ تقريباً كل شيء.

على الرغم مني وجدت نفسي أبكي، لم أكن أعرف ما سبب بكائي، لكني كنت أعرف جيداً أنني لستُ سعيدة بالمرة، بل أنا من أتعس الناس، هذا إن لم أكن أتعسهم على الإطلاق.

لم أدرِ ما الذي يجبُ عليَّ فعلهُ في ذلك الوقت تحديداً، هل أذهب إلى حسام فأرى إن كان بحاجة إلى شيء يمكنني أن أفعله من أجله، فأنا الآن زوجته رغم كل شيء، أم أتصنع النوم حتى يأتي هو إليَّ، فأنا العروس، والأليق بالعروس أن تكون مخدومة لا خادمة، ولكني لم أحبذ هذه الفكرة الأخيرة، ربما لو كان وليد هو زوجي لفعلتها دون أن أتردد، فمن أولى مني بالدلال حينها.

وبعد أن قررت أن أتصل بمي رأيتُ أنها فكرة سيئة للغاية، فرميت الهاتف بعيداً عني وقررت أن أذهب إلى حسام لأرى إن كان بحاجة إلى شيء ما.

لم أجد في نفسي تلك الجرأة التي تسمح لي بأن أدخل عليه غرفة الأطفال فأراه وهو نائم، وأخيراً وقفتُ في الصالة ثم ناديتُ عليه عدة مرات ولكنه لم يجبني، لم يكن عندي شك في أنه مستغرق في النوم بسبب سهره بالأمس، فرجعتُ إلى غرفتي أتوكأُ على عصا الخيبة.

وحتى أطرد عن نفسي الملل الذي شعرت به يقترب مني فقد قمتُ بترتيب الغرفة، لم تكن الغرفة بحاجة إلى ترتيب، كان كل شيء فيها منظماً كحبَّات الرمان، لكنها تفتقد إلى الروح، كانت الشقة كجثة فتاة جميلة، تراها فتعلم أنها جميلة، لكن بمجرد أن تقع عينكَ عليها تدرك دون جُهدٍ أنها ميتةّ!

قمتُ بإجراء بعض التعديلات، ثم انتقلتُ من غرفة النوم إلى الصالة فقمت أيضاً بتغيير بعض الأشياء فيها، وكنت أتعمدُ الحركة بهدوء وحذر حتى لا أزعج حسام أثناء نومه، ثم انتقلتُ من الصالة إلى باقي الشقة، ولم يتبقَّ أمامي عدا غرفة الأطفال التي ينام فيها حسام، وقررت أن أدخلها، لا من أجل ترتيبها هي الأخرى، وإنما من أجل

إيقاظ حسام؛ إذ لم يعد يفصلنا عن صلاة الجمعة غير بعض الدقائق القليلة وهو لا يزال نائماً، وبهذا الشكل ستفوتهُ الصلاة.

وقفت على باب غرفته، ترددت بين الإقدام والإحجام، وأخيراً طرقت على الباب ثلاث مرات، ولكنه لم يجب، ترددت مرة أخرى بين الدخول عليه من عدمه، ولم يطل ترددي هذه المرة ففتحت باب الغرفة لأتفاجأ بأن حسام لا وجود له في الغرفة، بل ولا في الشقة كلها!

استغربتُ كثيراً، واندهشتُ كثيراً، ولم يكن أكثر من استغرابي ودهشتي إلا ضيقي من ذلك التصرف الذي قام به حسام.

ماذا يقول الجيران لو رأوه أثناء خروجه هكذا مُبكراً وهم يعلمون أنه تزوج بالأمس!

بل ما يقول أبي وما تقولُ أمي لو علما بذلك!

وجلستُ حزينةً متألمة أتقلبُ على جمر الغضا، وشرَّقت بي الأسئلةُ وغرَّبت، وكان أبرزها هو: لماذا خرج في هذا الصباح الباكر وإلى أين ذهب؟

هل ذهب إلى زيارة قبر ملك؟ لكن ذلك مستبعد.

هل ذهب إلى العمل؟ لكن اليوم هو الجمعة، إذن فهذا أكثر استبعاداً.

للحظات فكرت في أن أتصل به لأعرف أين هو، ولكن سريعاً ما نحّيت تلك الفكرة عن رأسي، كبريائي لم يكن ليسمح لي بأن أفعل هذا.

ومضت ساعة ولم يعد حسام، فتملكني مزيج من الغيظ والحزن، وربما بعض القلق عليه أيضاً، إضافة إلى شعوري أن حسام قليل الذوق؛ لأنه بفعله هذا لا يبالي بمشاعري، بل ولا يكترث لها قيد أنملة!

وقررت أن أتصل به حتى أنقذ نفسي من براثن تلك الهواجس، وما هو إلا أن أخرجت رقم هاتفه وضغطتُ على زر الاتصال حتى سمعت رنين هاتفه يصدر من غرفة عمار وياسمين!

إذن فقد خرج ونسي هاتفه في البيت، أو ربما تعمد تركه حتى لا أتصل به وأزعجه!

وعلى أحر من الجمر كنتُ أنتظرعودته حتى أبدأ معهُ شجارنا الأول في أول أيام حياتنا الزوجية بسبب خروجه صباحاً هكذا، حتى وإن كان خروجه من أجل زيارة قبر أختي ملك.

(الفصل السابع)

أعلمُ أني كنتُ سخيفاً جداً مع أسماء، ولكني لم أتعمد ذلك، ما حيلتي وقد هجم عليَّ الحزنُ فتملكني كما يهجم الليل على النهار!

وأعترفُ بأني كنتُ سخيفاً أيضاً مع أحمد؛ إذ هو بما أوتي من وفاءٍ حاول أن يجعل الليلة تشع بهجةً وسعادة، وأستطيعُ أن أدركَ خيبة الأمل التي تملكته بسبب تصرفاتي المجردة من كل معاني الذوق والتقدير.

حين دخلتُ شقتي مع أسماء لم أكن أعرف ما الذي يجبُ عليَّ فعله، بمعنى أصح لم تكن عندي الرغبة في فعل أي شيء، جلستُ على أريكة الصالة حين دخلتْ هي غرفة النوم، وعن عمدٍ تجاهلتُ وجودها، وحين تأكدتُ من أنها على الأرجح قد نامت عندما يئست مني في أن أعيرها أي اهتمام فقد توجهتُ إلى غرفة النوم من أجل إحضار علبة السجائر، ودخلتُ بعد طرقات خفيفة وهادئة مني على الباب لا تقوى حتى على إيقاظ طفل نائم، كنتُ قد أقلعتُ عن التدخين منذ سنوات، والفضل في ذلك كان لله أولا ثم لملك رحمها الله، وما زلتُ لا أدخن، ولكن لا إرادياً مني وجدتني أشتري علبة سجائر وأضعها في أحد أدراج المكتب في غرفة النوم قبل ذهابي إلى بيت أسماء لإحضارها إلى بيتي عروسا.

حين دخلتُ لم يكن في نيتي أي شيء عدا إحضار السجائر، لكن استوقفتني تلك الطريقة التي تتعامل بها أسماء مع الغطاء أثناء النوم.

كانت تشبه في ذلك ملك كثيراً، بل كانت تطابقها تماماً؛ إذ كانت ملك تضعُ طرف الغطاء من الأسفل تحت قدميها، وطرفه من الأعلى تحت رأسها، وربما جعلتْ يمينه تحت جانبها الأيمن، ويساره تحت جانبها الأيسر، وكانت تغيظني كثيراً بتلك الطريقة

التي تتعامل بها مع الغطاء، لذلك فقد كان لكل واحد منا أثناء النوم غطاء خاصا به وحده يفعل به ما يحلو له.

للحظات تصورت أن القابعة تحت ذلك الغطاء هي ملك لا أسماء، وجدتني لا إرادياً أقترب منها، وناديت عليها لكنها لم تجبني، فناديتُ على أسماء كأني أستفز ملك على أن تنطق فتقول لي: أنا ملك لا أسماء يا أستاذ حسام، كما هي عادتها في نطق اسمي مضافاً إليه كلمة أستاذ حين أستفزها.

ولم تجبني ملك ولا أجابتني أسماء!

ودون شعور وجدتني أسحب الغطاء بهدوء من تحت رأسها ثم من على وجهها، كانت أسماء ولم تكن ملك، لكني للحظات تصورتها ملك مرة أخرى حتى بعد أن رفعتُ الغطاء عن وجهها.

اقتربتُ منها أكثر ثم أدنيتُ وجهي من وجهها لأرى إن كان غياب عامٍ وبضعة أشهر قد غيَّر شيئا في وجهها، ثم انحنيتُ عليها فقبّلتها في جبهتها، وخرجتُ من الغرفة ولا أدري إن كنتُ قد قبَّلتُ ملك أم أنني قبَّلتُ أسماء!

بعد منتصف الليل جلستُ على أريكة الصالة أدخن بعد أن قمتُ بصنع فنجانٍ قهوة من تلك التي تعشقها ملك أكثر من أي شيءٍ في الدنيا.. أكثر من عشقي أنا للسجائر أيام كنت أدخنها.

وكلما نظرتُ إلى القهوة وجدتُ صورتها منعكسة عليها!

كان يحلو لي أن أجعل الجو مُختنقا بالأسى، مُشتعلاً بالفجيعة، مُحترقاً بالحزن، فجلستُ أجلب المزيد والمزيد من الحزن كأن الذي أجده في نفسي لا يكفيني، لكن الحزن لم يأتِ وحدهُ، وإنما أتى مُصطحبا معهُ أجمل ذكرى كانت لي معها، فتصارع الماضي الجميل مع الحاضر المؤلم، ومن جانبي فقد انحزتُ إلى ذلك الماضي الذي تمنيتُ بقاءهُ وعلى الرغم مني لم يبقَ!

في ليلة كهذه تماما كانت هي العروس لا شقيقتها، في ليلة كهذه اصطحبتها إلى بيتي ولا أسعد في الدنيا مني، في ليلة كهذه تزوجنا بعد قصة حب طويلة وعنيفة، أول ما وقفنا على باب شقتنا فجأة وبدون أي مقدمات حملتها بين يدي كطفلة وهي بفستانها الأبيض ثم ظللت واقفاً مكاني أمام باب شقتنا.

رغم أنها كانت قتيلة الخجل إلا أنها قالت لي بنبرة ملؤها العجب وهي تطوق رقبتي بذراعيها:

ـ حسام.. هل سنظل هكذا؟ ألن ندخل شقتنا!

قلت لها:

ـ لقد نسيت أن أفتح باب الشقة قبل أن أحملك!

ـ إذن أنزلني لكي تفتحه.

ـ لو توسل إليّ أهل الأرض جميعا أن أنزلكِ الآن ما أنزلتك.

ـ إذن ماذا ستفعل؟

ـ أفكر في أن أتصل بأخيك علاء لكي يأتي ويفتح لنا الباب.

ـ حسام.. لا تمزح، هيا أنزلني، فأنا ثقيلة، لا شك أنك قد تعبت من حملي.

ـ لستِ ثقيلة ولم أتعب ولن أنزلكِ، المفتاح في جيب البنطلون من ناحية اليمين، أخرجيه وافتحي أنت الباب.

أول ما دخلنا أغلقتُ الباب بركلة من قدمي، ثم أنزلتها في منتصف الشقة.

أمسكت يدها اليمنى ثم قلت لها هيا بنا.

سحبتْ يدها من يدي بقوة، ثم مذهولة بسرعة قالت لي:

ـ هيا بنا إلى أين؟

ـ إلى غرفة النوم!

ارتبكتْ، ثم قالت لي:

ـ ألن تُعرفني على شقتي أولا.

ـ وهل هذا وقت تعارف!

ـ نعم وقت تعارف، لا تكن سخيفاً.

ـ لا تكوني أنتِ سخيفة، دعينا من هذا الآن.

ـ بالله عليك، لأجل ملك حبيبتك، هيا هيا.

أمسكتُ يدها اليمنى من جديد ثم قلت:

ـ أمري إلى الله، هيا بنا أعرفك على شقتكِ.

عرّفتها على الشقة أجمعها، وتعمدتُ أن أجعل آخر مكان ندخله هو غرفة النوم؛ حتى نمكث معا فيها أطول وقت ممكن.

أول ما وقفنا على باب غرفة النوم فجأة سحبتْ يدها من يدي، ثم بسرعة البرق كانت قد دخلت الغرفة وأغلقتها من الداخل!

مدهوشاً قلت لها:

ـ ما بكِ أيتها المجنونة؟! لماذا تفعلين ذلك!

ـ لأنك لا عهد لك ولا وفاء.

ـ أنا!

ـ نعم أنت.

ـ ولماذا؟

ـ لأننا كنا قد اتفقنا على أن نشاهد معاً في ليلة زفافنا كارتون أطفال.

ـ لم أنسَ ذلك، لكن كنتُ أظنك تمزحين!

ـ لم أكن أمزح طبعا.

ـ وماذا تريدين الآن؟

ـ لا أريد شيئا، اذهب لكي تنام، فأنا مُتعبة وسأنام حالا، وأنت أيضا لا شك أنك أكثر تعباً مني.

كنت أعرف أنها تتعمد مشاكستي، قلت لها:

ـ لكن ألن نشاهد معا كارتون أطفال؟ عندي أحدث حلقات كارتون المحقق كونان.

ـ لا أثق فيك، أنت تُغريني كي أفتح لك ثم..

قلت لها في مكر ونبرة ارتفع بها صوتي مع ضحكاتٍ شريرة:

ـ ثم ماذا؟

ـ ثم لا تحاول استفزازي، لن أفتح لك أبدا، أعرف أنك تحتال عليَّ بالكارتون.

ـ ولماذا أفعل ذلك؟

ـ لا أدري في الحقيقة لماذا تفعل ذلك.

ـ أنا أيضا أحب الكارتون كثيرا، هيا، لا تكوني مُشاغبة.

ـ عموما لقد غيرت رأيي، لا أريد مشاهدة شيء، سأنام.

ـ ابتعدي سريعاً عن الباب يا ملك.

ـ لم؟

ـ سأكسره حالا.

ـ حقا؟

ـ أقسم أني سأعد من واحد إلى ثلاثة ثم بنفسك ستشاهدين.

بدأتُ في العدّ، وقبل أن أقول ثلاثة كانت قد فتحت الباب.

نظرت إليَّ باستغراب ثم قالت لي:

ـ يا لك من مجنون، هل حقا كنت ستكسر الباب؟

ـ قطعا لم أكن لأفعل ذلك.

ـ لكنك أقسمت!

ـ أقسمت أن أعد من واحد إلى ثلاثة، لم أقسم أني سأكسره.

ـ كان يجب أن أعرف أنك محتال.

ـ وكان يجب أن أعرف أنك مجنونة.

ـ هل عندك مانع؟

ـ لا مانع طبعا، جنونك يُغريني كثيرا، كما أني أكره أي فتاة عاقلة، أستشعرها مستفزة بشكل لا يُطاق. ما زلتِ بفستانك؟ ألن تغيري ثيابك؟

ـ وهل تركت لي وقتاً لأفعل أي شيء!

ـ ها هو الوقت كله معكِ، هيا غيري ثيابكِ.

ـ هل تظنني سأفعل ذلك وأنت تحدق إلي هكذا؟

ـ وماذا أفعل إذن؟

ـ اذهب وافعل ما وعدتني به.

ـ وما الذي وعدتك به؟

ـ أن نجلس ونشاهد معا بعض حلقات المحقق كونان.

ـ ولماذا نُشاهد بعض حلقاته؟ لم لا نشاهد الحلقات كلها.

ـ ذلك أفضل فعلا.

ـ يبدو أنني سأضطر إلى استخدام العنف معك.

ـ لن تستطيع فعل شيء.

ـ ولم لا أستطيع.

ـ لأني سأقتلك قبل أن تفكر في ذلك مجرد تفكير.

ـ هل تزوجتُ من مصاصة دماء وأنا لا أدري!

ـ هل ستظل تضيع الوقت هكذا؟

ـ ماذا أفعل كي لا أضيعه؟

ـ اذهب وأحضر اللاب توب وجهّز لنا أجواء مناسبة.

ـ سأفعل لكن بشرط واحد.

ـ شرطك مرفوض.

ـ وهل عرفته أولا.

ـ يمكنني أن أتوقعه.

ـ لا تتوقعي، اسمعي واحكمي.

ـ إذن فقل.

ـ أريد أن أقبّلك.

ـ أخرج حالا يا حسام قبل أن أرتكب جريمة.

ـ قُبلة بريئة صدقيني.

ـ لا بريئة ولا شريرة، هيا اخرج من هنا.

ـ لن أخرج قبل أن أحصل عليها.

ـ لن تأخذ شيئا.

ـ إذن لن أخرج.

ـ حسنا.. تُقبلني في جبهتي، موافق؟

ـ هل سأقبل أمي؟! القبلة بين الزوجين في ليلة الزفاف لا تكون في الجبهة، وإنما في موضع آخر.

ـ لا يهمني أن أعرف ذلك الموضع. هيا وافق قبل أن أسحب العرض.

وافقتُ وقبّلتها في جبهتها، ثم قلت لها مبتسما:

ـ هيا غيري ثيابك سريعا ثم توضَّئِي، سأصلي بك ركعتين كما أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم، نريد أن تكون حياتنا كلها خير وبركة.

ابتسمت لي ابتسامة رضا وسرور، ثم خرجتُ من الغرفة لكي تبدل ثيابها، وبدّلتُ ثيابي ثم توضأتُ، وكذلك فعلتْ.

صليت بها ركعتين خفيفتين، ثم دعوت الله وهي تؤمن خلفي أن يملأ حياتنا بركة وهناءً وسعادة وسرورا.

جلستُ أنا وهي نشاهد إحدى حلقات المحقق كونان ونحن نتحدث معا ونشرب عصير المانجو من كأس واحد، ظللنا نضحك ونمزح، وفجأة نظرت إليَّ وقالت:

ـ أحبك كثيرا، أحبك كثيرا جدا فوق ما تتصور أني أحبك يا حسام، لا حرمني الله منك يا أجمل هدية أرسلها الله لي.

ابتسمتُ لها في سرور، وفجأة وضعتْ رأسها على صدري، ظللت أعبث بشعرها وأمرر يدي عليه وأنا أحدثها، ثم تفاجأت بها قد نامت على صدري!

لم أشأ أن أيقظها، كنت أعرف كم هي متعبة، حملتها بين يدي بمنتهى الهدوء، ثم ذهبتُ بها إلى غرفة النوم، و وضعتها على السرير ثم سحبتُ الغطاء فوقها، ولم يكن يزعجني البتة أنها نامت وتركتني في الليلة الأولى من زواجنا، بل استشعرتها طفلة جميلة من فرط تعبها نامتْ ولم تُبالي.

ظللت أتذكر تفاصيل ليلة زفافي أنا وملك، ومن دون أن أشعر وجدت دموعي تنسكب على الرغم مني، وكانت دموعي هي أسطع دليل على أن الصراع الذي نشبَ بين الماضي الجميل والحاضر المؤلم قد حُسمت نتيجتهُ لصالح الحاضر رغم تحيزي للماضي الذي أفتقدهُ كثيراً!

وفجأة بينما دموعي تُتابع استرسالها في صمتٍ استيقظتْ أسماء من نومها، أول ما سمعتُ صوت دبيبها على الأرض جففتُ دموعي سريعاً، وأصلحت هيئتي، لم أكن لأسمح لها أن تراني وأنا على تلك الهيئة.

بعد لحظاتْ خرجت أسماء من الغرفة وجلست بجواري فحدثتني عن عدم استعدادها نفسياً بأن تُصبح زوجةً، وأنها بحاجة إلى مزيد من الوقت حتى تكون مُهيأة لذلك، وأسعدني ذلك كثيراً، بل أغلب ظني أنها فعلت ذلك من أجلي أنا حينما رأتني على تلك الحالة، وحديثها عن عدم استعدادها النفسي لعلها كانت تقصدني أنا به وإن نسبته إلى نفسها، مهما يكن من شيء فقد سعدتُ بذلك كثيراً، وأسعدني أكثر أنه أتى منها هي؛ إذ لم أكن أحب أن أحدثها في هذا فأجرح مشاعرها، بل ربما ذبحتها ذبحا من دون قصد مني.

أعلم أن أسماء أصبحتْ زوجتي، وأن لها علي حقوقاً، لكن لا أظنني الآن أقدر على إعطائها شيئاً من تلك الحقوق!

ولا أعرف متى يمكنني أن أتعامل معها على أنها زوجتي، لكن الذي أعرفهُ جيداً أن تعاملي معها على هذا النحو في الوقت الحالي أمر في غاية الصعوبة.

قمتُ من جوارها بحجة أني أريدُ أن أنام، وذهبتُ إلى غرفة الأولاد فجلستُ فيها وحدي أحترق حزناً على مراحل كفتيلة قنديل.

فجأة وجدتُ ملك تقفُ أمامي، كان وجهها يقطرُ حزناً، لم أنتبه إلى أن السيجارة لا تزال مُشتعلة في يدي.

سألتني:

ـ لماذا رجعت إلى التدخين يا حسام؟ ألم نتعاهد على أنك لن تدخن أبداً!

كنتُ أظن أنها حزينة واجمة لكوني تزوجت، لكنها لم تكن كذلك، أشفقتُ عليها أن أراها مُغيبةً عن فعلتي، قلتُ لها:

ـ لقد تزوجتُ يا ملك، سامحيني.

وكأنها لم تسمع حرفاً مما قلته، فقالت:

ـ لا تدخن يا حسام رجاء، من أجلي لا تدخن، وأيضاً من أجل عمار وياسمين.

أعدتُ عليها كلامي فقلت لها:

ـ لقد تزوجتُ يا ملك.

قالت:

ـ اعتنِ بالأولاد يا حسام، وأبلغهم أني اشتقتُ إليهم كثيراً.

قلتُ لها للمرة الثالثة:

ـ ملك.. لقد تزوجت، تزوجت يا ملك. هل تسمعيني؟

نظرتْ إليَّ مُبتسمة ثم فجأةً.. اختفت!

****

في الصباح الباكر اتصلتْ بي أمي باكية مُعتذرة، ثم أخبرتني أن عمار تعب فجأةً، وأن أخي سيف أخذهُ إلى طبيب، وقام الطبيب بدوره بتحويله إلى المشفى، ولم تجد هي بُدَّاً

من إخباري، بالرغم من أنها لم تكن تنوي فعل ذلك، وإنما ألجأتها الضرورة على الرغم منها أن تفعل.

ثم ظلت تعتذر مني لكونها كما تقول قد أفسدت علي فرحتي بالزواج.

أخذت منها عنوان المشفى الذي نُقل إليه عمَّار، ودون أي تفكير خرجتُ هرولة إلى ذلك المشفى من دون حتى أن أخبر أسماء، حتى لا أقلقها عليه، لاسيما وأنها على الأرجح كانت نائمة.

عندما ذهبت إلى الغرفة التي يُمرَّضُ فيها أخبرني الطبيب أن حالته أصبحت مستقرة، وأنه ما من داع للقلق، سألته عن إمكانية اصطحابه إلى المنزل، فأخبرني أنه لا بد وأن يبقى في المشفى من يوم إلى ثلاثة أيام ليظل تحت العناية والمراقبة.

ولم يسمح لي أخي سيف بأن أطيل المكث في المشفى بالرغم من كوني كنت قد عزمت أن أظل مرافقاً لعمار حتى يخرج منها صحيحاً، فأقسم عليَّ أن أنصرف إلى البيت، إن لم يكن من أجل نفسي فمن أجل عروسي التي لها علي حقوق، ثم أكد لي أنه لن يتركه لحظة واحدة بالإضافة إلى زوجته.

عندما رجعت إلى البيتِ كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة عصراً وما هو إلا أن دخلتُ من باب الشقة حتى وجدت أسماء في استقبالي، كان وجهها يشع غضباً، ونظراتها كأنها شرارت متطايرة، وبطريقة غير مهذبة بالمرة قالت لي:

ـ أعلمُ أنك لا تُكِنُّ لي في نفسك ولو مثقال ذرة من حب، وأعلمُ أيضاً أن وجودي في حياتك كعدمه، ولا تظن أن ذلك أمر يزعجني، على العكس، فأنا راضية بذلك كل الرضا، لكن إن كنتُ أنا وأنت نعلم ذلك فلا ينبغي أن يعلمه الناس أيضاً!

ليس من اللائق ولا من الذوق أن يخرج أي زوج في الدنيا من بيته في الصباح الباكر لأي سبب من الأسباب وهو في اليوم الأول من زواجه.

بالله عليك ماذا يقول الناس إذا رأوه يفعل ذلك؟!

يؤسفني أن أعَلّمكَ هذا وأنت الذي تكبرني بعشر سنوات!

كان عليكَ على الأقل أن تخبرني بخروجك، لا أن تخرج هكذا خلسةً كاللصوص ثم تترك هاتفك في البيت حتى لا يزعجك أحد باتصالاته، أو ربما حتى لا أزعجك أنا تحديداً.

من فضلك لا تكرر مثل هذه الأخطاء التي من شأنها أن تُسيء إليَّ كزوجة لك، فإن كنت لا تعتبرني زوجة لك فإن الناس يعتبرونني كذلك.

ومع ما كان بي من الحزن على عمار فقد أضافت أسماء بتلك الكلمات منها إلى ذلك الحزن غضباً مدمراً لو أتى عليها لأهلكها، ولكني مع ذلك كله ملكتُ جماح نفسي وأحكمت السيطرة عليها، ثم بمنتهى الهدوء قلت لها:

ـ أعتذر منكِ يا أسماء، لقد كنتِ نائمةً حين اتصلتْ بي أمي وأخبرتني أنَّ ابني عمار تعبَ فجأة ونقلوه إلى المشفى، ولم أشأ أن أزعجكِ بذلك فتركتكِ نائمة، كما أني لم أنتبه إلى أني نسيتُ هاتفي هنا إلا الآن.

وقفتْ مدهوشةً بعد أن فرغت من تلك الكلمات كأنما نضحتُ في وجهها دلوا ممتلأ بماء من القطب الشمالي، تركتها أسيرة دهشتها ثم ذهبتُ إلى غرفة الأطفال لأستريح قليلاً قبل أن أذهب في المساء إلى عمار.

وما هي إلا دقائق حتى وجدتُ أسماء واقفة على باب الغرفة تستأذن في الدخول، قلت لها:

ـ يمكنك الدخول بلا ريب.

قالت:

ـ حسام.. هل عمار بخير؟ أريدُ أن أراه.

ـ هو بخير الحمد لله، سأذهبُ إليه في المساء، يمكنكِ أن تذهبي معي إن شئتِ.

ـ سأذهب معكَ بكل تأكيد.

ثم أضافت:

ـ هل أتركك لتستريح؟

قلت:

ـ حبَّذا لو تفعلين، لم أنم منذ أمس وأريد أن أستريح قليلاً.

ثم خرجتْ من الغرفة، وبعد دقائق عادت من جديد، دخلت هذه المرة من دون استئذان ثم وقفت صامتة.

قلت:

ـ ما بكِ؟ هل تريدين شيئاً آخر؟ أم هناكَ بعض كلمات التوبيخ التي نسيتِ قولها فجئتِ من أجل إضافتها؟!

وبمجرد أن انتهيت من النطق بالكلمة الأخيرة انفجرت في البكاء، قلت وقد هالني منظرها:

ـ ما بكِ يا أسماء؟

قالت وهي تبكي:

ـ لا أدري ما أقول لكَ، أرجوكَ سامحني، لقد كنت قليلة الأدب، لا أدري كيف قلتُ لك تلك الكلمات، أنا فعلاً قليلة الأدب.

ثم توقفت عن الكلام واسترسلت في البكاء والنحيب.

قلت:

ـ لا عليكِ، لم يكن عندكِ علم بمرض عمار.

قالت وهي مستغرقة في البكاء:

ـ حتى وإن لم يكن عمار مريضا، لم يكن يحق لي أن أكلمك بهذه الطريقة السخيفة، ولا أن أقول لك تلك الكلمات، أرجوك سامحني يا حسام، من أجل أختي ملك سامحني بالله عليك.

وما هو إلا أن ذكرت ملك حتى كنت قد نسيت الموقف تماما شفاعة لملك، وكأنها قرأت ذلك في وجهي فأضافت:

- حتى وإن سامحتني فأقسم أني لن أسامح نفسي أبدا على ذلك الذي كان مني اليوم.

ثم خرجتْ من الغرفة وهي تبكي وتنتحب دون أن تستأذنني في الانصراف.

اكتشفتُ مساءً عندما مررتُ بالصالة أن أسماء قامت بتغيير بعض الأشياء في الصالة، بل وفي الشقة كلها، فنقلتْ وبدَّلت، وقدَّمتْ وأخَّرتْ، وأزعجني ذلك إزعاجاً كبيراً، منذ ماتت ملك وأنا أحافظ على الشقة بنفس ترتيبها الذي تركت الشقة عليه، لم أكن أرغب في أن يأتي من يغير شيئاً لمسات ملك عليه حتى وإن كانت شقيقتها!

هممتُ بأن أزجرها على تلك الفعلة وأنهاها عن أن تعود لمثلها مرة أخرى، لكني رأيت أن الوقت غير مناسب بالمرة لأن أفعل ذلك، إذ كان قلقي على عمَّار يشغلني عن الدخول في المزيد من المشاجرات، كما أنها كانت ستحمل كلامي على الأرجح على أنه أخذٌ للثأر، وردٌّ للصاع بمثلهِ، فغضضت الطَّرف عن التحدث في هذا مؤقتا، وكان في نيتي أن أحدثها فيه لاحقاً مُستعيناً بالتؤدةِ والهدوء حتى لا تأخذ كلامي بحساسية.

****

خرج عمار من المشفى، وأخذته إلى البيت عندي هو وياسمين، وعاد كل شيء إلى نصابه.

ومع الأيام كنتُ ألاحظ أن الأولاد يزدادون تعلقاً بأسماء، وأسماء أيضاً كانت تزدادُ تعلقاً بهم، كانوا ينادونها على أنها أمهم لا خالتهم، وأظن أن أسماء هي التي طلبت ذلك منهم.

بالرغم من أني لا أجد في نفسي أي ميل إلى أسماء إلا أنني لا أستطيعُ أن أنكر أنها قد أزاحت عن كاهلي عبئا كبيراً، فلم أعد أقلق على الأولاد، ولا على ذهابهم إلى الروضة وعودتهم منها، فقد كفتني أسماء ذلك كله.

بل كانت تذاكر لهم ما يأخذونه في الروضة أولاً بأول، وكثيراً ما كانت تلعبُ معهم وتحملهم على ظهرها كأنها حصان أو ناقة، وكان الأولاد يسعدون بذلك كثيراً، وأظن أنها أيضاً كانت تسعد بذلك.

وتنازلت أسماء عن كامل حقها في غرفة النوم لأنها لا تريد أن تفارق عمار وياسمين ولا حتى أثناء النوم، ورفضتْ أن أضع لها سريراً ثالثاً في غرفة الأولاد، فكانت تنام ليلة بجوار عمار على سريره، وليلة بجوار ياسمين على سريرها.

لا أستطيعُ أن أجزمَ أن أسماء رغم جميع ما تفعله من أجل الأولاد قد استطاعت أن تعوضهم عن أمهم، لكن مما لا ريب فيه أنها سدَّت مساحة كبيرة من تلك الفجوة الكبيرة التي ولِدَتْ مع وفاة ملك، والتي لولا الله ثم هي لربما كانت ابتلعت طفولتهم.

وبعد إلحاحٍ عليَّ من أحمد قررت مكافأة أسماء على ذلك الذي تقدمه من دون مقابل، وإن كنت أعلم أنها لا تنتظر من أحد مكافأة على ما تفعله.

وكما اقترح أحمد مكافأتها فإنه قد اقترح أيضاً نوع المكافأة، فكانت عبارة عن نزهة في يوم الجمعة القادمة أخرج فيها مع أسماء والأولاد، إذ من يوم زواجنا لم تخرج أسماء من المنزل إلا نادراً، ومن أجل زيارة أهلها.

عرضتُ عليه أن يأتي معنا هو ومي التي أصبحت مخطوبته رسمياً، ولكنهُ لم يشأ أن يكون متطفلاً، ولم تتحمس أسماء لتلك الفكرة حين عرضتها عليها، وطلبت مني أن نؤجلها بعض الوقت، فاستغربت ذلك منها، فأنا أعرف أن أسماء قبل زواجنا كانت تحب الخروج والانطلاق، وقد مضى على زواجنا أكثر من ثلاثة أشهر ولم تخرج من البيت إلا مرتين أو ثلاثا وكانوا جميعا من أجل الاطمئنان على أمها، وحين أعرض عليها أن نخرج في نزهة فإنها ترفض!

وحين قرأتْ علامة الدهشة في وجهي جرّاء رفضها قالت:

ـ إن كنت تريد أن نخرج فعلاً فإني أريد أن أذهب معكَ إلى مكانٍ ما، ولكني كنت مترددة في أن أخبرك. قلت:

ـ ولم التردد! أين تودين الذهاب وأنا أذهب معكِ؟

قالت:

ـ أريد أن أزور ملك.

وصادف طلبها هوىً في نفسي، فقلت على الفور:

ـ لا مانع عندي في هذا مطلقاً، كما أنني كنت قد وعدتها منذ بضعة أشهر أن أجلب الأولاد معي حتى تأنس بقربهم منها، أظنها ستكون فرصة مناسبة لأن أصحبهم معي.

ولم تعقب على كلامي، وإنما اكتفت بابتسامة باهتة، وبعد دقيقة من الصمت فإنها قد عدلت عن رأيها الأول وقالت:

ـ يمكننا أن نخرج في الأسبوع بعد المقبل إن لم يكن عندكَ مانع، فالأولاد بحاجة إلى أن يخرجوا ويستمتعوا بوقتهم. قلت:

ـ إذن فقد اتفقنا، الأسبوع المقبل نذهب إلى زيارة ملك، والأسبوع الذي يليه نخرج للتنزه.

****

كانت كل الأحاديث التي تدور بيني وبين أسماء مُوجزة دائماً، الجواب على قدر السؤال وفقط، وكنتُ أعرف ضيقها بالوضع القائم بيننا وإن كانت تجتهدُ كثيراً في إخفائه عني قدر طاقتها.

في نفسي عزمتُ أن أحاول الاقتراب منها كصديق، حتى أهون عليها بعض الضيق الذي ألمحه في وجهها كلما صوبت نظري إليها، لكنها لم تكن تعطيني فرصة لأن أفعل ذلك قط، داخل قوقعةٍ صامتة حبست نفسها، ولم تترك لي أي منفذ يوصلني إليها!

كنت أعجز دائماً عن تفسير ذلك، فهل تراها تأقلمت مع الوضع الراهن وتكيفت معه، أم أنها تتعمد أن تهملني كما أهملتها في ليلة زفافنا!

كانت كثيرة الشرود، والحزن لا يكاد يفارق صفحة وجهها، رغم اجتهادها الدائم في إخفائه عني، وكثيرا ما كنت أشك في أنها أجبرت على زواجها مني!

لكن الذي لم يكن عندي فيه شك هو أنها تتعمد أن تتجاهلني فعلاً، أو ربما كانت قد عزمت من قبل زواجنا أن تجعل بيني وبينها مسافة لا يتجاوزها أي منا، ولم يزعجني ذلك الاكتشاف قيد أنملة أول الأمر، وإن كنتُ مع تقدم الأيام أصبحتُ أستشعر نوعاً من الإهانة التي تلحقني من طريقة تعاملها معي.

مضى الأسبوع سريعاً، وبعد صلاة الجمعة كانت أسماء قد جهزت الأولاد، وأخبرتهم أننا سنزور أمهم، وكانت سعادتهم بذلك لا توصف، قال لها عمار:

ـ هل سنتكلم معها؟

فقالت أسماء:

ـ نعم يا عمار، سنتكلم معها، وستخبرها بأنك ولدٌ مطيع وتسمع الكلام، وأنك متفوق في الروضة.

ـ لن أخبرها بهذا.

ـ فما الذي ستخبرها به إذن؟

ـ سأقول لها أنني أشتاق إليها كثيراً.

ثم قالت ياسمين:

ـ وأنا لن أخبرها بشيء، لقد خاصمتها لأنها ذهبت بعيداً عنا ولا تريد أن تعيش معنا.

سكتت أسماء لحظات ثم قالت:

ـ فلماذا تريدين أن تذهبي معنا إذن؟

ـ لأنني أيضاً اشتقت إليها، سوف أسامحها لو قررت أن ترجع معنا، من الممكن أن تكون نسيت مكان البيت ولا تعرف كيف تعود كما حدث مع صديقتي سما.

ثم نظرت إليَّ وتابعت:

ـ إن أبي يعرف الطريق وسوف يجعلها تأتي معنا.. أليس كذلك يا أبي؟

وعجزتُ عن الرد، فقالت أسماء:

ـ هيا بنا يا حسام، يمكننا أن نذهب الآن.

****

وقفنا نحن الأربعة على باب قبرها، لم أكن أعلم أينا أكثر شوقاً إليها، لكن ترى أينا تشتاقه هي أكثر، زوجها وحبيبها، أم أولادها فلذة كبدها، أم أسماء التي كانت تعتبرها ابنة لها قبل أن تكون أختاً.

لم أكن أعلم إن كانت راضية عن زواجي من أسماء أو لا، أعرف أنها وصيتها أولاً وأخيراً، لكنها أوصت بذلك من أجل الأولاد، لا من أجلي، فهي شديدة الغيرة عليَّ.

وربما أوصت بذلك من أجلي أيضاً، فقد كانت تحبني وتتمنى سعادتي على أي حال.

وقفتُ أناجيها بيني وبين نفسي دون أن يسمعني أحد، أعلم أنها تسمعني وتراني، تسمعني بأذني قلبها لا رأسها، وتراني ببصيرتها لا ببصرها.

ها قد أتيتُ لكِ بأولادكِ يا ملك، أتيتُ بهم وفاءً لكِ بوعدي، ولتستأنسي بقربك منهم وقربهم منكِ.

لابد وأنك الآن أصبحت مُطمئنة عليهم، فأسماء تقوم لهم بجميع ما يحتاجونه، قد عوضهم الله عن فقدهم لكِ بها.

ونظرتُ إلى أسماء فوجدتها تبكي، لابد وأنها هي الأخرى تناجيها خفية.

وقطع عمار الصمت فقال:

ـ أين أمي يا أبي؟

قلت:

ـ خلف هذا الباب يا عمار.

ـ ألن تخرج إلينا؟

ـ لا يمكنها ذلك يا حبيبي، لكن كلمها، فهي تسمعك، أخبرها أنك ولد مطيعٌ ومهذب وأنك متفوق لأنك تذاكر دروسك أولاً بأول.

قال عمار يكلم أمه وكأنه لم يسمع حرفا مما قلته:

ـ اشتقتكِ كثيرا يا أمي، لماذا لا تأتين لتسألي عني في الروضة كما تأتي والدة عمرو وطارق وكريم؟

هل أنتِ غاضبة مني؟ لكني لم أفعل شيئاً حتى تغضبي مني!

ثم نظر إلي والدموع تتراقصُ في عينيه فقال:

ـ لماذا لا ترد عليَّ يا أبي؟

قلت:

ـ لقد ردّت عليك، لكنك لن تتمكن من سماعها الآن لأنك لا تزال صغيراً، حين تكبر سيمكنك أن تسمعها.

ـ لكنك كبير يا أبي، لابد وأنك سمعتها، ماذا قالت؟

صمتُ مبهوتاً للحظات لا أدري ما أقول له، ثم أجبته قائلاً:

ـ إنها تقول أنها اشتاقت لك هي الأخرى يا عمار، وأنها تتمنى أن تأخذك في حضنها، لكن لا يمكنها أن تفعل ذلك الآن، لكن حين نلتقي في بيتنا في الجنة إن شاء الله فسوف أقبلك وأحضنك وألعب معك كثيرا.

ثم قلت لياسمين:

ـ وأنت يا حبيبتي، ألن تكلمي أمكِ؟ هي تسمعك الآن، قولي لها ما شئت.

فقالت يا سمين:

ـ أنا أحبكِ كثيراً يا أمي، لا تغضبي مني لأني خاصمتكِ، أنا التي يحق لي الغضب، لأنكِ ذهبتِ ولمْ ترجعي، عندما ترجعين البيت سوف أصالحكِ.

ثم انفجرت في البكاء وهي تنظر إليَّ وكأنها تسألني بعينيها ماذا قالت؟

فقلت:

ـ تقول لكِ أنها تحبكِ هي الأخرى، وأنها لم تذهب، لكن الله هو الذي اختارها لتكون عنده، وتقول لك أيضا أنها تنتظركِ في بيتنا الآخر أنت وعمار، وتطلب منك أن تتوقفي عن البكاء حتى لا تغضبَ منكِ.

وبينما أجاهد عيني ألا تفضحني من شجن الموقف فجأة نظرتْ إليَّ أسماء وقالت وهي تبتسم رغم تساقط الدموع من عينيها:

ـ أنا أيضاً اشتقتُ لملك كثيراً يا حسام، أخبرها أنني أفتقدها كثيراً هذه الأيام، أفتقدها كما لم أفتقدها في حياتي.

قلتُ:

ـ قد سمعتكِ يا أسماء، لا أشك في أنها تشعر بكِ وباحتياجكِ إليها.

وانسلختُ من بينهم بفكري حتى أعود إلى مناجاة ملك وإن كنتُ قد بقيتُ معهم بجسدي.

قلتُ لها بقلبي دون أن تخرج الكلمات من حنجرتي أو تجري على لساني:

(شُكراً لِساعي الحب).. هل تذكرين ذلك اليوم الذي وصفتني فيه بذلك الوصف يا ملك؟
لا أظنكِ تنسينه أبداً.. فأنا لم ولن أنساهُ أبداً.
كنا لا نزالُ في بداية خِطبتنا، اتصلتُ بكِ صباحاً كعادتي لأنعم ببعض كلماتك الرقيقة التي أسكن بمجرد سماعها تخرجُ منكِ.
تكلمنا قليلاً.. ثم فجأة قلتِ لي:
ـ حسام.. أنا جائعة، لم أطعم من أمس.

- ولم ذاك؟! هيا اذهبي لتأكلي حالا.
- لا شهية عندي. تعرف؟ أشتهي طعاماً ملوثاً، طعاماً من الشارع!
- ملوث! مجنونة أنتِ؟! ثم أضفتُ: لا بأس. لا تأكلي شيئاً.. بعد قليل سيأتيكِ الطعام الملوث.

أغلقنا معاً وأنتِ تحسبيني سأعاود النوم، ولكني قمتُ بإغلاق هاتفي حتى لا تتمكني من الاتصال بي، ثم فتحتهُ بعد ثلاث ساعات وأنا أقف على باب شقتكم أحمل معي طعاما من الشارع.. سندوتشات كبده وحواوشي وعصائر وكانزات وشيبسي و و.

اتصلتُ بكِ:

- افتحي.. أنا على الباب.

مذهولة قلتِ لي:

- لا تمزح.
- والله لا أمزح.. أنا على باب الشقة.
- حسام.. هل تحلف بالله كاذبا؟!
- ومن قال أني أكذب!

فجأة سمعتِ من خلال الهاتف نغمة الأسانسير الخاص بعمارتكم فشهقتِ قائلة:

- هذه نغمة أسانسير عمارتنا! أنت في العمارة فعلا!!!!
- لي ساعة أحاول إقناعك بهذا!
- وما الذي أتى بك؟!
- حبيبتي طلبت طعاما ملوثا فأحضرتهُ لها.
- لكني كنتُ أمزح!
- وأنا أحلام حبيبتي عندي أوامر حتى وإن كانت مزاحا.

ـ أتيتَ من مأموريتك في الاسكندرية خصيصاً لتحضر لي الطعام؟

ـ بكل تأكيد.

ـ أنت مجنون يا حسام.

ـ وما الجديد في ذلك؟!

ـ حسام.. اذهب بسرعة أرجوك، لو رآك أبي هنا من غير موعد لن يكون خيرا أبدا!

ـ ليكن ما يكون. لن أذهب حتى تخرجي لي وتأخذي طعامكِ الملوث.

ـ صدقاً لا أريد شيئا.

ـ وأنا لن أذهب.

تحت إلحاحي ارتديتِ ثيابكِ على عجل ثم خرجتِ لي تمشين في خجل وتوتر، لمعةٌ رأيتها في عينيك تشي بسعادة عظيمة أسكرتني يومها.

لم تصدقي أني سافرتُ ثلاث ساعات من الإسكندرية إلى القاهرة لا لشيء إلا لأجلب لكِ طعاما اشتهيته.

قلتِ لي:

ـ سيحضر أبي بعد قليل. اتصل به وأخبره أنك قادم لزيارتنا.

رفضتُ ذلك لأن مأموريتي في الإسكندرية لم تنتهِ بعد.

ـ هل سترجع بهذه السرعة؟! اجلس معنا ولو قليلا. سيرجع أبي من العمل بعد قليل.

ـ لقد أتيتُ لمهمة واحدة فقط وقد أنجزتها.. سأرجع.

فجأة أحضرتِ عشرين جنيها وقلت لي:

ـ خذ.

ـ ما هذا؟

ـ ثمن السندوتشات.

ضحكتُ وأنا أقول لكِ:

ـ هذا ثمن السندوتشات، فأين ثمن الشيبسي والعصائر والكانز وأجرة الطريق؟!

ضحكتِ ثم قلتِ:

ـ طلبتُ السندوتشات فقط. ثم كتبتِ لي على العشرين جنيها بخط يدك:

(شكراً لساعي الحب)، مع إمضاءٍ جميل وتاريخ اليوم. أخذتها منك بعد أن أعطيتك نظيرتها.

أخبرتني بعدها أن ذلك اليوم من أجمل أيام حياتك.. لكني لم أخبركِ أنه أجمل أيام حياتي على الإطلاق.

عشرون جنيها أخذتها منكِ لا تزال معي حتى الآن لا أعدلُ بها مال قارون. عليها لمسة منكِ، قبسٌ منكِ، بعضٌ منكِ، شيءٌ منكِ، شيءٌ منكِ أنتِ يا ملك. وأهم من ذلك كله أنني وبتنصيبٍ رسمي منكِ لي أصبحتُ (سَاعِي الحُب)، وأنعم به من منصب.

كانت أياماً رائعة يا ملك، ليتها دامت واستمرت، ولكن الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواه.

هل تعرفي أن أختكِ أسماء أيضاً فيها شيءٌ منكِ؟

إنها مُتقلبة المزاج مثلكِ، وتتعامل مع غطاء سريرهاِ مثلكِ، وتُضيفُ إلى اسمي كلمة أستاذ حين أستفزها تماماً كما كنتِ تفعلين.

ثم تذكرتُ ما كان مني مع السجائر ليلة زفافي على أسماء، فتابعتُ مناجاتي لها بيني وبين نفسي..

سامحيني يا ملك كوني رجعتُ للسجائر مع أني كنت قد وعدتكِ ألا أعود إليها مطلقا، لكنكِ من تلقاء نفسكِ كنتِ قد وعدتني أن تُقلعي عن القهوة دون أن أطلب ذلك منكِ، مُقابل أن أقلع أنا عن التدخين، ومع ذلك لم تُقلعي!

سيجارتي وقهوتي وأنتِ.

أنتِ أدمنتِ القهوة وأنا أدمنتُ السجائر.

كلما رأيتُ فنجان قهوة أو سمعتُ اسم القهوة، أو حتى مررت بنفجان قهوة وإن كان فارغاً تذكرتك يا ملك.

كثيراً جدا ما كنت أحسدها من فرط حبكِ لها.

قرأتُ يوماً أن القهوة لا تُحتسى إلا في وجود من نحب.. كتاب ممتع، أو عاشق مُخلص، أو ذكرى جميلة.

كم أودُّ أنْ لو سألتك مع من تشربين قهوتك في غيابي يا مَلك؟ لكن هيهات أن تجيبيني وقد تلفحتِ بالصمتِ المطبق!

هل أخبرتكِ يوماً أنكِ تشبهين القهوة؟

نعم يا ملك.. أنت ساحرة مثلها، فاتنة مثلها، ثائرة مثلها حين تكونين فوق نار الغيرة، وهادئة مثلها حين تستقر على طاولة الاطمئنان.

قاتلة مثلها حين تُفتقد، ومتغيرة مثلها حين تُهمل هناك في زاوية بعيدة دون أن يعيرها أحدهم شفاهه!

قرأتُ يوما أن كل العظماء كانوا أصدقاء أوفياء للقهوة.

الحقيقة هي أني لم أقرأ ذلك مطلقاً، ولكن ما دمتِ تحبين القهوة فقطعاً لا يحب القهوة إلا عظيم.

وإلا فأخبريني لماذا لم أستطع أنا أن أحبها رغم جميع محاولاتي؟

القهوة كالبيانو.. لا تُعطي سحرها إلا لمن يحسنُ الإصغاء إليها أولا، ثم يُحسنُ التغزل فيها ثانيا وثالثا وعاشرا، وكذلك كنتِ يا ملك.

سيجارتي..

كثيراً ما كنتِ تحذرينى السجائر.. لا تشربها يا حسام، إياك أن تقترب منها يا حسام، سأخبر أمك أنك تشرب السجائر يا حسام.

هل حقاً كنتِ تخافين عليَّ السجائر؟ وهل السجائر أكثر خطراً منكِ!

أقصى ما تفعلهُ السجائر هو أن تقتلني مرة، وأقل ما تفعلينه يا ملك هو أنكِ تقتليني في اليوم الواحد ألف مرة، فأيكما أكثر خطرا بالله عليكِ؟

السجائر تستنزف مالي، وأنت تستنزفين قلبي.

السجائر رائحتها القبيحة تؤذي، ورائحة ذكراكِ الجميلة تفتك بي فتكا مدمرا، تزلزلني، تسحقني سحقا يا ملك تسحقني.

كرِهتُ السجائر لأجلكِ، لأجلكِ أنت كرهتها.

ولم أدخن إلا لأجلك.

بينما أدمنتِ القهوة من قبلي، ومن قبلي كنتِ تشربينها.. ومع هذا فأنا لم أنهك عنها، ودائما كنتِ تنهيني!

في حضرة السجائر تكونين أكثر حضوراً، أكثر جمالية، أكثر فتنة وإثارة وإغراء، ولطالما سألت نفسي لماذا تكونين حاضرة بطغيان أكبر وأشرسَ حين تكون شفاهي مُتلبسة بتقبيل سيجارة!

هل لأنك الحمقاء شديدة الغيرة التي تأبى أن يُوضع في فمي أي شيء تلحقهُ تاء التأنيث في آخره ولو كان جماداً!

أم لأنكما تجتمعان عليَّ حين انكساري فتنخر هي في صحتي وتنخرين أنت في قلبي؟

أم لأنكِ تغارينَ منها وهي صاحبة الثغر الدقيق والبشرة البيضاء الآسرة لقلوب الرجال خاصة المراهقين منهم.

لا أدري، ولا يهمني أن أدري.

لكني أصبحتُ الآن صديقاً وفيا للقهوة، وأنهيتُ صداقتي مع السجائر، لم أشرب إلا بعض السجائر التي تُعدُّ على أصابع اليد الواحدة منذ وعدتك بالإقلاعِ عنها وحتى هذه اللحظة.

لقد نسيتُ أن أخبركِ أنني رأيتكِ في حلمي الليلة الماضية.

أصبحتِ تزورينى مؤخراً في منامي قليلاً على غير عادتكِ معي، منذ تزوجت من أسماء لم تزوريني عدا مرتين!

لا أدري هل ذلك سخط منكِ عليّ لأني تزوجتها، أم أنكِ تريدين أن تفسحي المجال لنا حتى يتعرف كل منا على الآخر.

مهما يكن من شيء فإني أرجو منكِ ألا تنقطعي عن زيارتي وقد أدمنتها، فلئن كان مصيرنا ألا نلتقي واقعاً مرةً أخرى فلا أقل من أن نلتقي مناماً.. أظن أن ذلك لن يضر العالم في شيء!

وقطعتُ مناجاتي الصامتة مع ملك ثم نظرت إلى أسماء والأولاد وأنا أقول لهم جميعاً:

ـ هيا جففوا دموعكم جميعاً، حان الوقت لأن نعود إلى البيت.

****

بعد زيارتنا لقبر ملك بثلاثة أيام تقريباً كانت أسماء تذاكر لعمار وياسمين كعادتها، وبعد انتهاء المذاكرة بدأتْ تلعب معهما، وجاء عمار إليَّ يدعوني لأن ألعب معهم، كانت تلك هي المرة الأولى التي يدعوني فيها عمار للعب معه هو وياسمين منذ تزوجتُ أسماء، أخبرته أنه لا رغبة عندي في ذلك، ولكنه ألحَّ عليَّ هو وياسمين في أن ألعب معهم، ونظرت أسماء إليَّ مُبتسمة كأنها تدعوني هي الأخرى إلى اللعب!

لبَّيتُ دعوتهم جميعاً، ثم انضممتُ إليهم وبدأتُ أفعل كما كانت تفعل أسماء، فنزلت على الأرض كأني حصان أو جمل، وحملتْ أسماء عمار من على الأرض لتضعه فوق

ظهري ثم أردفتْ خلفه ياسمين ومشيتُ بهما وكانا في غاية السعادة، إلى أن نادت ياسمين وهي فوق ظهري على أسماء فقالت لها:

ـ ألن تركبي معنا أنت أيضاً؟

خجلتُ من سؤال ياسمين، وأظن أسماء أيضاً أصابها بعض الخجل، فقالت لها:

ـ أعتقد أن ظهر والدكم لن يتسع لنا نحن الثلاثة.

فقالت ياسمين لعمار:

ـ هيا بنا ننزل يا عمار حتى تركب ماما أسماء أيضاً، لابد وأنها تريد أن تركب مثلنا.

ونزل عمار وياسمين حتى تركب أسماء!

وبينما غرقتُ في الخجل كانت أسماء غارقة في الضحك، كانت أول مرة أراها تضحك بهذا الشكل منذ تزوجنا، مما جرَّأني أنا أيضاً على الضحك.

ولما لم تتحرك من مكانها أقبل عليها عمار وياسمين يجرانها من يدها حتى تركب هي الأخرى مثلما ركبوا!

ظلت تقول لهما وهي غارقة في الضحك:

ـ لا أريد، أنا أخاف المرتفعات كثيرا.

قالوا لها:

ـ لا تخافي، سوف نمسك بك حتى لا تسقطي.

ثم نظرتْ إليَّ وقالت:

ـ ما رأيك يا حسام، هل أركب؟

قلتُ لها وأنا أستغرب سؤالها:

ـ إن شئتِ.

وتفاجأت بها تقول لي:

ـ نعم أشاء، بل أشاءُ جداً.

وفي لحظات كانت قد اعتلت ظهري، وبقيتُ في مكاني صامدًا كصخرة لا حراك لي، فقالت مخاطبة الأولاد:

ـ لماذا لا يمشي الحصان يا أولاد؟ هل أصابه شيء، أم أنه يعجز عن السير بي؟ هل أنا ثقيلة إلى هذه الدرجة!

ولبَّت ياسمين طلب أسماء غير المباشر فقالت لي:

ـ هيا يا أبي تحرك، هل ستظل واقفاً هكذا!

فمشيت على أربع كحصان وأسماء فوق ظهري، وكنت قتيل الدهشة بقدر ما كانت قتيلة الضحك، إلى أن نزلتْ من على ظهري، واتفقنا على استبدال الأدوار، وأصبحت أسماء تمثل دور الحصان، وحملت الأولاد على ظهرها بالتناوب.

بعد ذلك تم تغيير اللعبة، فعصبتْ لي أسماءُ عَيْنَي بعصابة حمراء اللون، ثم بدأتُ وأنا مغمض العينين أبحث عنهم، قواعد اللعبة تقتضي أن معصوب العينين إذا استطاع الإمساك بأحد فإن العصابة ترفع من على عينيه وتوضع على عيني من أمسك به.

ومن خلال أصوات ضحكاتهم كنت أتتبعهم، كانت أسماء تطرق على ظهري بيدها طرقات خفيفة، لم أستغرب ذلك، فهذا أيضاً من قواعد اللعبة، لكني استغربت حين ضربني عمَّار برفق في رأسي، لم أستغرب من ضربه لي، لكني استغربتُ كيف وصل عمار وهو دون الخمس سنوات إلى رأسي!

عرفتُ أن اليد التي لامست رأسي هي يد عمار من خلال ضحكته التي كان صوتها قريباً جدا من أذني، وأيضاً من خلال ملامسة يده الصغيرة لرأسي.

أغلب الظن أن أسماء رفعتهُ بكلتا يديها إلى أعلى لكي يفعلها.

بعد دقائق استطعت أن أمسك بأحدهم، ولم يكن غير أسماء، وبناء على القواعد فقد وضعتُ لها بنفسي تلك العصابة على عينيها.

وبينما تلاحقنا لتمسك أحدا منا كادت تسقط على الأرض، ثم صرختْ أثناء سقوطها، هرولت ناحيتها فطوقتها بكلتا يدي قبل أن تلامس الأرض، فوضعت رأسها على كتفي وسكنت من بعد فزع، ظلت على كتفي نحوا من نصف دقيقة استشعرتُ خلالها بعض الحرج، بل الكثير من الحرج، نظرتُ إليها عقب قضاء حاجتها من كتفي، فوجدتها قد أحنت رأسها إلى الأسفل في خجل كونها فعلت ما فعلت، فكان خجلها رائعا، وكم كانت بريئة كالأطفال حين أطرقت برأسها إلى الأسفل كأنها تعتذر عن خطأ لم تتعمده.

ومن جديد فقد خلعتْ عباءة الشباب، وارتدت فستان الطفولة، ثم راحتْ تلعبُ مع الأولاد كأن شيئاً لم يحدث، وكأنهما طفلين وهي الثالثة.

تركتهم يكملون اللعب وذهبتُ إلى غرفتي بحجة أني أريد النوم حتى أستيقظ للعمل مبكراً.

****

بعد منتصف الليل تقريباً خرجتُ من الغرفة قاصداً الخلاء، فوجدت أسماء جالسة على أريكة الصالة وحدها.

سألتها إن كان هناك أمر استدعى منها السهر، ولكنها أخبرتني أنه لا شيء غير الأرق.

ثم طلبت مني أن أجلس معها لنتحدث قليلا، إذ أننا كما قالت لا نتحدث إلا نادراً، ولبَّيت دعوتها للحديث، قالت لي:

ـ ما رأيك أن أجري معك حواراً صحفياً، أنا أسألك وأنت تجيب؟

زادت دهشتي من أسماء، لم تكن تحاول الاقتراب مني مطلقاً، وكلما حاولت أن أقترب منها كانت تصدني، فما الذي غيرها بهذا الشكل وفي هذا اليوم تحديدا!

قلت:

ـ لا أظنني أصلح لذلك، ومع هذا فلا مانع عندي ما دمت تودين ذلك.

فقالت:

ـ معك حق، كما أني لا أراها فكرة ممتعة، سنلعب لعبة الصراحة، سأسألك وأنت تجيب بمنتهى الصراحة، وبعدها يحين دورك وسأجيبك بصراحة أيضا.

ولم تعطني فرصة لأن أبدي موافقة أو رفضاً، فقالت على الفور:

ـ ما أكثر ما يعجبك في شخصي؟

أجبت دون تفكير:

ـ أنكِ تشبهين ملك كثيراً.

قالت:

ـ هذا دورك، يمكنك أن تسألني.

قلت:

ـ لا أسئلة عندي، يمكنكِ أن تسأليني أنتِ.

وتحمستْ للفكرة كثيراً، وكأنها كانت ترجو مني ذلك الجواب، وبدأت تسألني:

ـ لماذا تزوجتني؟

قلت:

ـ لأن ملك أوصتني أن أفعل قبل أن تموت، وأيضاً من أجل الأولاد.

ـ إذن فلم يجذبك في أسماء أي شيء؟

ـ بل جذبني فيها الكثير.

ـ مثل ماذا؟

ـ يكفي أنها أخت ملك.

قالت في ضيق استغربتُه:

ـ كل شيء مَلك مَلك، وأنا ألست زوجتك؟ ألا تفكر بي قط!

ثم قامتْ إلى غرفة الأطفال وتركتني جالساً وحدي رغم أنها هي من دعتني للحديث!

(الفصل الثامن)

بعد مرور أكثر من ثلاثة أشهر على زواجي يمكنني أن أعترفَ بأنني لستُ سعيدةً على الإطلاق بزواجي من حسام، بل أظنني من أشقى الناس بهذا الزواج، بالرغم من أنه يعاملني معاملة حسنة، بل ويجتهدُ قدر طاقتهِ في أن يجعلني سعيدة، فتارة يجلبُ لي هدية، وتارةً يعرضُ عليَّ أن نخرج للتنزه، وتارات أخرى يعطيني مالاً مع أني لستُ بحاجة إليه، فأنا لا أخرجُ من البيتِ إلا نادراً، كما أن حسام لا يجعل البيت في حاجةٍ إلى أي شيء، لكنني رغم ذلك كله لستُ سعيدة.

وأعترف أيضاً بأنني سعيدة جدا باهتمام حسام بي رغم عدم سعادتي بشكل عام، أنا امرأة أولا وأخيرا، ولا شيء عند المرأة يعدل الاهتمام، حتى وإن كان هذا الشيء هو الحب نفسه، لكن للأسف من النادر أن تحظى المرأة بالحب والاهتمام معا في آن واحد، يبدو أنها قسمة، إما أن تفوز بهذا أو بذاك.

ألا يوجد رجل واحد في هذه الدنيا يكسر هذه القاعدة غريبة الأطوار ويمنح الحب والاهتمام معا في آن واحد!

كما أني أعترفُ أيضاً بأنني تعلقتُ بعمَّار وياسمين بشكل كبير.

حين عرفتُ بمرض عمار المفاجئ من حسام في أول يوم من أيام زواجنا بكيتُ كثيرا، لم أكن أعرف أكان بكائي لمرض عمار أم لحماقتي التي ظهرت في همجيتي أثناء حديثي مع حسام، لقد انفعلتُ عليه بشكل كبير كونه خرج دون علمي، أفرغت فيه كامل ما كان بداخلي من غيظ، وما كان منه إلا أن انتظر حتى انتهيت من كلماتي

النابية والتي قذفته بها دون أي شعور بالإثم، ثم بمنتهى الهدوء أخبرني أنه اضطر للخروج من أجل عمار الذي مرض فجأة.

لو كنت مكان حسام لكنت رددت الإهانة بمثلها، والجهل بجهل أشد منه، لاسيما وأنه لم يُخطئ في شيء، ولكنه لم يفعل ذلك، بل كان قمة في الذوق واللباقة مما ضاعف شعوري بالذنب في نفسي.

في مساء ذلك اليوم ذهبت معه إلى المشفى وأخذت معي هدية لعمار كانت عبارة عن سيارة تمشي بآلة تحكم، رعبي على عمار في ذلك اليوم جعلني أستشعر أنه ابني على الحقيقة وليس ابنا لأختي.

لم يسمح لي سيف بالمبيت في المشفى مع عمار، رغم أني أصرررت على ذلك إصرارا بالغا، فرجعنا إلى البيت وشعوري بالذنب يكبر بداخلي تجاه حسام، كنت أشعر أن ذلك الموقف بقدر ما جعله يكبر في نظري بقدر ما جعلني أصغر في نظره، بل وفي نظر نفسي أيضاً.

مع مرور الأيام والأسابيع كنت أزداد تعلقا بالأولاد، لدرجة أني لا أظن أنه بإمكاني أن أتعلق بأبنائي بهذا الشكل لو قدَّر الله لي أن أنجب.

ولكن كيف أنجب والوضع بيني وبين حسام بهذا الشكل الذي بدأتُ أمقتهُ بشكل بشع!

لم أكن أظن أني قد أغارُ على حسام يوماً، ولكني بدأتُ أغارُ عليه، وللأسف الشديد فإنني لستُ أغارُ عليه من أحد بقدر ما أغارُ عليه من أختي ملك، بل لا أغارُ عليه من غيرها هي على وجه التحديد، وهذا الشعور يُضايقني كثيراً، أشعرُ أنها تشاركني في حسام، بينما لا أقبل أنا بهذه الشراكة، أريدُ حقي في حسام كاملاً غير منقوص، وإن

كنتُ لا أدري إن كان حسام مِلك لمَلك وأنا الدخيلة، أم أنه مِلكُ لي أنا منذ البداية ومَلك أختي لأنها تكبرني فقد سبقتني إليه ليس أكثر.

مهما يكن فقد توفيت ملك وكان ما كان، وهو الآن زوجي، أي أنَّه مِلكٌ لي أنا وحدي، فلماذا لا يتوقفُ عن ذكرها والتفكير فيها!

ولماذا يراعي مشاعري دوماً إلا في هذه النقطة، أم تراهُ حكمَ علي من خلال موقفي معهُ في أول زواجنا بأنني لا حاجة لي به كزوج!

لقد كنتُ كذلك فعلاً حين كان وليد ثابتا في قلبي كجبل لا يتزحزح، لا أزعم أن وليد خرج الآن من قلبي كلية، لكني أستطيع الجزم بأنه لم يعد متربعا على عرش قلبي كما كان.

الأهم من ذلك كله هو أني الآن بحاجة إلى حسام كزوج، فلماذا لا يُدرك هو ذلك من تلقاء نفسه، أم يجب عليَّ أنا أن أنبهه إلى ذلك.

قطعاً ذلك لن يكون أبداً، فالموت أهون علي من أن أنبهه إلى شيءٍ كهذا.

مع مرور الأيام كان يزداد تعلقي بحسام، لا أزال أذكر ذلك اليوم الذي كنتُ فيه في المطبخ أطهو الطعام، وفجأة وجدتُ النار قد اشتعلتْ في المطبخ كله من حيثُ لا أدري!

صرختُ صرخة عالية، ثم من شدة فزعي فقدتُ الوعي، عندما استعدت وعيي وجدتني في غرفة حسام وعلى سريره تحديدا، على الأرجح فقد حملني إلى غرفته،

كان يجلسُ بجواري وهو يحاول أن يعيد إلي وعيي، أول ما فتحت عيني ظللت أبكي، كنت لا أزال خائفة من ذلك المشهد المُرَوِّع، صرخت وأنا أقول له:

ـ المطبخ اشتعل يا حسام، هل تضرر أحد؟

أمسك يدي وأطبق عليها بكلتا يديه وهو يقول لي:

ـ لا تخافي، لم يحدث أي شيء، كان اشتعالاً يسيراً، المهم هل أنتِ بخير؟

توقفتُ عن البكاء وعن الحديث أيضاً، ظللت أتأمل وجهه، من عينيه عرفت مقدار خوفه علي، ومن إطباقه كلتا يديه على يدي كنت أستمد أماني، كنت أشعر أن شيئاً ما يربطني به أكبر من كوني مجرد زوجة له على الورق.

لا أستطيعُ أن أجزم بأني أحببت حسام، لكنني معجبة به كثيراً، وهذا مالا أستطيع إنكاره أو مغالطة نفسي فيه، وربما أحببته، لا أدري، يبدو أنني أحببتهُ فعلاً.

لقد كانَ حسام يحاول الاقتراب مني كثيراً، لكني بغريزة الأنثى كنت أعلم أنه يقترب مني كصديق أو كأخ، لذلك لم أكن أسمحُ له بأن يقترب مني بهذه الصفة، لقد كنت أظن أن الحاجز الذي قام بيني وبينه منذ أول ليلة لنا في زواجنا إنما هو من صُنعي، لكنني اكتشفتُ أنه من صنع حسام نفسه لا صنعي أنا، وربما كان من صنع كلينا معاً، لكني أصبحتُ أمقتُ ذلك الحاجز أكثر من مَقتي لأي شيء آخر، ولم أعد أرغب في بقائه بيننا، أريدُ أن أضع بعض المتفجرات في جذوره حتى أدمره كُليةً فلا يبقى له أي

أثر، وكم أعجب من تقلب حالي، فأنا التي كنتُ سعيدة جداً بهذا الوضع، ها أنا قد أصبحتُ أكبر ثائرة عليه!

في البداية لم أكن أسمح لحسام أن يقترب مني قط حفاظاً على تلك المسافة التي بيني وبينه، بل كنتُ أجلسُ معه طوال الأسبوع الأول من زفافنا وأنا بكامل حجابي، و أما الآن فأنا لم أعد أسمح له أن يقترب لأني أريدهُ أن يقترب مني زوجاً لا أخاً!

ولا أدري إلى الآن كيف بلغ حسام من نفسي كل هذا، لقد أصبحتُ أشتاقُ إليه كثيراً، وأنتظر عودتهُ من العمل كل يوم بصبر نافدٍ، رغم أنه عادةً يظل حبيس غرفته من حين عودته وحتى المساء.

وبقدر ما أزدادُ تعلقاً بحسام بقدر ما أشعر بأن وليد يخرجُ مني شيئاً فشيئاً، لكني لم أكن أريدُ إخراج وليد مني ليحتلني غيره حتى وإن كان غيره هذا هو حسام زوجي، وإنما أردت أن أصبح حرةً طَليقةً، أردت أن يكون قلبي مِلكٌ لي أنا دون أن يكون لأحدٍ عليه سلطان أو حكم.

كنت أجتهد قدر طاقتي في إخفاء ميلي إلى حسام وتعلقي به، لم أكن أريده أن يستشعر أني بدأت أحبه، أردته أن يحبني هو أولاً، وكم كنت أجلسُ أثناء ذهابه إلى العمل أتخيلهُ يعودُ سريعاً قبل موعد عودته فيأخذني في حضنه بلهفة مشتاق، ثم يظل يدور بي وهو يقول لي: أحبكِ يا أسماء، أحبك يا زوجتي.

لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، ولا أظنه يحدث أبدا ما دام حسام قد دفن ملك في قبرها ثم أقام لها تمثالاً في قلبه، تمثالها في قلبه كبير جداً، كبير لدرجة أنه لا يسع معها

غيرها، يستطيعُ حسام أن يسعني كأخت أو صديقة، لكن ما دام تمثالها قائما في نفسه فلن يسعني أبدا كحبيبة.

كان الشيء المُسيطر على عقلي هو تفكيري في أني بتعلقي بحسام أخون أختي ملك، فهي حتى وإن رضيتني زوجة لحسام من أجل أولادها فلن ترضاني أبداً حبيبة له، حتى وإن كان حبي له من طرفي أنا وحدي، لذلك أول ما عرض علي حسام أن نخرج فقد طلبتُ منه أن نزور قبر ملك، أردتُ أن أطلب منها أن تسامحني في ميلي إلى زوجها وإعجابي به، وربما حبي له أيضاً، ولم أغادر قبرها إلا وقد استشعرتُ أنها غير منزعجة من تعلقي بحسام، بل استشعرتُ رضاها بهذا كل الرضا فارتحت كثيرا بسبب هذا الشعور الذي تملكني؛ لذلك لم أكد أنصرفُ من عندها حتى كنتُ قد عزمتُ في نفسي أن أبدأ أنا بالاقتراب من حسام، وأن أتعامل معهُ على أنهُ زوجي حتى وإن لم يعترف هو بذلك.

وبعد عودتنا من زيارة ملك بأيام قليلة كنتُ ألعبُ مع عمار وياسمين بعد أن فرغت من المذاكرة لهما، وفجأة ودون تفكير طلبتُ من عمار أن يذهب لإحضار والده حتى يلعب معنا، أردت أن أخرجه من تلك الحالة التي ظلت مصاحبة له منذ عودتنا من زيارة ملك، ولعبَ حسام مع الأولاد وحملهم على ظهره، وحملني أنا أيضاً، رغم الخجل الذي كنتُ فيه إلا أنني كنت في غاية السعادة، كنتُ أضحك من أعماق قلبي، وضاعف سعادتي أني استشعرتُ أن حسام سعيد هو الآخر، فقد كان يضحك أثناء سيره بي وأنا فوق ظهره.

وحين كدتُ أسقط على الأرض كان ملاذاً لي، فمنعني من السقوط، ثم اتخذتُ من كتفيه وسادة لرأسي، ظللتُ هكذا للحظاتٍ أستمدُ من تلك الكتف بعض الطمأنينة.

في مساء ذلك اليوم طلبتُ منه أن نتحدث، وكلما سألتهُ سؤالاً حشرَ أختي ملك في جوابه عليه، مما جعلني أنفجر فيه غاضبة عن غير قصد، ثم قمت وتركته جالسا وحده، أستطيع أن أدرك كم كنت حمقاء حين قمت بذلك، وعلى الأرجحِ فقد بدوتُ في عينيه محضُ طفلة بلهاء من اللاشيء تثور وتنفعل، إذ لا أظن أن حسام بإمكانه أن يُدرك أن ذلك الموقف مني كان بدافع الغيرة، لاسيما وهو أكثر شخص يعرف مدى علاقتي بأختي ملك.

وفي أول جمعة بعد زيارتنا لملك خرجنا أنا وحسام والأولاد كما كان اتفاقنا، سألني حسام ونحن في الشارع إن كنتُ أودُّ أن أذهب إلى مكان ما بعينه، فقلتُ له:

- اختر لنا أنت.

وتذكرتُ على الفور أنه سيختار لنا مكاناً كان يذهب إليه مع ملك ولم أرغب في ذلك بالتأكيد، فقررت أن أقترح أنا مكانا نذهب إليه، فقلت له:

- نذهب إلى دريم بارك.

قال مُندهشا:

- دريم بارك؟

- نعم.. ما بها؟ سيستمتع الأولاد هناك كثيراً.

- لكن لا رغبة عندي في أن أذهب إليها.

قلتُ متعمدة استفزازه:

ـ معكَ حق، لقد نسيتُ أن تذكرة الفرد الواحد مائة جنيه، فضلاً عن الطعام والشراب وهذه تكاليف ليست لها ضرورة.

نظر إليّ مُحدقاً عينيه في وجهي، فأدركتُ أني نجحت في استفزازه، فأوقف تاكسي على الفور وقال له:

ـ دريم بارك يا أسطى.

وذهبنا إلى دريم بارك، وهناك لعبنا كثيراً وضحكنا كثيراً، وكانت سعادتي بهذه الرحلة مع حسام والأولاد لا توصف، بل مجرد وجودي مع حسام كان كفيلاً بسعادتي.

أعجبني كثيراً ذلك القطار الذي يصعد إلى الأعلى وكأنه يريد اختراق السماء ثم يهبط فجأة كأنه يريد أن ينزل إلى باطن الأرض، وصرخاتِ الرَّاكبين فيه أغرتني كثيراً بركوبه، رأيتُ فيه مغامرةً سريعةً ورائعة، فأخبرتُ حسام برغبتي في أن أركبه، ولم يمانع، فأخبرته أني أريده أن يركب معي لأني أخاف أن أركبه وحدي، رفض في البداية متعللاً بالأولاد، فقال له الرجل الذي يقف على اللعبة:

ـ لا تشغل نفسك بهم، سأعتني بهم لحين فراغكم من اللعبة.

وبعد إلحاح مني وافق مُضطراً، ركبتُ وركب حسام على المقعد المجاور لي، كنت أصرخ من الرعب، وكلما ازداد رعبي ضغطت على يده كأني أنشد الأمان في يده، ولم يكن يبدو عليه أي رعبٍ أو خوف، إذ لم يصدر منه أي صوت ولا حتى كلمة!

أول ما نزلنا من ذلك القطار المُخيف تعلقت في ذراعه كأني أريدُ أن أحتضن تلك الذراع القوية، كانت مشاعري جياشة جدا تجاهه ذلك اليوم، أظنني لولا خجلي من الناس ومن حسام أيضاً لربما حضنتُه وقلتُ لهُ بمنتهى الجرأة والصراحة: أحبك يا حسام، أحبك يا زوجي، أحبَّك أيها العنيد.

أعترف أنني أحببتُ فعلاً حسام، لم يكن ذلك بيدي، أي فتاة في الدنيا لو كانت مكاني ورأت من حسام ما رأيته منه لما وجدت خياراً في أن تهيم به.

كيف لا وهو شخصية لا يملك المرءُ حيالها إلا أن يذوب فيها عشقاً، كنتُ أكابرُ كثيراً في مسألة حبي له، لكني في قرارة نفسي كنتُ أعلم أني أكابر.

وكان يُضاعف ذلك الحب في نفسي ويجعله يغلي بداخلي كبركان عدم اكتراثه بي!

كنت أستشعرُ أنهُ لا يوازي اهتمامي به إلا تجاهله إياي، وكانت عندي رغبة جامحة في الاعتراف له بأني أحبه، ولكن كيف أخبره بحبي له دون أن أجرح كبريائي!

وكيف أفعل وأنا لا أدري ما يكون رد فعله على أمر كهذا لو أني تجرَّأتُ على البوحِ به.

ومن جديد رجعنا إلى الألعاب الإلكترونية فركبنا السيارة الكهربائية الصغيرة، كنت أنا وياسمين في سيارة، وكان هو وعمار في سيارة أخرى، وكنت أتعمد الاصطدام به حتى أشاكسه، وكان لا يُبالي بي، حتى صدمتهُ أكثر من ثلاث مرات، فكأنه تذكر أن له عندي ثأراً فظل هو الآخر يطارد سيارتي الصغيرة حتى أنهكها!

وبدأت بوادر الفرحة أخيراً تظهرُ على وجه حسام، فكان يبتسم ويضحك، ثم أجرينا مسابقة للركض بين عمار وياسمين، وفاز عمَّار عليها فطلبتُ من حسام أن يسابقني نظر إلي مدهوشاً.

قلت له:

ـ لابد وأن تسابقني حتى أحول هزيمة ياسمين إلى انتصار، فهي تنتمي إلى جنسي أولاً وأخيراً، وخسارتها أمام ابنك عمار تلحقني، بل وتلحق جميع نساء العالم.

وكعادتهِ نظر إليّ مدهوشاً مرةً أخرى، ما أروع نظرات حسام، كنتُ أقرأ في عينيه كم أنا مجنونة، وكان يحلو لي جنوني كثيراً، وكنتُ أعلم أنه سيحلو أكثر وأكثر حين يُقرر هو الآخر أن يُجَنَّ معي فنتشارك معاً أجمل ما في الحياة.

قلت له:

ـ لا تنظر إليَّ هكذا، هيا سابقني، إلا إن كنت تخاف أن أهزمك هزيمة نكراء.

فقال ساخراً:

ـ كما هزمتِنِي في لعبة السيارات؟

ـ مَيدان السباق بيننا يا أستاذ حسام.

****

استوقفتني كلمة أستاذ من أسماء كثيراً، لقد تعمدَّتُ استفزازها فأضافت إلي اسمي كلمة أستاذ، تماماً كما كانت تفعل ملك حين أستفزها!

لم تكن هذه هي أول مرة تُضيفُ أسماء فيها إلى اسمي كلمة أستاذ عندما أستفزها، ولكني على غير عادتي وقفتُ معها كثيراً هذه المرة ولا أدري لماذا!

قررتُ أن أتسابق معها، وتحرَّيت أقل مكان من حيث عدد الناس فيه، وإن كنت أعرف أن الكثيرين حتما سوف يرون ذلك السباق الغريب، لكني قررت التسابق من أجل أسماء التي تفعل من أجلي ومن أجل الأولاد كل ما بوسعها، وأيضاً كنتُ سعيداً بذلك السباق رغم استشعاري بعض الحرج.

قلت لها:

ـ سأعد من واحد إلى ثلاثة ثم نبدأ.

قالت:

ـ ومن يضمنُ لي أنك لن تسبقني بخطوة تنتصر بها عليَّ لأنك أنت القائم على العدّ؟ سأقوم أنا بالعَدّ.

وتركتها تقوم بذلك، بل وجعلتها تسبقني أيضا بخطوتين، ومع هذا فقد سبقتها رغم أني لم أكن أركض بأقصى سرعة عندي.

قلتُ ضاحكاً بعد سباقنا العجيب:

ـ لقد كانت نيتكِ أن تحولِي هزيمة ياسمين إلى انتصار لتثأري لها ولنفسك ولجميع نساء العالم أيضاً كما تقولين، ولكن أبى الله إلا أن تهزموا جميعاً مرتين على التوالي وفي يومٍ واحد.

قالت:

ـ ومن قال أنكَ هزمتني؟

ـ مَيدان السباق هو الذي قال، أم أنكِ تنكرين؟

ـ نعم أنكر، أنت لم تهزمني، لقد تنازلتُ عن الفوز بملء إرادتي شفقةً عليكَ من عيون الناس، ماذا يقولون لو رأوني وأنا المرأة أهزمك وأنت الرجل؟

ـ يالكِ من مُحتالة، لن أتسابق معكِ مرة أخرى.

ـ لا لا لا، أمزح معك ليس أكثر، أعترف أنني حاولت أن أسبقك، بل بذلتُ كامل طاقتي في ذلك، لكن يبقى الرجل رجلا والمرأة امرأة.

ـ ها قد اعترفتِ.

ـ وأي ضير في الاعتراف، هذه هي الدنيا، يوم لك ويوم عليك، ثم إن هزيمتي أمامك شرفٌ لي، فأنت زوجي على كل حال.

نظرتُ إليها في استغراب ولم أعقب على كلامها سوى بابتسامة حقيقية غير مُصطنعة، ثم رجعنا من جديد إلى ما كنا عليه، لعبنا تقريباً بمعظم الألعاب، كان يوماً مُمتعاً ومبهجا، ولعله كان أكثر يومٍ أضحكُ فيه من قلبي منذ توفيت ملك، شعرتُ

بداخلي بامتنان عظيم لأسماء، أردتُ أن أشكرها، ولم أجعل شكري لها حبيس قلبي، فقاطعتها أثناء حديثها مع ياسمين وقلت لها:

ـ شكراً لكِ يا أسماء، لم أضحك منذ عامين تقريباً مثلما ضحكتُ اليوم.

لم تُجبني بشيء، وإنما ابتسمت لي ابتسامة أشرق لها وجهها، حين ابتسمتْ تلك الابتسامة بدت لي جميلة جداً.

الحقيقة أن أسماء جميلة دوما، لكني لم أكترث إلى أنها جميلة بهذا الشكل إلا في ذلك اليوم، وأثناء تلك الابتسامة تحديداً، كنتُ أنظر إلى أسماء دوماً على أنها أختي الصغيرة، وحين تزوجتها كنت أنظر إليها على أنها موظفة، دورها في حياتي هو رعاية الأولاد، وتلك وظيفتها ولا أكثر من هذا.

لكني نظرتُ إليها أثناء تلك الابتسامة على أنها فتاة جميلة، بل زوجتي الجميلة.

لم أعرف ما مقصدُ أسماء من تلك الابتسامة الخلابة، ولم يُعطني عمار أي فرصة لأن أعمل فكري في مقصدها منها، فقد قطع علي استمتاعي بتأمل وجهها وتحليل ابتسامتها بطلبه دخول الحمام، أرادت أسماء أن تذهب به إلى دورة مياه السيدات لكني قلت لها:

ـ عمار أصبح رجلاً الآن؛ لذلك سأذهب أنا معه إلى دورة مياه الرجال.

ثم طلبتُ منها أن تبقى بصحبة ياسمين لحين عودتنا.

وحينما رجعتُ إليها كانت ياسمين سعيدةً جداً بتلك اللعبة التي أهداها لها شابٌّ كان يحملها، قلتُ له أثناء حمله لها أمازحهُ:

ـ إياكَ أن تكون مُعجباً بها، فحتماً لن أزوجها لك، ياسمين لن تتزوج إلا أميراً، واعذرني على صراحتي، فمنظرُكَ لا يوحي بأنك كذلك، ابتسم ذلك الشاب وكان اسمه أسامة، ثم أنزل ياسمين على الأرض وظلّ ممسكاً بيدها وهو يقول:

ـ إذن فقد أخطفها منك.

قلتُ له على الفور:

ـ وساعتها أقتلك، فلا تنتفع أنت بزواجك منها، ولا أنتفع أنا بأبوتي لها.

كانَ شابّاً ظريفاً، والأهم من ذلك أن ياسمين أحبته كثيراً، وأشفقتُ عليه كثيراً حين أخبرني قبل انصرافه أنه كانت له ابنة تشبهها تماماً وقد حرمهُ الله منها منذ قرابة الخمسة أشهر، وقد ذكَّرته ياسمين بها.

وتأثَّرت أسماء بحكايته تلك تأثراً كبيراً أجبرها على البكاء الذي كانت تحاول دفعه عنها لكنها عجزت عن ذلك، ثم طلبتْ منا أن نعود إلى البيت.

طلبتُ منها أن نبقى بعض الوقت إذ كنا نستمتع بوقتنا كثيراً لكنها صمَّمت على أن نذهب لأن صُداعا شديداً قد أصابها، فطاوعتها في العودة إلى المنزل.

****

لم يكن ذلك الذي سمَّى نفسهُ أسامة غير وليد، حين ذهب حسام مع عمار إلى دورة المياه وجدته فجأة يقف أمامي كأنّهُ هبطَ من السماء!

لم أعرف ماذا أفعل ولا كيف أتصرف، فقد صُدمتُ من رؤيته كثيراً، لكنهُ لم يكن مصدوماً على الإطلاق، وكأنه كان يتوقع رؤيتي في ذلك اليوم تحديداً وفي هذا المكان.

حاولتُ أن أغادر المكانَ فوراً حتى لا يعود حسام فيجده واقفاً معي وتحدث كارثة، ولكن تصلَّبتْ قدمايَ في الأرض فلم تتحركا، كما أنني كنتُ أعلمُ أن وليد سيتبعني حيثما ذهبتُ، وأيضاً لو رجع حسام فلم يجدني فعلى الأرجح كان سيقلقُ كثيراً، فقررتُ أن أبقى وأتجاهلهُ، لكنه لم يتجاهلني، قال لي:

ـ كيف حالكِ؟

لم أرد عليه، ولم تكن عندي أي رغبة في الرد، كنت مرعوبة من قدوم حسام كأني زنديقة أو مُلحدة، وحسام هو ملك الموت الذي متى ما حضر سينتزع روحي ليذهبَ بها إلى الجحيم.

قال وليد:

ـ اشتقتكِ، ألم تشتاقي إليَّ؟

قلت بعصبية:

ـ ما الذي أتى بك إلى هنا؟

ـ جئت لأجلك.

ـ وما أدراك أني هنا!

ـ لا يهم.

ـ بل مهم جدا، أجبني كيف عرفت أني هنا؟

ـ أعطيتُ رقم هاتفي لبواب عمارتكم مع مائة جنيه وقلتُ له أني صديق حسام، فمتى خرج هو وأسرته مجتمعين فاتصل بي وأخبرني لأني أريدُ أن أصنع لهم مُفاجأة، ومتى ما فعلت ذلك أعطيتك مائة أخرى.

وعرفتُ صدقه في هذا، فقد سأل البواب حسام حين نزلنا من العمارة عن مكان ذهابنا، فأجابه حسام بتلقائية.

قلت له متوسلة وأنا أكاد أبكي:

ـ من فضلك اذهب من هنا، لو أتى حسام فلن يكون خيراً.

ـ منذ ساعات وأنا أبحث عنكِ بين الناس، أريدُ أن أتكلم معكِ.

ـ هل تريد أن تورطني في مصيبة؟ اذهب أرجوك.

ـ لن أذهب حتى تخبريني متى نلتقي.

ـ لا أستطيع أن أفعل ذلك، أنا متزوجة ألا تفهم؟ ماذا تريد مني!

ـ أريد أن أتكلم معكِ للضرورة، ولو لآخر مرة.

ـ وماذا ستفعلُ إن رفضت؟

ـ لن أفعل شيئاً، على الأرجح فحسام هو الذي سيفعل حين أعرض عليه صورنا معاً، ورسائلكِ إليَّ، وكما تعلمين فأنا أحتفظ بكل شيء، خاصة لو له علاقة بكِ أنت.

وفجأة رأيتُ حسام يقدم من بعيد وهو يحمل عمار على كتفيه فكدتُ أموت رعباً، قلت له:

ـ لقد أوقعتني في ورطة كبيرة، على الأرجح قد رآك حسام.

ـ لا تقلقي، سأتصرف. المهم هو أني سأقابلك يوم الخميس القادم في الرابعة عصرا في نفس الحديقة التي كنا نلتقي بها.

ولم أجبه بشيء، كنت كالمخبوطة على رأسها من هول الموقف، ولكنه لم يكن كذلك، كان كل شيء عنده مجهزا بدقة، أخرج لعبة على شكل عروس صغيرة من حقيبة كانت معه، ثم حمل ياسمين بعد أن أعطاها لها، وبدأ يداعبها حتى أقبل حسام، فتعامل حسام معه بتلقائية بقدر ما كان وليد يتعامل معه بخبث.

بكيتُ لأن وليد خدع حسام على مرأى ومسمع مني، بل وبعون مني أيضاً!

ثم طلبتُ على الفور من حسام أن نرجع إلى البيت، كنتُ طوال الطريق صامتة، وبسهولة كان يمكنني أن أدرك دهشة حسام من حالي، إذ كنتُ كجهاز تلفازٍ لها صخبٌ وضجيجٌ وفجأة انقطعت عنهُ الكهرباء!

أول ما برز لي وليد في الحديقة قطع عني الماء والكهرباء كبيت رُمي بقذيفة فأصبحَ أثراً من بعد عين!

هكذا كان حالي، حاولت أن أخفي ذلك الذي ظهر عليَّ حتى لا يتفطن إليه حسام، لكني أخفقت في ذلك تماما، وأثناء عبورنا أحد الطرقات المزدحمة بالسيارات كنت أحمل ياسمين وكانت نائمة، وكان عمار يسير مع حسام، وفجأة إذ بحسام يعود سريعاً إلى

الخلف حتى وقف بقربي وأنا أحمل ياسمين، فأمسك بيدي وضغط عليها بقوة آلمتني كثيراً أثناء عبورنا الطريق!

وأخيراً صعدنا إلى الشقة.

****

كنتُ أستغربُ كثيراً من التحول المفاجئ لحال أسماء، كانت ملك أيضاً متقلبة المزاج، لكن ليس بهذا الشكل!

في طريق عودتنا إلى البيتِ وأثناء عبورنا الطريق تذكرتُ فجأة تلك الحادثة التي كانت سبب رحيل ملك، ففزعت، ثم هرولت إلى أسماء فقبضت على يدها، كنت أخشى أن أفقدها هي الأخرى كما فقدتُ ملك من قبل في ليلة مُشابهة لهذه، لم أعد أستطيع أن أتحمل الفراق مرة أخرى، أمسكت يدها وقد قررتُ أن نبقى معاً أو أن نذهب كلنا معاً، لن يسقط منا أحد مرة أخرى، ظل قلبي يرتجف، وجسدي ينتفض كعصفور يتململ من شدة البرد إلى عبرنا الطريق بسلام.

ولم تزل دهشتي من أسماء قائمة، لكني كنت مُنصرفاً عنها بمحاولة تذكر المرة التي رأيتُ فيها أسامة الذي قابلناه في دريم بارك، فأنا مُتأكد من أنني رأيته قبل ذلك اليوم، ذاكرتي في تذكر وجوه الأشخاص قوية جداً، ومن الصعب أن أنسى وجهاً رأيتهُ، ومع ذلك فلم أفلح في تذكره قط!

دخلنا الشقة فحملتْ أسماء الأولاد إلى غرفتهم، ثم تناولنا العشاء معا، وكان كلامها أقل من المعتاد، كنتُ أتوقع منها أن تتكلم كثيراً بعد تلك الرحلة الممتعة، لكن خاب توقعي، وخابَ معهُ رجائي في قضاء ليلة مُبهجة بين الضحك والثرثرة.

حاولتُ أن أستفزها على الكلام فقلت لها:

ـ ما بكِ يا أسماء، هل هناك ما يضايقك؟

ـ لا شيء يا حسام، لا تشغل نفسك.

ـ ما زالت رأسك تؤلمك؟

ـ هي الآن أحسن، الحمد لله.

ولم تزد على ذلك شيئاً، ولم أرغب في أن أضغط عليها، ظللنا صامتَينِ إلى أن استأذنتني في أن تذهب كي تنام مع الأولاد، وقمتُ أنا الآخر كي أنام في غرفتي مع أني كنتُ أود أن أتحدث معها، كانت عندي رغبة كبيرة في أن نظل معا نتكلم ونروي تفاصيل يومنا هذا، ولكنها أطفأت تلك الرغبة بذهابها إلى النوم، وبعد قرابة الساعتين إذ بها تطرق عليّ الباب ثم استأذنتْ في الدخول فأذنت لها من دون أن أغادر سريري.

قالت:

ـ أنا خائفة جداً يا حسام، ولن أستطيع النوم وأنا كذلك.

لم أعرف ما أقول لها فصمتُّ مبهوتاً للحظات، فإذ بها تتقدم نحوي، ومن غير أن تضيف شيئاً كانت قد رقدت بجواري على السرير!

وما هي إلا دقائق حتى ذهبتْ في نوم عميق.

حينما استيقظتُ في الصباح كانت لا تزال نائمة، وكان موعدُ ذهاب الأولاد إلى الروضة قد حان، وهي التي تساعدهم عادةً في ارتداء ثيابهم وتجهز لهم الفطور، أشفقت عليها من أن أقوم بإيقاظها، كانت على الأرجح متعبة جدا من خروجة الأمس، فأعددت الإفطار لنفسي وللأولاد، ثم ساعدتهم في ارتداء ملابسهم ونزلتُ معهم حتى أطمئن على ركوبهم الحافلة الخاصة بالروضة، ثم ذهبتُ إلى العمل.

****

على العشاء أكلتُ لُقيماتٍ يسيرة ثم استأذنت حسام في أن أذهب، كنت في حاجة كبيرة إلى النوم، فقد كان اليوم مرهقاً بشكل كبير، فضلاً عن الإرهاق الذهني الذي غزا رأسي.

لولا ظهور وليد لكنت أستطيع الجزم بأن هذا اليوم من أسعد أيام حياتي، لكنه ظهر فأحال حلاوته في عيني إلى مرارة في حلقي.

رقدتُ على السرير بجوار ياسمين، ولم يعرف النوم إلى عيني طريقاً، رغم حاجتي الماسة إليه، ثم شعرتُ بخوفٍ كبير لا أعرفُ له سبباً، فأصابتني نوبة بكاء، وبعد مُجاهدة طويلة استطعتُ أن أتوقف عن البكاء، ولكني لم أستطع أن أطرد الخوف عني، وقررت أن أذهب إلى ذلك الذي أصبح أكبر مصدر للأمان في حياتي، لم أكترث لما قد يظنهُ بي، ولا إلى الذي قد يقوله عني في نفسه، كان الذي يشغلني أكبر من أن يسمح لي بالاسترسال مع مثل هذه الأشياء.

وما هو إلا أن وضعت رأسي بجواره فوق الوسادة حتى وجدتني قد غرقتُ في نوم عميق.

استيقظتُ في العاشرة صباحاً فلم أجد في الشقة أي أحد باستثنائي، بادرت بالاتصال بحسام فأخبرني أن الأولاد في الروضة وهو ذهب إلى العمل، اعتذرتُ منه عن تأخري في النوم، وسألتهُ لماذا لم يقم بإيقاظي من أجل الأولاد، فقال لي:

ـ تركتكِ لأثبت لكِ أن سريري أهنأ في النوم من سرير عمار وياسمين، ربما أستطيعُ أن أقنعكِ بتلك الطريقة في ضرورة أن تطالبي بحقك في ذلك السرير الرائع.

ولم أرد على مزحته تلك بشيء، وإن كنتُ في نفسي قد فرحتُ برده هذا، فذلك يعني أنه منشرح الصدر، ولم أفكر كثيراً في تحليل ذلك الرد منه وما يحتمله، وإن كنتُ لا أحتاج إلى كثير ذكاء لأدرك ما يرمي إليه من خلاله.

أغلقتُ معه ثم جلستُ في الصالة بلا حراك، لا أفعل أي شيء عدا الهرولة شرقا وغربا خلف أفكاري المتناثرة في كل مكان عساي أفلح في جمعها.. وما أفلحتُ في شيء.

كنتُ كريشةٍ في مهبّ الريح، لا قدرة لي على شيء، لم أكن أدري هل سألتقي بوليد كما طلب مني، أم أغض الطرف عن طلبه هذا.

كلما فكرتُ في حسام وفي أن مقابلتي لوليد خيانة كبيرة له أجدني أرفض مجرد التفكير في أن ألتقي به.

فإن فكَّرت في أنه من الممكن أن يتعرض لي مرة أخرى في وجود حسام تملكني الخوف، وأجدني أرغب في مقابلته في أقرب وقت حتى أنهاهُ أن يعود لمثل ذلك الذي فعله، لا أقبل أبداً أن أكون على علاقة بأحدٍ ولو كان حبيبي السابق وأنا على عصمة رجل آخر، ورغم ما بيني وبين حسام من حواجز فإنه أبدا لا يقبل هو الآخر بأن تكون زوجته على علاقة بأي أحد، ولا لوم عليه في ذلك.

وأخذتُ أسترجعُ تفاصيل لقائي بوليد بالأمس، لقد كانت رؤيتي له مفاجأة كبيرة لي، لكنها لم تكن مفاجأة سارة على الإطلاق، حين قابلته قبل زواجي كنت سعيدة بلقائي به ورؤيتي له رغم كل شيء، لكنني لم أكن كذلك بالأمس، لم يكن عندي أي لهفة عليه، ولا أي شوق إليه، هل ذلك يعني أنني تعافيتُ من حب وليد تماماً؟

أظن أنني ما أحببتُهُ ابتداء حتى أتعافى من حبه، وإلا فلماذا انطفأ شوقي إليه، ولماذا لم أعد أفكر فيه، بل لماذا لم أعطه تلك الفرصة الأخيرة لو كنت أحبه!

أم أنني كنت أحبه فلما ظهر حسام في حياتي انصرف كل حبي لوليد إلى حسام؟

تُرى هل من الممكن أن يُحب المرءُ مرتين بنفس القوة، ونفس الاندفاع؟

هل من الممكن أن يكون الحب الثاني أقوى من الحب الأول وأعمق؟

هل من الممكن أن يشتعل الحب في قلب الإنسان للمرة الثانية اشتعالاً قوياً يحرقُ كل حب سبقه؟

لا أدري، لكني على يقين من أنه لو رجع بي الزمان إلى الوراء وخيروني بين وليد وحسام لما ترددت في اختيار حسام رغم زواجنا الشكلي.

لم يكن وليد سيئاً، لكنّ مقارنته بحسام مقارنة غير عادلة بالمرة، المقارنة بينهما كالمقارنة بين العصا والسيف، أو القطة والنمر.

وليد في خفة طفل، وطيش مُراهق، وغرور صغير، أما حسام فهو في ثِقل رجل، وحكمة كهل، وتواضع كبير.

حسام قلبهُ كبير، يمكنهُ أن يسعني ويتحمل طيشي وعنادي وغضبي مع أنه لا يُكنُّ لي بداخله حباً، أما وليد فقلبه أضيق من بياض حرف الميم.

كما أن حسام طُبع على الوفاء، وذلك فقط يكفيني منه حتى أجله وأحترمه، و وليد ثبتت لي خيانته بالدليل القاطع، بل باعترافه هو شخصياً، وذلك وحده كفيل بازدرائي له وإسقاطه من نظري.

وظللتُ أروح وأغدو مع أفكاري هذه دون أن أصل لشيء، أو أقطع برأي، إلى أن فكّرتُ في أن أستبدل اللقاء باتصالي به عساه أن يعود إلى رشده وينساني أو على الأقل يتناساني.

ينساني أو يتناساني هذا شأنه، لكن الذي يهمني هو أن يتوقف عن مطاردتي أينما ذهبتُ ويتركني وشأني.

ولكني قررتُ أن أقوم بتأجيل ذلك الاتصال حتى أقتنع بأنه القرار الصائب اقتناعاً كاملاً، فنحن لا نزال في يوم السبت، واللقاء الذي حدده وليد في يوم الخميس.

وفي لمح البصر كنتُ قد قمتُ من مكاني وارتديتُ ثياب الخروج ثم نزلت إلى بواب العمارة فقلت له:

ـ ما قمت بفعله مع ذلك الذي أعطاك المائة جنيه ووعدك بمثلها لن أخبر عنهُ الأستاذ حسام؛ لأنه لو علم فلن يكون لك عملٌ هنا بعد اليوم، لكني أقسم لك بالله أن ذلك لو تكرر منك مرة أخرى فسوف أخبره، وسأخبر سكَّان العمارة جميعاً أنك تتجسس عليهم لصالح أي أحدٍ يدفعُ لك.

****

أثناء عودتي من العمل إلى البيت تذكرتُ أين رأيتُ ذلك الشاب الذي كان يحمل ياسمين في دريم بارك ويقفُ مع أسماء، إنه نفس الشخص الذي رسمته أسماء على لوحة تحتفظ بها في غرفة الأولاد، ملامحه تشبهه كثيراً، بل تكاد تتطابق معه إن لم تخني ذاكرتي!

تعثرتُ بهذه اللوحة عن غير قصد من قرابة الشهرين وتأملتها جيداً، كانت مرسومة بحرفية كبيرة جداً، وحينما سألتُ أسماء عن صاحب الصورة ارتبكتْ، ثم أخبرتني أنها لوحة نسجها الخيال في ساعة صفاء.

لكن ربما كنتُ مخطئاً، بل أنا على الأرجح مخطِئ، وحتى أستوثق من براءتها من ظنوني فقد كنت أتوسل إلى عجلات السيارة أن تسرع حتى أصل إلى البيت، ودخلت الشقة هادئاً وكأن بركاناً لا يغلي بداخلي؛ وذلك كله من أجل ألا ترتاب في شيء، إذ لم أرد منها أن تلحظ أني أبحث عن تلك اللوحة فتخفيها عني، وربما تخلصت منها بشكل نهائي.

طلبتُ منها أن تحضّر لي الغداء حتى أشغلها عني، لكنها صدمتني بإخبارها لي أن كل شيء جاهز!

أخبرتها على الفور أني أريد أن أغتسل أولا حتى تذهب إلى غرفتي لتجهيز بعض الثياب التي سأرتديها، ثم خِفية تسللت إلى غرفة الأولاد حيث أغراضها، وبعد بحث يسير وجدتُ الصورة المرسومة، وغدا ظني يقينا، الصورة لنفس الشخص فعلاً!

إذن فلم يكن صاحب اللوحة من نسج الخيال، وإنما من نسج الواقع، ولم يكن شيئاً من نسج الخيال غير كذبها!

ولم يكن وقوفه معها بالأمس محض صدفة، وإنما كان اتفاقاً، إذ هي من حدَّدت المكان.

وبكاؤها هناك لم يكن نتيجة تأثرها بقصته المزعومة المختلقة عن ابنته الراحلة، وإنما من شوقها إليه، وبلا ريبٍ فهو لم يكن يعني بحديثه كله ابنته تلك، لكنه يعني أسماء، يتحدث بالألغاز التي تفهمها هي من دوني، وما أنا في نظرهما إلا محضُ أبلهٍ يقفُ بينهما كأصَمٍّ في زفاف!

وقطعاً ذلك الشخص له علاقة بحديثها في ليلة زفافنا عن عدم استعدادها النفسي لأن تكون زوجة.

وبالضرورة فإنها من أجله كانت تصدني كلما حاولت الاقتراب منها، مع كوني كنت أقترب منها كأخ ليس إلا.

أذهلتني كل تلك الاكتشافات، بل زلزلتني، إلى هذا الحد تراني أسماء مغفلاً!

وهل هذا هو ما أستحقه منها!

إن لم تكن ترغب في الزواج مني فما الذي أرغمها على ذلك، وإن كانت تحبه هو فلماذا قبِلت بأن تتزوجني!

ثم إنني أذكر جيداً أنني طلبت الجلوس معها وحدنا قبل خطبتنا لأسألها إن كان أحد قد أرغمها على الزاوج مني، وأكدت لي أن موافقتها عن محض اختيار منها، وسألتها إن كان أحد في حياتها فأكدت لي أنْ لا.

وقبل أن تنتبه أسماء إلى غيابي كنت قد خرجتُ من غرفة الأولاد، أخبرتني أن الثياب جاهزة فقلت لها:

ـ غيرت رأيي، لن أغتسل.

ـ إذن هل أضع لكَ الطعام؟

ـ لا شهية عندي.

ـ ما بك يا حسام؟ هل هناك ما يزعجك؟

ـ إطلاقاً، بعض الإرهاق في العمل ليس أكثر، سوف أنام قليلاً، وفي المساء أغتسل وأتناول طعامي.

دخلتُ غرفتي وعقلي سينفجر من التفكير، لم أكن أعرف ما الذي يجب عليَّ فعله، هل أواجهها باكتشافي لكذبها؟ لكن لا دليل معي، وببساطة يمكنها أن تنكر.

لكن الصورة المرسومة موجودة، وهل هناك دليل أكبر من هذا!

وفي نفسي قلت: يمكنها أن تنكر معرفتها بذلك الشخص الذي كان يقف معها بالأمس، وتنفي أي صلة بينه وبين الصورة المرسومة، وهنا لن أستطيع فعل شيء، فأنا لا أعرف ذلك الشخص، لا أعرف عنه أكثر من أن اسمه أسامة، هذا لو كان اسمه أسامة فعلا!

وقطعاً لن تعطيني أسماء أي معلومة عنه حتى أدينها بها.

وأخيراً وبعد طول تفكير فقد اعتبرتها متهمة عندي حتى تثبت براءتها، وكم أتمنى أن تكون بريئة مع علمي بأن كل الأدلة تقف ضدها.

لكن ربَّما كان زميلاً لها من أيام دراستها ولا أكثر من ذلك، ثم التقتْ بهِ قدراً في دريم بارك، ولا يلزم من كونها رسمتْ له صورة أن يكون بينهما أي شيء، وربما كان ذلك منها كنوع تحدٍّ لنفسها أو لأحد ما، ففي دراستها يرسمون أي شيء وكل شيء حتى النساء يرسمونهن عرايا أحياناً!

وربَّما كان التشابه الكبير بين الصورة وذلك الشخص محضُ صدفةٍ ليس أكثر، وحينها تُصبح كل اكتشافاتي التي وصلتُ إليها لا صحة لها، ولا تمت إلى الواقع بصلة.

على أي حال لن أتعجَّل الحكم حتى لا أندم، وإنَّ غداً لناظره قريب كما يقولون.

(الفصل التاسع)

فكَّرتُ في أن أخبرَ حُسام بكل شيء، إذ الضغط الذي عليَّ إنما هو بسبب خوفي من أن يعرف ذلك الذي أجتهد في إخفائه عنه، فإذا أخبرتهُ بكل شيء فقد يسقط عني ذلك الضغط، كما أنني سأُضيعُ على وليد فرصة تهديدي بصوري ورسائلي.

ولكني خشيتُ ردّ فعله، فعلى الأرجح سيظن بي الظنون، وإذا تملَّك الشك من القلب أَحَال الحياة علقماً.

لذلك فقد طرحتُ فكرة إخباره، بل أجهضتها في مهدها، ثم فكرت في أن أستشير مَي، وربما أطلب منها هي أن تلتقي بوليد بدلاً عني، ولكني خشيتُ أن تُخبر خطيبها أحمد بشيء، وبالتالي يُخبر حسام ويكونُ ما أحاذره.

مَي صديقتي الوحيدة تقريباً، وأثق فيها كل الثقة، لكن خبرتي المتواضعة مع الفتيات أثبتت لي أن الفتاة لا تؤتمن على كل شيء حتى وإن كانت أمينة، وإنما تؤتمن فقط على الأشياء التي لا يكون في إفشائها خطرا كبيرا، لأنها حتما ستفشيها عاجلاً أو آجلاً؛ لذلك فقد طرحتُ هذه الفكرة أيضاً، لكن الوقت لم يكن في صالحي على الإطلاق، فنحن الآن في صباح الأربعاء، أي أن موعد لقائي بوليد هو عصر الغد، ومن ثَمَّ فلابد وأن أحسم قراري في أسرع وقت ممكن.

كنتُ قد طرحتُ أيضا فكرة أن أتصلَ بوليد من أجل إلغاء تلك المقابلة، كنت أعلم أن اتصالي به لن يُجدي شيئا غير أنه سيكون قد حصل وبسهولة كبيرة على رقم هاتفي، عندما حصل عليه آخر مرة اضطررت إلى تغييره، فهل أتحفه به لأضطر من جديد إلى تغييره!

ثم إنني حتى لو اتصلت به وتوسلتُ إليه فإنه سيصر أيضا على اللقاء، أعرف جيداً كم هو عنيد.

ظللت أتخبط مع أفكاري يمنة ويسرةً إلى أن حسمت رأيي، وقررت أن ألتقي بوليد لأعرف منه ما هي هذه الضرورة التي استدعت ظهوره في حياتي من جديد، ثم أتوسَّل إليه أن يخرج من حياتي بشكل نهائي، إذ أنني في غنىً عن أي عاصفة تأتيني من ناحيته.

ولم يتبقَ أمامي أي شيء عدا التفكير في كيفية إقناع حسام بضرورة خروجي في الغد، لم يكن خروجي صعباً، لكن الصعب هو أن يتركني أخرج وحدي.

ولم تكن لي حجَّة في الخروج غدا عدا زيارة أمي، فأنا لم أزرها منذ فترة، لكن حسام لا يتركني أذهب إليها وحدي، وإنما دوما يصحبني، لأننا لا نذهب إليها عادة إلا ونأخذ معنا الأولاد.

للحظات فكرت في أن أتجاهل وليد كُلية وليفعل ما يريد فعله، وكنت أعلم أنه لن يفكر في أن يؤذيني أبداً، فأنا على يقين من حبه لي رغم كل شيء.

لكني لم أستشعر أنها فكرة صائبة، أعرف وليد عنيداً، كما أنه ذكي، نعم لن يؤذيني وأنا على يقين من ذلك، لكن يمكنه وببساطة أن يحتال ويقابلني هنا في البيت إذا ما سخَّر ذكاءه في خدمة عناده، وكما احتال على حسام في دريم بارك وكلمني على مرأى ومسمع منه هناك يمكنه أن يحتال عليه مرة أخرى ويكلمني هنا في البيت على مرأى ومسمع منه أيضا وذلك أشنع، وكما كانت حجته حينها أن ياسمين ذكَّرته بابنته

الراحلة فربما كانت حجته هذه المرة هو اشتياقه لها وهي التي تذكره بابنته التي لا وجود لها!

وربما نفذ تهديده فعلاً في ساعة تهور، وساعتها فلن أستغرب من حسام أي شيء، خاصة وقد أخفيتُ عنه أني كنت على علاقة بأحد قبله حين سألني عن ذلك.

وفجأة هبطت على رأسي فكرة من السماء، وهي أن أتصل بوليد لأغير معه الموعد، وبدلاً من أن يكون الموعد غداً في الرابعة عصراً نجعله في العاشرة صباحا، وهذا هو أرجح رأي؛ إذ حسام سيكون في عمله في هذا التوقيت، وعادة لا يرجع منه قبل الثالثة عصراً، وأيضاً فإنني سأعود إلى البيت قبل أن يعود عمار وياسمين من الروضة، وبالتالي فلن يعرف حسام بخروجي من البيت، ولن أضطر إلى الكذب عليه.

وأما عن رقم هاتفي فلا بأس في تغييره مرة أخرى، فرقمي لا يوجد إلا مع خاصة معارفي، ويمكنني إخبارهم برقم هاتفي الجديد دونما مشقة.

انتظرتُ ساعةً حتى تشبَّعتُ تلك الفكرة تماماً ورأيتُ أنه لا أفضل منها في كل الخيارات التي أمامي إن كان ثمة خيارات، ثم قمتُ بالاتصال بوليد، وكان كل همِّي هو أن يكون رقم هاتفه كما هو دون أن يكون قد قام بتغييره.

وما هي إلا لحظات قليلة إلا وكان قد أجاب على الهاتف، لم يُمهله حتى لكي يكمل رنينه، وكأنه كان ينتظر اتصالي الآن تحديدا.

صمتٌّ ولم أنطق ولو بنصف كلمة، فبادرني بقوله:

ـ كيف حالكِ يا أسماء؟ اشتقتكِ كثيراً.

تملكني الكثير من الدهشة والعجب، كيف عرف أنني أنا التي معه على الهاتف دون غيري من دون أن أنطق بكلمة!

هل معه رقم هاتفي، أم أن شعوره بي هو الذي هداه إلى معرفتي دون أن أتكلم!

تابعت صمتي فتابع كلامه قائلاً:

ـ كنتُ أعلمُ أنكِ ستتصلين بي.

قلت:

ـ ما شاء الله عليك، تعرفُ كل شيء.

ـ اشتقتكِ كثيراً، رغم أني رأيتكِ منذ أقل من أسبوع إلا أنني أستشعر أنني لم أركِ منذ أعوام.

ـ بالله عليك ألم تفكر في حالي كيف يكون إذا ما فطن حسام إلى علاقتك بي، وأنك كنت تكذب عليه؟

ـ لا أظنه بذلك الذكاء.

ـ هل تظن أنك أنت وحدك الذكي؟ حسام أذكى مما تتصور، ليتكَ كنت مثله.

ـ هكذا سأغارُ منه.

ـ تغارُ أو لا تغار فهذا شأنك، يبقى حسام زوجي أولاً وأخيراً، ومن فضلك لا تتكلم عنه هكذا وإلا سأضطر إلى إنهاء الحديث في الحال.

ـ حسناً، لن أتكلم عنه مُطلقا.

ـ ذلك أفضل، كفاه خيانتي له، مسكين حسام، ما كان يستحق ذلك مني، سامح اللهُ من أجبرني على ذلك.

ـ لكنكِ تكرهين الخيانة كثيراً يا أسماء، أم أنكِ نسيتِ ذلك؟

ـ لم أنسَ شيئاً، ولذلك أكرهُ نفسي الآن، وأكرهك أنت أيضاً لأني بفضلكَ أصبحتُ خائنة.

ـ أنا في نظركِ خائن، وأنتِ في نظر نفسكِ خائنة، إذن فقد تشابهنا.

ـ لا يمكن أن نتشابه يا وليد، نحن مختلفين جداً، وذلك ما لم أدركه إلا متأخرا بكل أسف. على أي حال لم أتصل بك الآن لكي نتكلم في مثل هذه الأمور، وإنما اتصلتُ لأطلب منكَ أن نغير موعدنا.

ـ هل تريدين يوماً آخر غير الغد؟

ـ لا.. موعدنا في نفس اليوم الذي حددتَهُ، وفي نفس المكان أيضا، لكن لن نجعله في الرابعة عصرا؛ لأن حسام سيكون هنا في البيت، ولو طلبتُ منه الخروج فسيخرج معي، ولا أظنكَ تريد مني أن أجلبه لك معي بصحبتي.

ـ إذن؟

ـ إذن فموعدنا غداً في العاشرة صباحا، سيكون في العمل وهكذا سأستطيع أن ألتقي بك بُناءً على رغبتك.

ـ لا بأس، لا يوجد عندي أي مانع.

****

في مساء ذلك اليوم عزمتُ أن أخبر مَي بما حدث بعد أن كنتُ قد قررت عدم إخبارها بشيء البتة، لم أرغب في إخبارها طلبا لنصحها، كنتُ في غنىً عن نصائحها؛ ولكني لم أشأ أن ألتقي وحدي بوليد، أردتها أن تكون معي، كنت أخشى أن أضعف أمامه، أو أن يرغمني على فعل شيء لا أريده، أردت منها حصناً أحتمي به من عواصفه، وربما حاجزاً يحول بين جليدي وتوهجه كي لا أذوب بين يديه فأنسف في لحظة ضعف مني جميع ما بنيته.

اتصلت بها هاتفياً، وأخبرتها بكل شيء تقريباً، ابتداءً من ظهور وليد فجأة في دريم بارك، وانتهاء بطلبه مقابلتي واتصالي به اليوم، ولكنها خذلتني، قالت لي:

ـ لا أستطيع أن أذهب معكِ يا أسماء، سامحيني بالله عليكِ.

ـ ولم لا تستطيعين؟

ـ لأن أحمد يغار عليَّ كثيراً؛ ولو عرف أني ذهبت معكِ من أجل لقاء شاب غريب فستكون مصيبة على الأرجح.

ـ ومن الذي سيخبره؟

ـ لا أكتم عنه شيئاً.

ـ ستكتمين عنه ذلك من أجلي.

ـ وماذا لو عرف؟

ـ لن يعرف، لا تخافي.

ـ لماذا لا تخبري حسام بظهوره في حياتك وتريحي نفسك؟

ـ لقد أخفيتُ عنه أن وليد كان في حياتي، ليتني أخبرته منذ البداية، صدق من قال: ليس للكذب أرجل. المهم الآن.. هل ستأتين معي؟ لا تخافي صدقيني.

ـ بل يجب أن أخاف، ثم إنكِ لستِ بحاجة إليَّ، يمكنك أن تذهبي إليه وحدك، لن يأكلكِ يا أسماء، كما أنكما ستلتقيان في مكان عام، فمِمَّ الخوف!

أغلقتُ معها وأنا مُستاءة جدا، ولكني أخذت عليها أيمانا مغلظة ألا تخبر أي أحد بحرف مما رويته لها، وأكدت عليها ألا تخبر أحمد بشكل خاص.

مضى يوم الأربعاءِ ببطء سلحفاة، كنتُ أريدهُ أن يأخذ يوم الخميس في يده ثم يمضيان معا بأسرع ما يمكنهما المُضي، كان لقائي بوليد عبئا ثقيلاً أريد أن أنتهي منه، كانَ أثقل على نفسي من ملك الموت على روح الكافر.

لم يكن ذلك كله لبغضٍ أجده في قلبي لوليد، ولكن لاستشعاري أني أسيء إلى حسام بذلك الذي أفعله إساءة بالغة.

وفي صباح يوم الخميس ذهب الأولاد إلى الروضة كعادتهم، وذهب حسام إلى عمله، وما إن خرج حتى قمتُ بإعدادِ الثياب التي قررت أن أخرج بها، فارتديتها على عَجل، ثم ذهبتُ لمقابلة وليد في إحدى الحدائق العامة التي كنا نلتقي فيها أثناء الجامعة بناء على طلبه. كان ينتظرني على طاولةٍ تحت شجرة لطالما جلسنا تحتها أيام الجامعة،

وكما توقعت فقد كان هناك قبل الموعد بساعة على الأقل، رغم أني كنت دقيقة جدا في الموعد، فلم أتأخر دقيقة، ولم أبكِّر عن موعدي دقيقة.

ابتسم مبتهجاً أول ما رآني ثم قال لي على الفور:

ـ كعادتك يا أسماء، لا تتأخرين عن موعدٍ أبداً.

قلتُ بعد أن جلست:

ـ هل نسيت أني تخرجت في كلية الفنون الجميلة، وكل شيء عندنا لابد وأن يكون دقيقاً.

ـ اشتقتكِ كثيراً.

ـ من فضلك ما من داعٍ لمثل هذا الكلام، وأرجوكَ لا تنسَ أنني الآن متزوجة.

ـ لستِ كذلك بالنسبة إليَّ، على الأقل وأنت تجلسين معي الآن.

ـ لماذا طلبت لقائي؟

ـ لأشبع عيني منكِ.

ـ أنتَ تمزح أليس كذلك؟

ـ لم أكن جادا في وقت مثلما أنا جاد الآن.

ـ لو كنتُ أعلم ذلك ما أتيت.

ـ لو لم تأتِ إلي لأتيتكِ أنا.

ـ رجعتَ إلى تهديدي من جديد؟

ـ كنتُ سآتي إليكِ لأراكِ لا لأدمرك.

ـ لكنك بهذا الشكل تدمرني فعلاً.

ـ ليكن ذلك كذلك، فقد دمرتني سلفاً بابتعادكِ عني.

ـ لم أفعل ذلك، أنت من فعلته بنفسك.

ـ وبكِ؟

ـ قدَّر اللهُ وما شاء فعل.

ـ على أي حال ليس هذا وقت النبش فيما مضى.

ـ وقت ماذا إذن؟ وقتُ تهديدي وأنا التي وثقت بك أكثر من أي أحد في الدنيا؟!

ـ لم أكن لأفعل ذلك الذي هددتكِ به بحال من الأحوال، لكني كنت على يقين من أنك لن توافقي على لقائك بي لو لم أفعل ذلك.

ـ ها قد التقينا، ماذا تريدُ مني؟

ـ سأهاجر يا أسماء، لن أعود إلى مصر مرة أخرى، كان مجرد تفكيري في أني قد يحين موعد هجرتي دون أن أراكِ يقتلني، لكن الله أنعم عليَّ برؤيتكِ مرتين.

- ....

ـ لماذا أنتِ صامتة؟ ألا تريدين أن تعرفي مع من سأهاجر؟

ـ لا يعنيني ذلك.

ـ سأسافر مع نسرين، لم أعد أصلح لغيرها كما صرَّحتِ أنت سلفاً بذلك، على الأقل فهي لن تطلب مني أن أعطيها من قلبي قليلا ولا كثيرا، فهي تعلم مسبقا أن قلبي مع غيرها. اتفقنا معا على الهجرة ورتبنا لكل شيء.

انزعجتُ كثيراً من كلامه، إن كان ولابد لوليد من بديلة لي فلا يسرني أبدا أن تكون هذه هي البديلة، قلتُ لهُ بأسى:

ـ أتمنى لكما حظا سعيداً.

ـ هل ستنسيني يا أسماء؟

ـ لن أكذب عليك، أتمنى لو أني أستطيع نسيانك، بل محوك من حياتي نهائيا.

ـ إلى هذا الحد تكرهيني؟

ـ ليست مسألة كره، لكن دروبنا اختلفت، ليس من الجيد لي أو لك أن يتعذب أحدنا بتذكره الآخر.

ـ لكني أستعذب ذلك العذاب.

ـ وأنا أمقته.

ـ إذن فأنتِ لا تزالين تحبيني.

ـ أكذبُ عليكَ لو قلتُ لك أني أحبك، لكني أيضاً لا أكرهك، وعلى أي حال فأنا أدعو الله لك بصلاح الحال كلما تذكرتك.

ـ أليس عجيباً أن أحبكِ كل ذلك الحب ثم يتزوجكِ ذلك الذي لا يُكن لكِ أي حب.

قلت على الفور بنبرة مُخيفة وكأني خشيتُ أن يكون لكلامه صلة بالواقع:

ـ وما أدراك أنه لا يحبني، إنه يحبني كثيراً، بل يحبني أكثر منك.

قال مستدركاً، وربما معتذرا، أو متغزلاً:

ـ ومن يعرفكِ ولا يحبكِ؟ وهل يملك المرء معكِ إلا أن يحبك!

أطفأت كلماته الأخيرة بعض ثورتي، وإن كانت لم تنطفئ كُليةً.. بادرتهُ على الفور بسؤالي له:

ـ وهل أحببتني حقاً؟

ـ هل تشكين في ذلك؟!

ـ نعم أشكُّ، الذي يحب بصدق لا يخون، لا يخون أبداً يا وليد، وقد خنتني غير مبالٍ بي ولا مكترث!

هل تذكر حديثنا أيام الجامعة حول الحب العذري الذي لم تكن تعترف بوجوده أبداً؟ كان ينبغي أن أعرف من حينها أنك لا تعترف بالحب نفسه، أو ربما لك وحدك في الحب مذهبٌ لا يشاركك فيه غيرك، لقد أحببتك بصدقٍ يا وليد، أحببتكَ واشتهيتني؛ لذلك سهلت عليك خيانتي.

هل تذكر أيضا حديثك يومها عن الفراق بين العشاق؟

لقد قلت لي يومها حرفيا: (إياكِ أن تصدقي أبدا أن عاشقين في الدنيا افترقا بسب الظروف، العشاق لا يفترقون إلا بأحد أمرين: الموت، أو تخاذل أحدهما).

لقد نسيتَ أمرا ثالثا، الخيانة يا وليد، الخيانة تفرق بين العشاق.

نكّس رأسهُ إلى الأسفل ولم ينطق ببنت شفة، انتبهتُ لساعتي ثم أضفتُ بارتباك:

ـ لابد وأن أنصرف الآن، لو رجع حسام ولم يجدني في البيت فلن يكون خيراً.

لم يعترض على طلبي الذهاب، وإنما أمعن النظر إليَّ ثم ودَّعني بحرارة شديدة كانت ظاهرة على نبرة صوته التي تغيرت فجأة وكأننا لن نلتقي فعلياً بعد هذه المرة إلى الأبد، وقبل ذهابي أعطاني رسالةً وأخبرني أنه كتبها بخطّ يده منذ رآني آخر مرة مع حسام، أخذتها منه على عجلٍ ثم انصرفت بعد أن أقسم لي أنه لا شيء لي معه، وأنه قد تخلَّص من جميع مُتعلقاتي منذ علم بزواجي من حسام.

****

وصلتُ إلى البيتِ قُبيل الظهر بدقائق، وحمدتُ الله أن أحداً لم يعرف بخروجي، إذ كان الأولاد ما يزالون في الروضة، وحسام لم يعد بعد من عمله.

وأخيرا تنفست الصُّعداء، وكنتُ سعيدةً رغم علمي برحيل وليد إلى الأبد، خاصة بعد ذلك الرعب الذي عانيته من لقائي به في دريم بارك، وخوفي الذي كان يتضاعف كلما فكّرت في أن مثل ذلك الموقف قد يتكرر مرة أخرى.

انتهزتُ فرصة وجودي في الشقة وحدي ثم فتحتُ رسالتهُ على مهلٍ، كان أثر عطره المفضل عليها، وربما هو من أشبع رسالته به عن عمدٍ ليكون رسالة مستقلة بذاته هو الآخر.

وبدأت في صمت أقرأ رسالته:

(هل تذكرين يا أسماء حين قلتُ لكِ أن الزواج هو مقبرة الحب؟

حينها قلت لكِ أن التاريخ خلَّد العشاق الذين لم يتزوجوا، لو تزوجوا لمات الحب بينهم، لكان لفظ آخر أنفاسه بين صراخ الأطفال ومتطلبات الحياة.

يومها لم أكن أعلم أن الحياة داخل مقبرة الحب أنفع وأجدى وأجمل بكثير من الحياة خارجها.

مثلك يا أسماء يحلو العيش معها في أي مكان ولو على سطح المريخ حيث لا ماء ولا هواء ولا كتب.

في ريقك أعذب ماء عرفته البشرية، وفي أنفاسك الدافئة أجمل هواء، وفي عينيك سأقرأ ما لم ولن أقرؤه في كتبي يوما من الأيام.

ليتنا دخلنا معاً مقبرة الحب، مهما كانت حارة فلن تكون أكثر حراً من أحشائي التي تصطلي الآن في غيابك.

مهما كانت ضيقة فلن تكون أضيق من نفسي التي تقلَّصت في غيابك حتى لم تعد تُرى ولو وضعت تحت العدسات المُكبرة!

مهما كانت مُظلمة فلن تكون أظلم من روحي من حين افترقنا.

كان خيرا لنا أن نجتمع في مقبرة الحب يا أسماء، لا أريد خلوداً، أريد أسماء ولا شيء غيرها.

موت الحب بيننا في زواجنا أمر ظني، لكن موتي في بعدك عني أمر قطعي، كيف اتقيتُ شراً ظنياً بشرٍ قطعي!

ليتكِ غفرتِ لي يا أسماء، لو لم أكن مستحقاً لمغفرتكِ فقلبكِ الرحيم كان جديراً بالمغفرة، لطالما كنتِ الأجود يداً، والأكرم نفساً، والأوسع قلباً، ليتَ ما كانَ لم يكن منه شيءٌ.

أستطيعُ أن أدرك مدى خيبتكِ جيداً، كما أستطيعُ أيضاً أن أدرك مدى خسارتي، كم كنتُ غنياً بكِ، وكم أصبحتُ من بعدكِ مفلساً.

لا تظني أني أفكر فيكِ كل دقيقة وكل ثانية وكل لحظة.. لا تظني ذلك أبداً، بل كوني منه على يقين.

هل تذكرين أيضاً يوم قلتِ لي:

- وليد.. أنت أكثر من يعرفني، انصحني يا وليد.

يومها لم أنصحكِ، لا أدري لماذا، ربما لأنكِ كنتِ أنتِ من تنصحينني دوماً، ونصحي لكِ سيكون شذوذوا عن القاعدة، وخروجا للقطار عن قضبانه، وربما لأنني كنت أعلم أن الملائكة لا تحتاجُ إلى النصيحة من أحد. كنتِ ملاكا في عيني يا أسماء كنتِ ملاكا.

والآن أراكِ أكثر ملائكيةً لأنني أنظر إليكِ من بعيد، وقديما قالوا: ابتعد قليلا ترى أكثر.. ابتعدتُ كثيرا يا أسماء، ابتعدتُ كثيرا جداً.

ظننتُ أن البعد يُنسي، لكنهُ جعلكِ أكثر حضوراً، لا أكاد أنام إلا وأراكِ في منامي، أهرب من اليقظة إلى النوم لأنساكِ قليلاً فما يزيدني نومي إلا تذكرا لكِ!

يومها لم أنصحكِ، لكن يمكنني أن أنصحكِ الآن، يمكنني أن أنصحكِ فعلاً، فلا أحد يعرفكِ مثلما أعرفكِ كما اعترفتِ أنتِ بذلك.

ثلاث نصائح ولن أزيد، إن عملتِ بهم فأنتِ أنتِ.

النصيحة الأولى:

الورد يُغري كثيراً، يُغري كثيرا جدا يا أسماء، لكن أشواكهُ تحميهِ، استعيدي أشواككِ كلها أيتها الوردة الرقيقة، ليبقى للوردة أريجها عليها أن تحتمي بالشوكِ من المتربصين.. هل قلتُ أنكِ وردة؟

أنت أجمل من الورد وأرق وأبهى.

النصيحة الثانية:

كما كنتِ فابقي دائماً، بما فيكِ من سذاجةٍ وبراءةٍ وحماقةٍ أحياناً.

بما فيكِ من عنادٍ وجنونٍ وتهورٍ أحياناً.

بما فيكِ من مشاكسةٍ وطفوليةٍ واعتدادٍ بالنفس أحياناً.

بما فيك من تدين وخلقٍ وتشدد أحياناً.

كما كنتِ فكوني دوماً، ستشعرين بالغربة نعم، وبالوحدة نعم، فمثلكِ الآن قليلون، قليلون جدا يا أسماء، لكن ستشعرين بأنكِ ملكة.

هل قلتُ أنكِ ملكة؟

أنتِ فوق الملكات، فلئن كان للملكات حكم وسلطان على النفوس، فحكمكِ وسلطانكِ على القلوب.

هل تذكرينَ يوم أقسمتُ لكِ أن كل من يتعامل معكِ سيحبك؟

إن كنتِ تذكرين فإني سأُضيف الآن أن كل من يحبكِ فمن المستحيلِ أن يُشفى منكِ!

كسرطان في القلبِ أنتِ، لا تغادرين القلب إلا بالموت.. أقصى ما يفعلهُ معكِ من استحكمتِ منه هو أن يأخذ بعض المسكنات، مسكنات لا تزيدُ على أنها تهيج القلب وتستفزه، فكأن كل الأدوية منكِ نتائجها عكسية!

النصيحة الثالثة:

ربما تستغربين من تلك النصيحة، لكن لعل في إسدائها لكِ إثباتا على حبي لك وإن لم تكوني لي، ودليل على أني ربما كنت خائنا، لكنني لست أنانياً.

الزوجة الذكية هي من تستطيع جعل زوجها يقبلها صديقة له، فكوني لزوجك صديقةً قبل أن تكوني زوجة، ساعتها يستغني بكِ كزوجة عن كل النساء، وكصديقة عن كل الرجال.

ربما لن تحبيه كما أحببتني، وقطعا لن يحبك معشار ما أحببتك، لكن لن يرهقك كما أرهقتكِ، لن يستنزفكِ كما استنزفتكِ، ولن يؤلمك مثلما آلمتكِ.

كنتِ قطة وديعةً وكنتُ نمراً، كنتِ حملاً وديعاً وكنتُ ليثاً، كنتِ جبل ثلجٍ وكنتُ بركانا.. كنتُ نارا.. كنتُ دماراً. هل يجتمع الثلج والنار يا أسماء!

انسيني يا أسماء.. اقتليني بداخلكِ لتعيشي، أتمنى فعلا أن تنسيني، وإن كان مجرد تفكيري في أنك قد تنسيني يقتلني رعباً.

هذه هي فرصتكِ لكي تمحيني من حياتكِ فكأني ما دخلتها، وكأن أحدنا لم يتعثر يوما بصاحبه، سأهاجر ولا رجعة لي أبداً، سأهاجر بجسمي وإن كان قلبي معكِ.

أتمنى لكِ حياة هادئة وسعيدة.

الوداع يا أجمل ما حدث لي في حياتي).

وليد.

لم أشعر إلا ودموعي تتساقط من عيني، وأدركتُ كم كان يحبني وليد، كان يحبني على طريقته نعم، لكنه كان يحبني، لكن الحب وحده لا يكفي، لا يكفي للأسف.

صليت الظهر ثم ظللت أدعو الله له في سجودي أن يوفقه، وأن يصلح له الأحوال، وأن يمحوه من حياتي محواً، وأن يمحوني أنا أيضاً من حياته ومن نفسه وقلبه حتى لا يتعذب بي، ثم قمتُ بتشغيل التلفاز وجلستُ أنتظر حسام بشوق بالغ بعد أن زال عن كاهلي عبءٌ ثقيلٌ.

****

رجع الأولاد من الروضة، ثم بعدها رجع حسام، فتناولنا جميعاً الغداء، وذهب حسام للنوم كعادته إلى أن أقبل الليل، وكنتُ قد قررتُ أثناء انتظاري عودته أن أصنع لهُ مفاجأة سارة بمناسبة خروج وليد من حياتي بشكل نهائي، الآن يمكنني أن أكون لحسام فقط، وأن أجبره على أن يكون لي وحدي.

كنتُ أعرفُ أن حسام بدأ يحتاج إليَّ زوجة تماماً كما بدأتُ أحتاجُ إليه زوجاً، الآن يمكنني أن أحلل كلامه لي منذ بضعة أيام في صباح ذلك اليوم الذي أعقب الليلة التي نمتُ فيها بجواره وعلى سريره، يومها سألتهُ لماذا لم يقم بإيقاظي قبل ذهابه إلى العمل حتى أعد له وللأولاد طعاماً، قال لي حرفياً:

- (تركتكِ لأثبت لكِ أن سريري أهنأ في النوم من سرير عمار وياسمين، ربما أستطيعُ أن أقنعكِ بتلك الطريقة في ضرورة أن تطالبي بحقك في ذلك السرير الرائع).

إنه يُشير إلى أنه يريدني زوجة، هو أيضاً ضاق بالوضع القائم مثلما ضقت به، لكنه يصرح ولا يلمح.

لكن هل يُحبني حسام مثلما أحبه؟ ذلك مالا أستطيع الجزم به.

انتهزتُ فرصة نومه وقمتُ بالاتصال بأمي وطلبت منها أن ترسل أخي علاء لكي يأخذ عمار وياسمين لأني لا أستطيع الخروج، وتوسلت إليها أن تبقيهم عندها الليلة فقط لأني أريد إعداد مفاجأة سارة لحسام وسيفسدها الأولاد، وبعد إلحاح شديد مني وافقت وجاء أخي علاء وأخذهم.

ثم قمتُ بإعداد كل شيء، فأحضرتُ العشاء، وأطفأت المصابيح، وأشعلتُ بعض الشموع، وجعلتُ الأجواء رومانسية من الطراز الأول، ثم ذهبتُ سريعاً إلى غرفة

الأطفال، فاستبدلت ثيابي، وارتديت لأول مرة في شقة حسام ثياباً مُلفتةً بشكل كبير، وضيقة بشكل ملحوظ، استشعرتُ بعض الحرج، وهممتُ بأن أنزع عني تلك الثياب، ولكني أبقيتها، حان الوقتُ لأن أشهر في وجه حبيبي العنيد كامل أسلحتي الأنثوية، لعله ينتبه إلى أن التي معه في البيت أنثى من لحم ودم، لا جمادٌ مجردٌ من الشعور والإحساس.

حان الوقت لأن أستعيده، وأن تسير الأمور وفق ما كان ينبغي لها أن تسير منذ البداية.

ودخلت غرفته لإيقاظه من النوم، أول ما استيقظ قرأتُ الدهشة في عينيه من هيئتي غير المألوفة له، ابتسمتُ في خجل، بل غرقتُ في خجلي، فأطرقتُ رأسي إلى الأرض وأنا أقول له:

ـ هيا يا حسام، قد جهزتُ العشاء.

ابتسم هو الآخر ابتسامة زادتني خجلاً، لكني علمتُ من خلالها أن أسلحتي التي أشهرتها في وجهه قد بلغتْ من نفسه ما أردت.

قال:

ـ سوف أغتسل أولا ثم بعد ذلك العشاء.

قلتُ:

ـ قد جهزت لك الحمام، يمكنك أن تذهب وثيابك قد علَّقتها هناك لكن بشرط واحد.

ـ وما هو ذلك الشرط؟

ـ أن تذهب إلى هناك مغمض العينين، قد جهزت لك مفاجأة، ولا أريدك أن تفسدها علي برؤيتك لها قبل الموعد المحدد للكشف عنها.

ـ لكن كيف سأذهب إلى الحمام وأنا مغمض العينين!

ـ لا تقلق، سأقودك بنفسي إلى هناك.

ثم وقفت أمامه وأمسكت بيديه ووضعتهما على كتِفَيَّ وسرت به نحو الحمام بعد أن جعلته يُقسم لي أن يظل مغمض العينين.

ثم رجعت سريعاً إلى المائدة ونثرت عليها بعض الورود التي طلبت من أخي علاء أن يشتريها لي أثناء مجيئه لأخذ الأولاد.

وناداني حسام من داخل الحمام:

ـ هل أخرج الآن يا أسماء؟

ـ لا تفعل، انتظر حتى آتي إليك كي أقودك، فستظل مغمض العينين.

ووقفتُ أمام باب الحمام فخرج وهو يرتدي الثياب التي قمت باختيارها له، كان يبدو فيها أنيقا بشكل كبير، وضاعف أناقته ووسامته تلك اللحية الخفيفة التي كَسَتْ وجهه، لا أحب أولئك الرجال الذين يزيلون شعر الوجه من جذوره كالنساء، من كمال الرجولة في نظري القامة الطويلة والشعر الأسود الذي يكسو الوجه، لذلك فقد كان حسام في نظري مكتمل الرجولة، بل كانت الرجولة في عيني هي حسام، وحسام هو الرجولة.

أول ما خرج تشبَّع أنفي من رائحة عطره الزكي.

وبنفس الطريقة التي ذهبنا بها إلى الحمام رجعنا إلى الصالة فأجلسته على المائدة ثم قلت له:

ـ يمكنكَ الآن أن تفتح عينيك.

وبنظرة خاطفة إلى عينيه أدركتُ كم كان سعيداً، جلستُ على أقرب مقعدٍ منهُ، ثم تناولنا العشاء معاً ونحن نتبادل الأحاديث والضحكات وفجأة قال لي:

ـ هل خرجتِ اليوم يا أسماء؟

نزل سؤاله على رأسي نزول الصاعقة، فلم أدر ما أقول، كنت أخشى أن أكذب وأخبره بعدم خروجي فيكون على علم بخروجي، وتكون المصيبة مصيبتين، أو أقول له بأني خرجتُ بينما هو لم يكن يعلم، فأتسبب في غضبه دون داع.

سيطرت سريعاً على أعصابي التي خارتْ، ثم قلت له وقلبي يرتجفُ رعباً:

ـ كلا، وهل أخرج دون أن أخبرك!

قال:

ـ فكيف حصلتِ على ذلك الورد إذن؟!

قلت وقد هدأتُ نوعاً ما عندما عرفتُ سبب سؤاله عن خروجي:

ـ لقد اتصلتُ بأخي علاء وطلبتُ منه أن يُحضره لي، بالمناسبة فقد جلس معي قليلاً ثم انصرف قبل أن تقوم من نومك بقليل.

ـ لماذا لم تقومي بإيقاظي يا أسماء حتى أجلس معه، ماذا يقول عني الآن!

ـ لن يقول شيئاً، فهو الذي صمم على عدم إيقاظك، كما أنه كان على عجلة من أمره.

ـ لا بأس، ولكن أين عمار وياسمين؟

ـ لقد أرسلتهم إلى أمي مع أخي علاء، سوف يقضيان عندها الليلة.

ـ ولم؟

ـ صمت في خجل، ولم أجد عندي لسؤاله جوابا، ثم سريعا أدرك خجلي فانتشلني منه بقوله:

ـ لا بأس، ذلك أفضل.

قلت له بمنتهى الجُرأة ما يتناسب مع هذه الجلسة الشاعرية وما وددت قوله له أكثر مرة لكني كنت أعجز عنه بسبب خجلي وكبريائي:

ـ أحبك يا حسام، أحبك كثيرا.

صمتَ للحظات بدت لي وكأنها أعوام ثم أخيرا نطق فقال لي:

ـ أرجو أن تسامحيني يا أسماء، لقد أسأتُ إليكِ من دون أن أشعر حين ظننت أنكِ..

ولم يكمل جملته فاستغربت من حاله، على أي شيء يطلب مني مسامحته، أنا التي يجدر بي طلب المسامحة، قلت على الفور:

ـ حين ظننتَ ماذا؟

قال:

- حين ظننتُ أنكِ لا تصلحين إلا أما للأولاد، لا أما لهم وزوجة لي. أرجو أن تسامحيني على هذا وعلى أي ظنٍ سيء ظننتهُ بكِ.

تنفست الصعداء بعد جوابه، كنت أخشى أن يكون ظن بي شيئا غير ذلك.

أنهينا العشاء، ثم تركنا المائدة كما هي دون أن نرفعها، وجلسنا على أريكة الصالة نشاهد التلفاز، اقتربت منه عن عمد، ثم وضعت رأسي على صدره، فأخذ يحدثني عن طفولته، ثم عن مراهقته، وعن أول مرة ضبطه والده متلبسا بشرب سيجارة، ضحكنا كثيرا، ثم وجدتني أمرر يدي على وجه حسام كأني أقرأُه على طريقة برايل من خلال تحسسي وجهه.

وبينما أمرر يدي على ذلك الوجه الذي عشقته إذ به يُمسكُ يدي ويقبّلها بشغف، شعرتُ أثناء تقبيله يدي أنني ملكة، ثم شعرتُ أنني انتصرتُ في حربي مع حسام، أخيراً استطعت أن أفجّر تلك الرّقة التي يُخفيها، أخيراً استطعتُ أن أجعل البسمة تُرسم على ذلك الوجه الذي طال حزنهُ وعبوسه.

ثم فجأة قلتُ له أريد أن أطلب منك طلبا.

- بل أمراً يا أسماء.

- أريدك أن تحملني.

- أوافق لكن بشرط.

- موافقة عليه مسبقاً، ما شرطك؟

- أن أحملكِ حتى غرفة النوم، سننام الليلة معاً للمرة الأولى.

ـ لكني نمت معك منذ أسبوع، هل نسيت؟

ـ بل نمت مع نفسكِ، الليلة سننام معاً، سنتحدث ونتكلم ونستدرك كل ما فاتنا.

لم يمهلني حتى أردّ بالموافقة، فقفز من مكانه بسرعة كبيرة كأنه على يقين من موافقتي، ثم حملني بين يديه كطفلة وانطلق بي إلى غرفة النوم، فطوقتُ رقبته بذراعي أثناء حمله لي، كان قلبي يرقص سعادة، ثم وقف أمام السرير وهو يحملني، توقعت أن يطرحني على السرير كما يحدث في الأفلام، ولكنه أنزلني بهدء وأوقفني بينه وبين السرير ثم مرر يديه على شعري، وظل يكرر ذلك، شعور رائع تملكني وهو يفعل ذلك، لو تجسدت السعادة شخصا في ذلك الوقت لما كانت غير حسام.

وددت لو طلبت منه ألا يتوقف عن العبث في شعري، كم كنت أستمتع بذلك، ولكنه توقف فجأة ثم ظل يحدق في عيني كثيراً، نظراته إليَّ كانت تلتهمني، وكان يعجبني التهامه ذلك كثيراً، ولم تكن عندي تلك الجرأة التي تتيح لي أن أبادله نفس النظرات رغم رغبتي الشديدة في أن أفعل ذلك.

وبينما أطرقتُ رأسي إلى الأرض خجلاً إذ به يقترب مني بهدوء وتؤده، ثم قبَّلني في جبهتي.

لم تقنعني منه تلك القبلة، قد جربتها منه قبل ذلك ولم أجد فيها ما يُغري بتكرارها!

ليس ذلك ما أحتاجه يا حسام، إن كنتُ تريدُ تقبيلي فلتكن قبلة عاشق لمعشوقته، لا أخاً لأخته.

وكأنه قرأ ذلك كله في عيني، أو ربما وصلته رسالة عاجلة وسريعة من جبهتي التي كان قريب العهد بها مفادها أننا نتنازل عن كامل حقنا في التقبيل لصالح الثغر، فهو أولى بذلك من غيره وأحق، وهذا إقرار منا بذلك.

ودنا مني حتى تشبَّع وجهي بأنفاسه الحارة، بل المُحرقة، ثم صافح بفمه الغض فمي المتشوق إلى تلك المُصافحة، وتعانقت شفاهنا عناقاً طويلاً حاراً أفقدني فيه وعيي، وأخرجني من الغرفة إلى مكان بعيد لا أعرفه، ورغم جهلي به إلا أنني لم أكن أرغب في مغادرته أبداً.

كدتُ أسقطُ على الأرض من جرَّاء تلك النشوة التي سكبها في فمي، وباحترافية كبيرة أدرك ما أصابني، فطوقني بذراعه الأيمن وكأنه يمنعني من السقوط، ثم وضع يده اليسرى على خصري، وتابع ما بدأه، ورغبتُ ألا يتوقف أبداً، كنت أتمنى أن يتوقف بنا الزمان عند ذلك العناق الممتع بين الشفاه المتشوقة لذلك العناق الذي تأخر طويلاً، أن يتوقف عند تلك اللحظات التي لم أعرف في حياتي ما هو أروع أو أجمل منها.

لم يكن ذلك الذي في فمي بعض ريقه؛ ولكن بعض سحره، سكب في فمي خمراً أسكرني حدّ الثمالة.

لا أدري كم استغرقت تلك القبلة من وقت، لا أظن أن القبلة تُقاس بمكان أو زمان، وإنما لها وحدة قياس لعل الإنسان لم يكتشفها بعد.

و وقف حسام أمامي من جديد يحدِّقُ في وجهي بعد أن أنهى قبلته القاتلة وهو يبتسم لي ابتسامة أربكتني، فوضعتُ كلتا يدي على وجهي من شدة الخجل، كأني أستتر بهما من عينيه الوقحتين، ثم قال لي على الفور:

ـ ألن تغيري ثيابكِ؟

رغم سعادتي بسؤاله، وإدراكي لمرماه إلا أن خجلي تضاعف، فقلت له على الفور لأربح بعض الوقت:

ـ سأغتسل أولاً ثم أغير ثيابي وآتي.

خرجتُ من الغرفة أتخبط كالسكران، ثم ذهبت إلى الحمام فاغتسلت وارتديت أجرأ ما عندي من ثياب، ثم مشَّطتُ شعري، وأمام المرآة كنتُ قد طرحتُ جميع علب التجميل أمامي، ثم أخذت أتجمل لحبيبي الذي استسلم لي أخيراً، أو ربما أنا التي استسلمت له، ما أسعدني بذلك الاستسلام المتأخر عن وقته، لكن لا بأس، أن تأتي الأشياء متأخرة أفضل من ألا تأتي مُطلقاً.

حينما انتهيت من ذلك كله ظللت أنظر إلى نفسي من خلال المرآة، كنت أدرك أني في قمة جمالي وإغرائي، وكم تمنيت أن يراني حسام هكذا، وخطوت نحوه وكلي مشاعر متناقضة، كنت أدرك أن هذه الليلة هي ليلة زفافي على الحقيقة، لذلك فقد كانت مشاعري هي نفس مشاعر عروس في ليلة زفافها، ودخلت بخطوات هادئة غرفة حسام، أول ما وقفت أمامه ابتسمت له ابتسامة عنيتُ بها كلاماً كثيراً لو كان ممن يقرؤون تلك الكلمات الصامتة.

أول ما برزتُ أمامه عَروساً قال لي:

ـ أنتِ طالق يا أسماء!

(الفصل العاشر)

من جديد رجعتْ أمي تُلح عليَّ في مسألة زواجي، ومن جديد فإني قد أعلنتُ رفضي للزواجِ، وهذه المرة فإني أرفضه بشكل قطعي غير قابلٍ للنقاش، ومن أجل ذلك فقليلاً ما كنتُ أذهب إلى زيارة أمي تجنباً لرؤيتها حزينة واجمةً من أجلي، وأيضاً تجنباً لكثير من النقاشات التي تُدخلني فيها على الرغم مني ولا جدوى من ورائها ولا طائل.

أصبحت ثقتي في جميع نساء العالم معدومة، إذا كانت أسماء التي ظننتها ملاكا لا بشرا خائنة، بل و بنفسها اعترفت لعاشقها بأنها خائنة، فكيف أثق في غيرها بعد أن رأيت منها ما رأيت!

لا أدري كيف سمحتْ لنفسها أن تسقط في بئر الخيانة وهي التي لها من رجاحة العقل، وحُسن الخلق، وطيب المنْبَتِ، ما يحول بينها وبين ذلك!

وعلى الأرجح فإن عاشقها لم يرضها زوجة؛ وإنما معشوقة في الحرام ولا أكثر من ذلك، فعلى الرغم من مرور ستة أشهر على طلاقنا إلا أنها لم تتزوج إلى الآن، لم تتزوج من ذلك الخسيس الذي خانتني معه ولا من غيره، لكن تلك جنايتها على نفسها.

الجميع كان مصدوماً من طلاقي المفاجئ لأسماء، والجميع كان يريد معرفة الأسباب، لكني لم أذكر لأحد شيئا.

لأجل ملك وما لها عندي لم أشأ أن أفضحها أو أشوّهَ صورتها بين أهلها وبين الناس جميعاً.

قلتُ لأهلي وأهلها أننا غير متوافقين، وأنني لا أصلح لها، ولم أزد على ذلك شيئاً.

علاقتي بعلاء لم تعد كما كانت، فقد تسبب ذلك في فجوة كبيرة بيني وبينه، كما أنني لم أعد أذهب إلى بيت أسماء مطلقاً، رغم أن والدها لا يمانع في زيارتي لهم على العكس من زوجته تماماً التي اتخذت مني موقفاً عِدائياً وشرساً بعد طلاقنا، والد ملك منذ عرفتهُ رجل عقلاني، وحِلمه يسبق غضبه دوما، لذلك لم يكن موقفه هذا مستغربا عندي بعد طلاقي من أسماء، ومن أجل دماثة خلقه فإني وافقت على طلبه بأن يمكث الأولاد عندهم يوما من كل أسبوع، رغم أنه أخبرني أن تلك رغبة أسماء.

كنت أكره أن يكون لتلك الخائنة صلة بأولادي، لكنها خالتهم أولا وأخيرا، والصلة قائمة لا محالة وإن كرهتُ ذلك.

كما أن الأولاد كانوا متعلقين بها بشكل كبير، مساكين أولادي، كلما تعلقوا بشيء حرمتهم الدنيا منه.

ما إن عرفوا أمهم وبدؤوا يتعلقون بها حتى توفيت، فلما أبدلهم الله عنها بأسماء ورأوا فيها أمهم التي رحلت عنهم كان منها ذلك الذي كان.

لم يعرف الأولاد أننا انفصلنا، ولم أرغب في إخبارهم، لم يكن عقلهم الصغير ليستوعب بعدُ مثل هذه الأمور.

في الأسبوع الأول من طلاقنا جاءني عمار وياسمين مهمومين، قالت ياسمين:

ـ هل ماتت ماما أسماء كما ماتت ماما ملك يا أبي؟

قلتُ مندهشاً:

ـ لا يا حبيبتي، لم تمت، من الذي قال لكِ ذلك؟

قالت وهي تبكي:

ـ عمار هو الذي يقول ذلك.

ـ لماذا قلت هذا لأختك يا عمار؟

ـ لأن ماما أسماء لم تعد تأتي البيت، ولم تعد تنام معنا كما كانت تفعل، إذن فقد ماتت كما ماتت ماما ملك.

قالت ياسمين وهي تكاد تغص بدموعها:

ـ لا أريدها أن تموت هي الأخرى، لا تتركها تموت يا أبي.

ولم أعرف بماذا أجيبُ تلك المسكينة، ولا ما أقول لها، تمنيتُ أن أقول لها أنها ماتت حتى ننتهي من أمرها بشكل نهائي، لكن لو قلتُ ذلك لكنت ذبحتها ذبحاً بذلك الخبر وهي التي اعتبرت أسماء أمها من بعد أمها، وكذلك شأن شقيقها.

حتى أنا لم يكن غيابها عندي سهلا، لقد كانت تحتل في قلبي مكانة أكبر من تلك التي ظننتها بكثير.

ذهبتْ بعد أن صبغت الدنيا في عيني باللون الأسود، وهي التي جعلتها بعض الوقت في عيني بجمالية الأقحوان.

كان ينبغي عليَّ منذ البداية أن أحذر منها وهي التي تعرف جيداً كيف تتعامل مع الألوان باحترافية رسَّامة، تعرفُ كيف تجعلُ الألوان ترقص طربا حين تشاء ذلك، ومتى يجدرُ بها أن تنزف دموعاً.

استشعرتُ بخروجها من البيت أن ملك توفيت مرة أخرى، لم تعوض أسماء الأولاد فقط عن ملك، وإنما عوضتني أنا الآخر عنها، لذلك لم يُضاهِ مصيبتنا في ملك إلا مصيبتنا في أسماء.

لقد تعلقت بها تعلقا كبيراً رغم كوني لم أكن أظهر لها ذلك، كنت أحترم رغبتها في بقاء ذلك الحاجز بيننا، مع أني كنتُ بدأتُ أضيق به ذرعاً، لاسيَّما في الفترة الأخيرة التي سبقت انفصالنا، لم أكن أعلم أن ذلك الحاجز إنما هو من بناء عاشقها لا من بنائها هي.

أغلب الظن أن أسماء لم تكن عذراء حين تزوجتها، لذلك كانت تخشى الاقتراب مني حتى لا يفتضح أمرها باكتشافي ذلك.

لقد كنت مرتابا منذ البداية في موافقتها على الزواج مني رغم رفضها أول الأمر، كانت خائفة من افتضاح أمرها فرفضتني، فلما أعملت عقلها علمت أنني خير من يستر عليها لمكانتها من ملك.

وربما كانت عذراء حين تقدمتُ لها في المرة الأولى، فلما حدث ما حدث أخبرت أهلها بموافقتها على الارتباط بي، وحجتها في ذلك أبناء أختها!

تذكرتْ أبناء أختها بعدما أجرمت ولم يوافق معشوقها على أن يتحمل تبعات جرمه.

لو أنها صارحتني بشيء من ذلك لربما كنت سامحتها، وحتى لو لم أسامحها فقد كان حقي أن أعرف على كل حال.

وليتها أخطأت قبل زواجها مني ثم تابت إلى الله وأقلعت، ولكنها استمرت في خيانتها حتى بعد زواجنا!

على الأرجح فقد كانت تنتظر خروجي إلى العمل وذهاب الأولاد إلى الروضة ثم تذهب إلى عاشقها، ومن يدري.. ربما كانت تجلبه إلى الشقة في غيابي، لم أعد أستنكر شيئا منها، وهل بعد الخيانة ذنب!

رغم حالتي النفسية السيئة ودخولي في حالة اكتئاب حاد إلا أني كنت أحمد الله الذي أظهرها لي على حقيقتها، ربما أكون قد تأخرتُ في معرفة تلك الحقيقة البشعة، لكني عرفتها على كل حال.

لولا أني رأيته معها في دريم بارك لظللت مُغفلا إلى أن يشاء الله، ولكن لابد للحق دوما أن يظهر وإن تأخر إلى حين.

حينما رأيت ذلك الشاب معها كان وجهه مألوفا عندي، وأدركت أني رأيته قبل ذلك اليوم، وبالفعل فقد كانت رؤيتي له من خلال رسمة رسمتها له أسماء واحتفظت بها في البيت وهذا من حماقتها.

وحتى أقطع حبل الشك بسيف اليقين فقد قمت في نفس اليوم الذي اكتشفت فيه ذلك كله بتحميل برنامج لتسجيل المكالمات على هاتفها المحمول من دون أن تعلم، ثم قمتُ بإخفائه من خلال برنامج إخفاء للملفات والبرامج.

كنت أخشى أن تفطِن إلى ذلك، لكنها لم تنتبه إليه، وفي كل يوم كنت أستيقظ باكرا قبلها حتى أراجع المكالمات التي قامت بها صوتياً من خلال برنامج التسجيل، في البداية وعلى مدار عِدّة أيام لم أجد ما يدينها، كل المكالمات كانت بينها وبين أمها، أو

بينها وبين صديقتها مي، ذلك أسفر عن كوني بدأت أغالط نفسي وألومها على شكي فيها، وأقنعت نفسي أن الشخص الذي التقينا به في دريم بارك لا علاقة له بالصورة، وإنما هو تشابه ليس أكثر، خاصة وأني لم أدقق في ملامحه جيدا في دريم بارك لأني لم أقف معهُ غير لحظات معدودة، بل إنني استشعرت الذنب لكوني شككت فيها إلى أن جاء يوم الخميس الموعود الذي اكتشفتُ فيه كم كنت مغفلا.

في ذلك اليوم رجعت من العمل مرهقاً فذهبت إلى غرفتي كي أنام، وعندما استيقظت وجدتها قد أعدت مناخا رائعا في الشقة، شموع و ورد وطعام أحبه، وكانت قد أرسلت الأولاد إلى بيت جدهم.

فطنتُ إلى ما ترمي إليه أسماء من خلال ثيابها المثيرة، كانت تبدو بارعة الجمال، لم أكن قد رأيتها في حياتي بهذا الشكل المُغري.

جلسنا نتناول الطعام معاً، ثم استشعرت مدى جنايتي عليها حين شككت فيها، فاعتذرت منها عن شكي فيها اعتذارا لم تتفطن إليه، وطلبتُ منها أن تسامحني على أي ظن سيء ظننته بها.

بعد أن تناولنا الطعام جلسنا نتحدث، وفجأة طلبتْ مني أن أحملها فقمت بحملها إلى غرفة النوم، استشعرتُ في ذلك اليوم كم كنتُ ظالماً لها، ثم كان بداخلي مزيج من الإعجاب الشديد بها، مع الشوق إليها، والشعور بالذنب نحوها، لم يكن إعجابي بها إعجابا عابرا، وإنما الإعجاب الذي هو أول مراحل الحب، طلبتُ منها أن تغير ثيابها تلك، فاستأذنتني أن تغتسل أولا ثم تقوم بتغييرها.

وذهبتْ إلى الحمام من أجل الاغتسال فسمعت هاتفها يرن، قالت لي مِن داخل الحمام:
ـ أجب المتَّصل رجاءً يا حسام.

ذهبتُ لأرى المتصل، ولم يكن غير والدها، كان يسأل إن كنا سنأتي في الغد لزيارتهم، أخبرته بقدومنا، خاصة والأولاد كانوا عندهم، وليس من اللائق أن نطلب من علاء إحضارهم وقد تكبَّد مشقة أخذهم.

سألتني من المتصل، فأخبرتها أنه والدها، ويسأل إن كنا سنذهب إليهم في الغد أو لا.

تركت الهاتف، ثم رجعت إلى غرفتي فتذكرت أنه ليس من اللائق أن أترك ذلك البرنامج عندها على الهاتف، خاصة وأني لم أعد أراجع تسجيلاته للمكالمات.

كما أنها لو فطنت إليه وعلمت أني قمتُ بتحميله لأني أشكُّ فيها فلن يكون خيراً على الإطلاق.

وقبل أن أقوم بحذفه قلتُ في نفسي لا بأس من مراجعة المكالمات الأخيرة قبل حذف البرنامج من باب الاطمئنان ليس أكثر.

رأيتُ عدة مكالمات، أكثرها بينها وبين مي، وبعضها بينها وبين أمها، ومن بين تلك المكالمات رأيت رقماً غريباً غير مألوف عندي كانت هي من اتصلت به في صباح يوم الأربعاء، بدأت بسماع مكالمة ذلك الرقم وكانت الكارثة.

كانت تتفق مع معشوقها على تغيير موعد لقائهما، فبدلا من أن يكون عصر الخميس جعلته صباح الخميس، بحيث أكون في العمل ولا أدري عنها شيئاً.

ثم أخبرته أن المكان كما هو، المعاد فقط هو الذي تغيَّر، فما هو ذلك المكان الذي التقيا فيه؟ هل شقته، أم مكان بديل!

ذلك هو أول ما قفز إلى ذهني أثناء سماعي لتلك المحادثة الصوتية.

وتأكدت من خلال المكالمة أن الذي كانت تقف معه في دريم بارك هو عاشقها فعلا صاحب الصورة، بل هي التي نصَّت على ذلك في حديثها معه.

لم أكن مخطئاً في جميع ما توقعته.

استحالتْ صورتها في عيني بعد تلك المكالمة من ملاك بريء إلى شيطان رجيم، حين برزتْ أمامي بعد عودتها من الاغتسال استشعرتُها وهي تسبح في الدلال حيةً ناعمة الملمس، خبيثة الطوية، لم أكن أتوقع منها نصف ذلك ولا ربعه، بل ولا حتى معشاره، كيف قدرتْ على ذلك كله، شتان بينها وبين ملك.. رحمك الله يا ملك.

أول ما ألقيتُ عليها يمين الطلاق جحَّظت إليَّ بعينيها ثم بدون أي مقدمات سقطتْ على الأرض مغشياً عليها، حملتها ووضعتها على السرير، ثم ساعدتها على استعادة وعيها.

عندما أفاقت ظلَّت تبكي وتسألني ما الذي فَعَلَتْهُ حتى أطلقها، ولم أجبها بشيء مطلقاً، طلبتُ منها أن تجمع ما يكفيها من ثياب لأنها ستذهب في الحال إلى بيتِ أهلها، قالت:

ـ لن أذهب من هنا حتى أعرف ماذا فعلت؟

ولم أجبها، وإنما أعدت عليها مرة أخرى جملتي الأخيرة بشأن ثيابها، وعندما رأت إصراري ذهبت لترتدي كامل ثيابها وهي تبكي، ورفضتْ أن تأخذ معها أي شيء، كأنها كانت تظن بأني سأرسلها إلى بيت أهلها الآن وفي الصباح سوف أذهب لأخذها!

بمنتهى الهدوء وكأني وضعتُ على قلبي ونفسي جَبَلَي ثلجٍ قررت أن أوصلها إلى بيتِ أهلها نظراً لتأخر الوقت، أوقفتُ تاكسي وجلستُ بجوارها صامتاً كصنم، وجلست بجواري باكية كثكلى.

حين وصلنا إلى العمارة التي بها شقة أهلها لم أصعد معها، بل لم أنزل من ذلك التاكسي الذي أوصلنا، وإنما سريعاً عدتُ بهِ إلى البيتِ وأنا شبه منهار.

في صباح اليوم التالي ظلت تتصلُ بي هاتفياً ففتحت عليها عندما ضِقت ذرعا من كثرة اتصالها، سألتني وهي تبكي بمرارة:

ـ لماذا يا حسام، ما الذي فعلته لأستحق منك ذلك؟

قلتُ في برود:

ـ كل هذا ولم تفعلي شيئاً؟ كيف بكِ لو فعلتِ!

ـ بالله عليك أخبرني ما الذي فعلته، أنا لا أفهم شيئاً، أشعر كأني في حلم بشع، بل هو كذلك، لا يمكن أن يكون ذلك حقيقة، أتوسل إليك أخبرني، من أجل ملك أختي.

قلتُ مُنفعلاً:

ـ لا تذكري ملك على لسانك، ملك أشرف من أن يجري اسمها على لسانك.

ـ يا الله! إلى هذه الدرجة قد فعلتُ جرماً عظيماً؟

ـ كفاكِ تمثيلاً رجاءً، كفاكِ فقد سقطت الأقنعة، لقد عرفتُ كل شيء، عرفت حقيقتك التي بدهاء أفعى كنتِ تخفينها.

ـ وما حقيقتي؟

ـ ما زلت مُصِرَّةً على التمثيل إذن!

ـ أقسم أني لا أفهم شيئاً على الإطلاق.

ـ ألا تفهمين أنكِ خائنة؟

ـ أنا خائنة يا حسام!

ـ خائنة وغادرة أيضا، لقد عرفت علاقتك بذلك الذي كان يقف معك في دريم بارك، بذلك الذي رسمتهِ وحينما سألتكِ عن الرسمة قلت لي إنها رسمة نسجها الخيال، ولم يكن شيئاً من نسج الخيال عدا كذبكِ وخداعكِ.

عرفتُ علاقتك القذرة به قبل زواجنا وبعد زواجنا.

اللقاء الذي كان بينكما البارحة أيضاً عرفته، اعترافك أنتِ شخصيا بالخيانة سمعته، ولم أسمعه من غيرك.

لذلك كله لم تكوني مستعدة لتقبُّلي زوجا أليس كذلك؟

انهارتْ في البكاء ولم تنطق بنصف كلمة من اكتشافاتي التي أذهلتها.

أضفت:

ـ هاتفكِ عليه برنامج لتسجيل المكالمات، بنفسي قمت بتحميله لك عليه لأعرف ما الذي يجري حولي، قطعاً لم تنتبهي لذلك لانشغالك بحبيب القلب، المكالمة محفوظة في هاتفكِ، يمكنك سماعها في قائمة التسجيلات إن كنتِ نسيتها.

من أجل ملك التي أستغرب من كونك أختا لها فلن أخبر أحدا من أهلك بشيء، ورجاء لا تحاولي الاتصال بي مرة أخرى، وجميع حقوقك المادية ستصلك كاملةً إن شاء الله.

ثم قمتُ بإغلاقِ الهاتف في وجهها وأنا في قمة ضِيقي وضجري.

في ذلك اليوم كان الأولاد عند أهلها كما أرسلتهم، جلستُ في البيتِ وحيداً مهموماً، لم أكن أسمع غير جملتها وهي تقول لذلك الذي خانتني معه:

ـ (مسكين حسام، ما كان يستحق ذلك مني).

وجملتها وهي تقول له أيضاً:

ـ (بفضلكَ أصبحتُ خائنة).

كان لهاتين الجملتين بشكل خاص في أذني دوياً بشعاً كدوي القذائف، ظل صداهما يتردد في أذني طويلاً وبلا توقف.

نزلتُ من البيت فاشتريتُ عُلبتي سجائر، كنت أنشدُ خلاصي مما بي في أي شيء، ثم أخذتُ أحرق في العلبتين سيجارة تلو الأخرى، لم أنهض من مكاني لشيء، ولا حتى لصلاة الجمعة التي ما تخلفتُ عنها في حياتي قط!

في الأيام التالية وردتني سيول من الاتصالات بعضها من أهلها، وأكثرها منها هي شخصيا، ولم أجب أحدا، لم تكن عندي رغبة في الحديث مع أي أحد، خاصة لو له علاقة بها.

وكما أقلعتُ عن التدخين بسبب ملك فقد رجعتُ إليه بشراهة والفضل في ذلك يرجع إلى أسماء، كان لي في كل يوم علبة كاملة على الأقل.

حاولتُ أن أنساها فلم أستطع، كيف أنساها وقد صفعتني بما أوتيت من غدر، بل بلغ بها فجورها أن تتحدث معه على مرأى ومسمع مني، إلى هذا الحد لم تكن تقيم لي وزنا!

كثيراً ما كنت أستشعر عدم أهليتها لستري عليها، كان لابد وأن أنتقم منها فأفضحها بين الناس وبين أهلها ليعلم الجميع حقيقتها، لكن كلما أذكر ملك أرى أنني لم أفعل إلا الصواب، إن كانت غير جديرة بستري عليها فملك جديرة بأن أفعل ذلك وأكثر من ذلك شفاعةً لها، فهي شقيقتها رغم كل شيء.

كان انفصالي عن أسماء خسارة فادحة بكل المقاييس، ومن جميع الزوايا، يمكنني أن أتحمل أي شيء، لكن الذي لا أستطيع تحمله هو رؤيتي للأولاد وهم بؤساء من جرَّاء ابتعادها عنهم وقد تعلقوا بها، لو خرجت من حياتهم بشكل كلي لربما كان أهون من أن يمكثوا معها يوما كاملا من كل أسبوع.

فضلا عن الحزن الذي غزا عمار وياسمين فقد انحدر مستواهم في الدراسة بشكل ملحوظ، بالرغم من أن أسماء كانت تذاكر لهم في اليوم الذي يمكثون فيه عندها.

****

جاءني أحمد زائراً من أجل دعوتي لحضور حفل زفافه الذي سيكونُ بعد أقل من عشرة أيام، لم تكن عندي أي رغبة في حضور اجتماعٍ من أي نوع مع أي أحد، ولكن لا يمكنني أن أتخلف عن حضور زواج أحمد وهو الصديق الذي من أجلي قد فعل الكثير، ولا أنسى إن نسيتُ موقفهُ معي يوم زواجي من أسماء، بغض النظر عما كان منها فيما بعد، وفيما قبل أيضاً.

شدَّد عليَّ أحمد في الحضور كأنه كان يخشى عدم حضوري، وحتما ما كنتُ لأتخلف عن الحضور، حتى وإن لم يشدد عليَّ في ذلك، بل وإن لم يقم بدعوتي ابتداءً.

رغم علمي بأن أسماء ستكون هناك، إذ العروسُ هي أقرب صديقاتها إليها، إلا أنني عزمت أن أكون حاضراً زفاف صديقي حتى لا يَحمِل في نفسه مني.

سألني إذا ما كان هناك أي أمل في رجوعي لأسماء، عرفتُ من سؤاله أنه ما أتى لدعوتي لحضور حفل زفافه، فأنا معه في العمل يوميا، كما أنه لا يزال يفصلنا عن زفافه بضعة أيام.

وإنما جاء من أجل محاولة الصلح بيني وبين أسماء، أخبرتهُ أنه لا نية عندي في الرجوع إليها، ولم أزد على ذلك شيئاً، رغم صداقة أحمد القوية معي إلا أنه يحترم خصوصياتي بشكل كبير، وهذا من أكثر ما يعجبني فيه، حتى عندما طلَّقتُ أسماء كان هو الوحيد تقريباً الذي لم يسألني لماذا طلقتها، بل كان يسألني فقط إذا ما كانت هناك نية للعودة كما فعل الآن.

عندما أخبرته أنه لا نية لي في الرجوع أضاف:

ـ تقول لي مي أن حالة أسماء النفسية في الحضيض، وأنها منذ طلاقكما لم تعد أسماء التي تعرفها، بل هي دوما شاحبة الوجه، كثيرة الشرود، قليلة الكلام والضحك.

لم أعلق، فأضاف:

ـ مثلك تماماً يا حسام، هذه الفتاة أحبتك بصدق، لا يفعل هذا إلا من يحب، لو أنها لا تحبك لما اكترثت لك بهذا الشكل الكبير، وأظنك أيضاً أحببتها رغم ما آلت إليه الأمور بينكما.

لم يطل مكث أحمد عندي فودَّعني وانصرف وقد نَكأ جُرحاً لم يطب دون أن يُفلح فيما جاء إليَّ من أجله.

وتساءلتُ في نفسي.. هل أحببتُ أسماء حقاً؟

لكن ما الحب أولاً حتى أعرف إن كنت قد أحببتها أو لا.

فإن كان الحب هو أن يستحكم طيف المحبوب على فكر المُحب فقد عشقتها على الأرجح، فهي لا تغادر رأسي ساعة من ليل أو نهار، حتى أثناء انهماكي في العمل لا تفارق خيالي، لم أمكث معها وقتاً طويلاً، لكنها خلال تلك الفترة القصيرة استطاعت أن تترك بصمة في نفسي وفي حياتي كلها.

لكن هل يستطيع الإنسان أن يُحب مرتين؟

إن كنت قد أحببت أسماء فما الذي كان بيني وبين ملك إذن؟!

لو الحب يأتي في العمر مرة واحدة فأستطيع أن أجزم أني ما أحببت غير ملك، ولو بإمكان المرء أن يحب مرتين فلا ريب أني أحببتهما معا.

ولو يقدر المرء على سحق قلبه حين يخالفه ويحب من لا يستحق حبه لكنت سحقتُ قلبي الآن سحقاً على عصياني في تلك الخائنة!

يؤسفني أن أعترف بأنني قد أحببت أسماء، ولم أعرف ذلك إلا حين فارقتها، وبقدر ما أحبها بقدر ما أبغضها، وإني لأعجب كيف يغلي في قلبي حب وبغض لشخص واحد وفي نفس اللحظة!

أثناء ذلك الأسبوع الذي زارني فيه أحمد نزلت الحمَّى بابني عمار، كانت حمى شديدة أسفرتْ عن كونه مكث في المشفى عدة أيام، هذه المرة كنتُ مُرافقاً لهُ، أخذتُ أجازة من العمل بسبب مرضه المفاجئ حتى لا أتركه ساعة واحدة.

في اليوم الثاني من دخوله المشفى جاءت أسماء زائرة له وحدها، في اليوم الأول جاء علاء و والده و والدته، لكن أسماء لم تأتِ معهم، ولم أستغرب ذلك.

لكن الذي استغربته هو زيارتها له في اليوم التالي و وحدها!

ما إن دخلت الغرفة التي كان يُمرَّضُ فيها حتى خرجتُ أنا منها، بل ومن المشفى كله، لم أشأ أن يجمعني وإياها مكان واحد، ظللت نحواً من ساعتين خارج المشفى نسفت خلالهما علبة سجائر كاملة، وعندما رجعت تفاجأت بأنها لا تزال موجودة رغم انتهاء موعد الزيارة الرسمي!

أثناء رجوعي كنت أتمنى أن أعود فأجدها قد ذهبت، وفي نفس الوقت كنت أريد أن أراها مرة أخرى، أن أطوف بعيني في ملامح ذلك الوجه الذي غاب عني بضعة أشهر مرَّت عليَّ كأنها بضعة أعوام.

قالت أول ما رأتني:

ـ كيف حالكَ يا حسام؟

قلتُ مُتأففاً:

ـ ذلك أمرٌ لا يعنيكِ في شيء.

قالت:

ـ أريدُ أن أتكلم معك.

قلتُ في ضيقٍ حقيقي غير مصطنع:

ـ لم يعد بيننا كلام.

ـ بل بيننا، من فضلك لا أريد منك إلا أن تسمعني، أعطني فرصةً واحدةً أدافع فيها عن نفسي.

ـ هل ترين أن ذلك هو الوقت المناسب الذي تتحدثين فيه عن ذلك؟

ـ قد انتظرتُ ذلك الوقتَ المناسب طويلاً لكنهُ لم يأتِ.

ـ لكنه ليس الآن بلا ريب، لم يحن بعد ذلك الوقت الذي تتحدثين عنه.

ـ ومتى يحين؟

ـ لا أظنه سيحين أبداً.

ـ إذن؟

ـ إذن فقد انتهى موعد الزيارة الرسمي، من فضلك اذهبي الآن وإلا سأضطر أن أخرج مرة أخرى لحين خروجك.

ـ لم أكن أعرفُ أنكَ قاسي القلب بهذا الشكل يا حسام.

ـ ربما كنت قاسي القلب كما تقولين، لكن ذلك أفضل من أن أكون بلا قلبٍ مثلكِ.

لم تُعلِّق على كلامي، وإنما خرجتْ باكية مُنتحبة، لا أنكر أنني أشفقت عليها، ربما تكون قد ندمت على ما فعلت، لكن ندمها وحده لا يكفي، لا يكفي أبداً.

****

ترددت بعض الشيء في ذهابي إلى حفل زفاف أحمد، لقد وعدته أن أحضر، لكني لم أكن أريد أن أتعثر هناك بأسماء، ولم يطل ترددي، حسمتُ أمري أن أذهب إلى هناك فأصافحه وأبارك له ثم أمكث بعض الدقائق وأنصرف.

بقدر ما كان أحمد سعيداً وهو يجلس بجوار عروسه بقدر ما شعرتُ أن عروسه ليست سعيدة، كانت تبتسم وتضحك أحيانا، لكن بدت ابتسامتها لي مصطنعة، هل أكرهها أحد هي الأخرى على الزواج من أحمد ولها حبيب آخر ستخونه معه عن قريب كما فعلت أسماء، فهي صديقتها، والطيور على أشكالها تقع كما يقولون.

ذلك ما خطر لي، وسريعا استغفرت الله منه، ليس للمسكينة أدنى ذنب في خيانة صديقتها، ولا يحل لي أن أظن بها أو أحملها جرماً لم يكن لها فيه يد.

استغربت كثيراً لعدم وجود أسماء، لم ألمح لها أثراً، لا يعقل أنها لم تحضر زفاف أعز صديقة لها، توقعتُ أن تكون أول الموجودين في هذه الليلة!

هل ضايقني اختفاء أسماء؟

لا أدري إن كان ضايقني أو لا، فقد كنت أتمنى ألا أراها، ومع ذلك وجدتني أبحث عنها بين الناس، أردت أن أختلس بعض النظرات إليها قبل أن أذهب، رغم أن نظراتي إليها عادة تكون مُكللة ببعض الحب مع القليل من الشفقة والكثير من الحقد.

لم يكن لها فعلا أي وجود، زادت دهشتي حين قمتُ بالربط بين اختفاء أسماء وبين البسمة المصطنعة على وجه صديقتها التي تجلس بين الناس عروسا.

هل هما على خلاف أسفر عن عدم حضورها ولذلك فصديقتها غير سعيدة!

أم أنها هنا وأنا الذي لا أراها؟

أم أنها ليست هنا لكنها في الطريق وستحضر عما قريب؟

كنت قد نويت قبل حضوري أن أذهب سريعاً حتى لا أتعثر بأسماء، ولكني لم أذهب سريعاً، بل قررت أن أبقى حتى تحضر فأراها ثم أنصرف.

أليس من الوارد أن يكون كلامي في المشفى أزعجها لذلك فهي التي لم تحضر حتى لا تراني، خاصة وأنها على الأرجح قد فقدت الأمل نهائياً في أن تجد عندي صفحاً؟

مضى نحوٌ من ساعة ولم تحضر، ويئستُ من حضورها، فقررت أن أذهب لمصافحة أحمد والمباركة له ولعروسه ثم أنصرف.

انصرفتُ وأنا في حيرة من عدم حضور أسماء، تمنيتُ لو أني استطعت أن أسأل مي عن عدم حضورها.

لكن بأي حق وتحت أي صفة كنت سأسألها!

****

في مساء اليوم التالي ذهبتُ إلى بيت أحمد كما هي العادة، وأيضاً فقد زارني في بيتي في اليوم التالي لزواجي، والواجب أن أرد المعروف بنظيره.

اشتريتُ أثناء الطريق علبة شكولاتة فاخرة، مع باقة ورد، أول ما فتح لي تقدمتُ نحوه فصافحته وعانقته وأنا أبارك له، ثم باركتُ لعروسه.

انتهزتُ فرصة ذهاب زوجته فقلت لهُ أمازحه:

ـ كيف حال الزواج معكَ يا صديقي العزيز؟

ـ وهل أجمل في الدنيا من الزواج.

ـ أتمنى أن يبقى هذا رأيك بعد مرور عام واحد على زواجك.

ـ وأنا أتمنى ذلك أكثر منك وإلا فستكونٌ مصيبة كبيرة.

ظللنا نضحكُ ونتحدثُ معاً إلى أن أحضرتْ لنا عروسه عصيرا ثم جلست معنا، اندهشتُ كثيراً من جلوسها، لكن يبدو أنها تعمدت أن تجلس، ويبدو أيضاً أنني أنا الوحيد الذي كان مندهشا من جلوسها معنا، فلم ألحظ على وجه أحمد أي علامة من علامات الدهشة.

قالت لي على الفور:

ـ كيف حالك يا أستاذ حسام؟

قلتُ:

ـ بخير، الحمد لله!

ـ لكن أسماء ليست بخير على الإطلاق.

ـ وما علاقتي أنا بهذا!

قالت:

ـ أعتذر، معك حق.

ثم قامت لتنصرف، فقلت لها على الفور:

ـ لحظة رجاءً.. قبل أن تذهبي أخبريني أولاً لماذا أسماء ليست بخير؟

جلست ثم قالت بأسى:

ـ هل تعلم أنها لم تحضر زفافي؟

قلتُ بلامبالاة مُصطنعة:

ـ وما أدراني إن كانت قد حضرت أو لم تحضر!

ـ بل كنت تعلم أنها لم تحضر، لقد ظللت تفتش عنها بين الحضور.

ـ ولماذا أفعل ذلك! أؤكد لكِ أنكِ لستِ على صواب.

ـ ربما.. لكن ألن تسألني لماذا لم تحضر أسماء زفافي ؟

ـ لا يعنيني ذلك، لكن إن شئتِ فأخبريني.

ـ سأخبرك لأني أعلم أنه يعنيك.. لقد مرضتْ أسماء منذ زيارتها لعمار في المشفى بسبب حديثك الجاف معها، ومن يومين زاد بها مرضها فألزمها الفراش، لك أن تتخيل حجم المرض الذي يُقعدها عن حضور زفافي وأنا أعز صديقة لها في الدنيا!

تابعتْ وأنا مُصغٍ لكل حرف تقوله:

ـ أسماء بريئة يا أستاذ حسام من جميع ظنونك بها، حتى أحمد لا يعرف شيئاً عن ذلك، ولا أحد يعرف شيئاً غيري.

أسماء معها جميع الأدلة التي تثبت براءتها، وقد توسلتُ إليها مراراً أن تتركني أخبرك بحقيقة ما حدث، لكنها لم تسمح لي قط، قالت أنك ستهدأ قريباً وأنها ستجلس معك وتشرح لك بنفسها جميع ما حدث، ولكنك لم تهدأ مطلقا يا أستاذ حسام.

المسكينة تحبك فوق ما تتصور، وكلما حاولت أن تشرح لك شيئاً كنت تصفعها بكلمات قاتلة لم تكن تستحقها منك أبداً.

أقسم لك أنها ما خانتك قط، وأنها بريئة من جميع ظنونك، بل إنني أدعو الله أن أكون مُخلصة لأحمد بقدر ما كانت أسماء مُخلصة لك.

لم تخنك قبل أن تقع في حبك، فهل يعقل أن تخونك وقد أصبحت أسيرة حبك!

لا أطلب منك أن تعطيها فرصة أخرى وتسامحها، فهي لم تخطئ في شيء حتى أطلب منكَ مسامحتها.

كل الذي أطلبه منك هو أن تعطيها فرصة تدافع فيها عن نفسها وتشرح هي لك بنفسها جميع ما حدث.

****

رجعتُ البيت ورأسي يكادُ ينفجر من التفكير، كيف تكونُ بريئة!

لقد سمعتُ المكالمة بنفسي، وقمتُ بإرسالها إلى هاتفي، لأستمع إليها فيما بعد، سمعتها مرات ومرات، وفيها اعترافها على نفسها بالخيانة، وفي المكالمة كانت تحدد معه موعد اللقاء!

وكعادتي مع الأشهر الأخيرة فقد هرعتُ إلى السجائر كما يهرع الصائم إلى الماء لحظة الغروب.

ثم دار بيني وبين نفسي حوارٌ شرسٌ، كان ذلك الحوار بين صوت حبي لها، وصوت حقدي عليها.

أو ربما كان بين حسن ظني فيها الذي كان أصغر من حبة سمسمة، وبين سوء ظني الذي غدا أعظم من فيل!

دار الحوار بيني وبين نفسي..

ـ ألا يستدعي ذلك منك أن تستأنف النظر في القضية التي كنت فيها خصما وحكما، ولم تستمع فيها إلى غير نفسك، فأهملت الشهود، ولم تنظر إلى غير أدلتك، ثم بمنتهى القسوة صَمَمْتَ أذنيك عن سماع دفاع المتهم مع إصراره على أن يتكلم وأن تستمع له!

ـ كلا، لا شيء يستدعي ذلك على الإطلاق.

ـ لكن مي تؤكد براءتها.

ـ ربما تقول ذلك من أجل أنها صديقتها.

ـ لكنها أقسمت بالله، هل تُقسم بالله كذباً!

ـ ربما أقسمت كذباً، لم تعد عندي بأي فتاة في الدنيا مثقال ذرة من ثقة.

ـ وربما كانت صادقة.

ـ والأرجح عندي أنها كاذبة.

ـ فلماذا أنتَ ضجرٌ الآن إذن؟

ـ لأنها تقول أن أسماء مريضة وبسببي، بسببي أنا مرضت أسماء!

هل تكذب في ذلك أيضاً، أم أنها مريضة فعلاً، وهل مرضها ذلك بسببي أنا فعلاً؟

لو لي عندها ذلك المقدار الذي يجعل كل ذلك يحدث لها من جرَّاء بعض كلمات قلتها لها لما خانتني ابتداءً.

ـ لكن صديقتها تقول أنها لم تخن.

ـ لكني متأكد من خيانتها لي، هل أكذِّب أذني وأصدق صديقتها التي لا أعرفها.

ثم ما هي تلك الأدلة التي تتحدث عنها وفيها إثبات براءتها!

ولو هناك أي شيء يثبت براءتها فعلاً لماذا لم تواجهني به، ولو لم أعطها الفرصة لأن تفعل ذلك كما تقول صديقتها فلماذا لم تقتنص هي تلك الفرصة، لماذا لم تخترعها اختراعاً!

كان بإمكانها أن تُرسل إليَّ من ينوب عنها بأدلتها تلك إن كان ثمة أدلة!

مي تبرَّعت من تلقاء نفسها بالقيام بتلك المهمة وهي التي رفضتْ، كان من الممكن أن تخبرها وأحمد يخبرني.

أو كانت أرسلت لي علاء، فهو أقرب الناس منها ومني، وما من بأس في اطلاعه على تفاصيل ما حدث لو كانت بريئة فعلاً.

ـ أليس من الممكن أن تكون بريئة فعلاً؟

ـ ذلك مستحيل، جميع الأدلة تدينها.

ـ لكنك لم تستمع إليها.

ـ لم أكن بحاجة إلى أن أستمع إليها، كل شيء كان أوضح من الشمس.

ـ وإن كان، فهو حقها على كل حال.

ـ لم يعد لها أي حق بعد ذلك الذي كان منها.

ـ لكن ربما لم يكن من ذلك الذي تنقمه عليها شيئاً.

ـ ذلك جائز في حالة واحدة، هي أن أكذب سمعي وبصري.

ـ صديقتها أكدت لك براءتها.

ـ وحواسي أكدت لي جرمها.

ـ ما ضرَّك لو سمعت لها كما طلبتْ منك مرارا!

ـ وماذا سأستفيد لو سمعتُ لها.

ـ على الأقل ستكونُ على بينة من أمرك.

ـ لكنني على بينة من أمري.

ـ إن كنت كذلك فلماذا أنت في حيرة من أمرك!

ـ لم أكن كذلك.

ـ لكنك الآن كذلك.

ـ ما الصواب إذن؟

ـ أن تستمع إليها.

كنت أعلم أن الوحيدة التي عندها جواب تلك الأسئلة التي هجمت على رأسي هي أسماء، ليتني سمعت منها ما تود قوله ونحن في المشفى، ربما أجابت على بعض تلك الأسئلة، وتأكدتُ أن الصواب فعلاً هو أن أستمع إليها، فإن لم يكن من وراء سماعي لها أرباحٌ فعلى الأقل لن تكون هناك خسائر، وهل بقي ما أخسره!

لكن من لي بها الآن!

هرولتُ إلى هاتفي لأبحث عن رقمها، لم أكن أريدُ أن أكلمها من أجل تلك الأسئلة التائهة في رأسي بلا أجوبة، وإنما أردت أن أطمئن على أنها بخير أولاً وقبل أي شيء آخر، حسب كلام صديقتها فإني أنا الذي جعلتها طريحة الفراش، ولا أستجيز ذلك لنفسي حتى وإن كانت كما أظن بها.

لم أعثر على رقم هاتفها عندي، كنت قد حذفته بعد طلاقنا بأيام قليلة، وكاد ذلك الاكتشاف أن يفقدني عقلي، ضربتُ أخماسا في أسداس، ولم أدرِ ما الذي ينبغي عليّ فعله!

هل أحاول الوصول إليها لأستوثق، هل أتجاهل كل ما سمعتهُ من صديقتها، ولو كنت سأحاول الوصول إليها فكيف أفعل ذلك!

وإن تجاهلتُ كلام صديقتها عن براءتها فكيف أحول بين عقلي وبين تلك الأفكار التي تتصارع بداخله بشراسة!

و وقفت كأهل الأعراف بين الإقدام والإحجام، ولم أدرِ فعلاً ما الصواب!

(الفصل الحادي عشر)

- السلام عليكم يا أحمد.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ادخل يا حسام.

- هل جئتُ في وقتٍ غير مناسب؟

- على العكس، أنتظركَ منذ أكثر من ساعة.

- كيف حالك يا أستاذ حسام؟

- الحمد لله يا مَي، كيف حالك أنتِ؟

- الحمد لله.

- أعتذر لو كنت قطعت عليكم خلوتكم للمرة الثانية في الأسبوع الأول من زواجكما.

- لا تقل هذا يا أستاذ حسام، زواجنا هذا ما كان ليحدث لولا الله ثم أنت.

- وما علاقتي أنا بإتمام زواجكما!

- هل نسيت أنك أنت الذي اقترحتني على أحمد؟

- إذن فانسبي الفضل في ذلك لأسماء، فهي التي طلبت مني أن أفعل.

- أسماء بالنسبة إليَّ أكثر من أخت، لذلك لا أستغرب ذلك منها، لكنكَ فعلت ذلك ولم تكن تعرفني.

عموماً قد جهزتُ لكَ ما يُثبت براءتها من جميع ظنونك، مع أنني أتوقع منها غضباً عارماً لو عرفت أني فعلت ذلك، لكنها طلبت مني أن أكتم ذلك حتى تشرح هي لك بنفسها، وهي عاجزة عن أن تفعل، فلا حرج عليَّ إذن في أنوب عنها في ذلك.

ـ هو كما قُلتِ.

ـ أُدرك حساسية الموقف جيداً، ولولا أني واثقة من كل حرف أخبرتكَ به سلفاً لما أقدمتُ على ذلك، لكني لم أشأ أن أخيب ظنك في شخصي، خاصة وقد أقسمتَ عليّ أن أخبرك بجميع ما أعلمه بخصوص سوء الفهم الذي حدث بينك وبينها، وهي أول مرة تطلب مني فيها شيئاً ويعز علي أن أخذلك فيه.

ـ شكراً لكِ يا مي، لا أعرف كيف أشكرك.

ـ لستَ بحاجة إلى شكري، فأنت في مقام أخي الأكبر، كما أن أسماء أختي.

ـ هيا أخبريني بما عندكِ.

ـ لكن اسمح لي أن أدخل في الموضوع مباشرة بدون مقدمات.

ـ حبَّذا لو تفعلين.

ـ حسناً.. الذي رأيتَه في دريم بارك مع أسماء كان زميلاً لها في الجامعة، ولكنه لم يكن معها في نفس الكلية، كان يحب أسماء كثيراً، وكانت أسماء تحبه أيضاً في ذلك الوقت، أو كانت تظن أنها تحبه.

فجأة وعن غير قصد اكتشفتْ خيانته لها، أنا الذي اكتشفتُ ذلك تحديداً، ثم أخبرتها بالأمر، وذلك لمكانتها عندي، فما كان منها إلا أن قطعت صلتها به نهائياً منذ تلك

اللحظة التي تأكدت فيها من خيانته لها، ثم قررت أن تتزوج منك من أجل أبناء أختها، وأيضاً تنفيذا لوصيتها، ومن حين تزوجت منك أقسم أنها لم تكن تربطها به أي صلة من أي نوع.

ولم تشأ أسماء أن تخبرك بعلاقتها به حين سألتها لأنها لم تكن ترى أي داعٍ لذلك، خاصة وأنَّ صلتها به قد انتهت بشكل نهائي بخيانتهِ لها.

الصورة التي رسمتها له واحتفظت بها في البيت عندك لم تحتفظ بها إلا لتستحضر من خلالها مدى بشاعته حين خانها، وحماقتها حين وثقت به، أرادت أن تصنع من تلك من الصورة سوطاً يجلد ظهرها كلما تذكرته، أو وجدت من نفسها حنيناً إليه.

وحين كانت معك في دريم بارك فإن ذلك الشخص هجم عليها فجأة من حيث لا تدري في تلك اللحظات التي تركتها فيها مع ابنتك ياسمين، ظلت تترجاه وتتوسل إليه أن يمضي، لكنه لم يفعل، وحين سألته كيف عرف أنها هنا أخبرها أنه عرف ذلك من خلال بوَّاب عمارتكم بعد أن دفع له مالاً ليخبره بخروجها إن هي خرجت.

وأما عن المكالمة التي سمعتها لها معه فقد فهمتها خطأ، أسماء لم تكن تقصد بأنها خائنة تلك الخيانة التي بدرت إلى ذهنك، وإنما كانت تقصد أن مجرد حديثها معه هاتفيا إنما هو خيانة لك في حد ذاته.

وحين قابلَته فإنها لم تلتق به في مكان مشبوه ـ معاذ الله ـ ولكنها التقت به في مكان عام جداً، وأقسم لك أنها توسلت إليّ أن أذهب معها للقائه حتى تتوسل إليه أن يتركها وشأنها، ولكني لم أتمكن من الذهاب معها، ولولا أنه هدَّدَها أن يخبرك بأنه كان على

علاقة بها لتجاهلتْ طلبه في أن يلتقي بها تجاهلاً تاماً، ولكن لأنها أحبتك فقد خافت أن ينفذ تهديده فتعرف أنها كذبت عليك حين سألتها عن ماضيها فتسقط من نظرك.

بالله عليك لو كانت كما ظننت بها فهل كانت تطلب مني أن أذهب معها للقائه!

وحتى لا تظن أني أقول ذلك كذباً من أجلها لأنها صديقتي فسأرسل لكَ الآن على هاتفك مكالمتي مع أسماء قبل أن تذهب إلى لقاء وليد بيوم واحد، فإن هاتفي أيضا عليه برنامج لتسجيل المكالمات، وهذه المكالمة بشكل خاص قمت بحفظها بعد أن روتْ لي أسماء ما حدث، عرفتُ أني سأحتاجها يوماً.

في هذه المكالمة براءة أسماء تقريباً، وكانت بعد مكالمتها مع وليد مباشرة، ليتك كنت سمعتها بعد سماعك محادثتها الصوتية مع وليد.

استمع إليها جيداً وحكِّم عقلك وإن شاء الله يرشدك الله للصواب.

****

مذهولاً كنت أستمع إلى مي، كأنها كانت تُمطرني بقذائف ثلجية في يومٍ صائف، جميل هو الثلج في الصيف، لكن حين يُسكب فوق جسدٍ مُحترقٍ فإن الموت يكونُ محتماً!

كنتُ مُحترقاً من ظني بها، لم تكن الحقيقة على نفسي حين عرفتها برداً ولا سلاماً، وإنما كانت ريحاً وإعصاراً.

تأكدتُ من خلال كلامها أن أسماء لم تخني قط، كنتُ ظالماً لها، ذلك ما تأكدتُ منه أكثر بعد سماعي لمكالمتها مع مي عدة مرات، كدتُ أجن حين وقفتُ على تلك الحقيقة، إلى ذلك الحد كنتُ همجياً معها!

نعم أخطأتْ أسماء مرتين، الأولى حين كانت على علاقة بمثل هذا الشخص أثناء دراستها، والثانية حين أخفتْ عني تلك العلاقة، خاصة وقد سألتها، ولكن خطأها لم يكن بذلك الحجم الذي يستوجب مني أن أطلقها وأن أتعامل معها على ذلك النحو شديد الفظاظة.

لم أكتفِ بكلام مي، ولا بتلك المكالمة الصوتية، وإنما ذهبت إلى بواب العمارة وطلبت منه أن يروي لي تفاصيل ما دار بينه وبين ذلك الشخص، وتأكدت من خلاله أن كلام مي كان صحيحا مائة بالمائة، لو أن وليد هذا كان على علاقة بأسماء بعد زواجنا لما احتاج أن يعرف موعد خروجها من بواب العمارة ويتكبد خطورة ذلك الفعل!

ولو أن بينه وبين أسماء أي شيء لما كانت أسماء طلبت من مي أن تصحبها أثناء لقائها به.

بل أسماء كانت مُتضايقة جدا من ظهوره في حياتها، ومن عدم قدرتها على إخباري حتى لا تسقط من نظري كما قالت في مكالمتها المسجّلة مع صديقتها.

ليتها تحلت بالشجاعة وأخبرتني بكل شيء، كنت سأتفهمها وأحتويها جيداً.

كنتُ سعيداً جداً باكتشافي براءة أسماء من ظنوني، وبقدر ما كنت سعيداً بقدر ما كنت أشعر بضيق ومقت منصرف كله إلى نفسي.

اقتربت الساعة من منتصف الليل، فكرت في أن أذهب إلى أسماء لأطمئن على حالتها الصحية، ثم أصلح ما أفسدته، أردت أن أقوم بذلك عاجلاً غير آجل، لكن منعني تأخر الوقت، لم يكن يعنيني كثيراً كيف سيقابلني والد أسماء ولا أمها، ولا حتى علاء لو كانَ هناك، كل الذي شغل تفكيري هو كيف ستقابلني أسماء وقد كان مني كل ذلك الذي كان.

لم يكن يعنيني غيرها هي، هي وفقط.

الجميع يؤكد أنها تحبني، أحمد قال ذلك، ومي تقول ذلك وهي صديقتها المُقرَّبة، أنا أيضاً أشعر أنها أحبتني، تماما كما أحببتها.

إن كانت تحبني فستغفر لي قطعاً، لم أغفر لها لأن الذي تصورته وقع منها لا يمكن مغفرته، لستُ ملاكاً لأغفر مثل ذلك الخطأ الذي توهمته، لكن الخطأ الذي بدر مني في حقها كان ناتجاً عن سوء فهم، ستغفر أسماء ذلك لي على الأرجح، أثق في ذلك كل الثقة، أسلمت نفسي للنوم حتى يطلع النهار سريعاً فأهرول إلى بيت أسماء لأراها، لأرى حبيبتي المظلومة، سامحيني يا أسماء، سامحيني بالله عليكِ.

****

مسروراً مُتهللاً كنتُ أقفُ على باب شقتهم كأنما أقفُ على باب الجنة، بعد لحظاتْ سأصافح بعيني وجه أسماء، كم أعشق ذلك الوجه الذي حجبته عني سحابة من سوء الظن أمطرت فراقاً مُضنياً بيني وبينها.

طرقتُ الباب طرقات متتالية لا فاصل بينها، كان رصيدي من الصبر فارغاً، نفد كله فلم يعد لي منه قليل أو كثير.

طرقتُ الباب طرقات متعجلة ومُتتابعة ففتحت لي والدة علاء، لم يساورني أدنى شك في أنها كانت تتوقع أن يكون على الباب أي أحد في الدنيا غيري، صُدمت من رؤيتي وهي التي لم ترني تقريباً منذ انفصالنا أنا وأسماء غير مرة أو مرتين.

قالت أول ما رأتني:

ـ ما الذي أتى بكَ إلى هنا؟

لم يكن سؤالها مُستغرباً عندي، أعرف أنها اتخذت مني موقفاً عدائياً منذ انفصالنا.

قلتُ:

ـ جئتُ لأرى أسماء.

ـ ولماذا تراها؟

ـ علمتُ أنها مريضة.

ـ جئتَ لتتشمتَ فيها إذن بعد طلاقك لها من دون سبب؟ لن أتيح لك الفرصة لكي تفعل.

ـ معاذ الله يا أم علاء، أسماء شقيقة ملك أولاً وأخيراً.

ـ وملك بريئة منك ومن أفعالك.. هيا اذهب من هنا لو كانت لك كرامة.

ـ لن أذهب قبل أن أرى أسماء.

ـ أسماء لا رغبة لها في رؤيتك.

ـ فلتقل هي ذلك بنفسها.

وخرجتْ أسماء من داخل غرفتها عندما سمعت صوتي، كانت شاحبة الوجه كوردة ذهب عبقها، وذبل ورقها، بخطواتٍ عليلة كانت تتقدم إلى الأمام كأنما تجرُّ جسداً أنهكهُ الغياب جرّاً.

أول ما برزت قالت لي بشراسة:

ـ ما الذي أتى بك؟

قلتُ مجيباً:

ـ جئتُ لأراكِ يا أسماء.

قالت مُهاجمةً:

ـ وأنا لا أريد رؤيتك أبدا.

فقلتُ مُبشّراً:

ـ لقد تأكدتُ من براءتك، مي أخبرتني بكل شيء.

فقالت غير مُكترثة:

ـ تظنني سأفرح بذلك بعد كل الذي لقيته من وراء ظنك بي؟

أكثر من ستة أشهر وأنا أغص بدموعي وأنت في عناد صخرة، وقسوة فولاذ.

أكثر من ستة أشهر وأنا أتوسل إليك أن تسمعني، لم أطلب منك أكثر من أن تسمعني فقط، ثم بعد ذلك احكم بما شئت، لكن لا حياة لمن تنادي.

هل تحسب أنكَ كنت كريما حين لم تخبر أحداً بظنك البشع بي؟

يؤسفني أن أخبرك أنك لم تكن كذلك، فالجميع ظن بي كما ظننت أنت، وربما أكثر منك.

الجميع تساءل عن سبب طلاقي المفاجئ، وكل واحد وضع تلك الأسباب كما حلا له، ولا لوم عليهم في ذلك، لو كنتُ مكانهم لربما فعلت مثلهم أيضاً، ولتساءلت كما تساءلوا.. ما الذي يجعل فتاة تُطلق وما لها في الزواج غير ثلاثة أشهر!

قلتُ مُتوسّلاً:

ـ سامحيني يا أسماء، سامحيني أرجوكِ.

فقالت ساخرة:

ـ هكذا؟ بهذه السهولة!

لم أطلب منك أن تسامحني، طلبت منك ما هو أسهل من ذلك بكثير، ولم تمنحني إياه، فبأي حق تطلب مني مسامحتك الآن؟!

ـ بحق ما كان بيننا.

ـ ذلك حق ضربتَ به عرض الحائط حين طردتني من بيتك في منتصف الليل دون إبداء أي سبب، وحين توسلت إليك مراراً أن تسمعني فلم تفعل، فلا تنتظر مني أن أكون أقل جفاءً منك.

ـ عن غير عمدٍ تصرفت هكذا، كنتُ أغصُّ بما منه تغصين، لم أكن أقل تعاسة منك بذلك الذي حدث.

ـ وأنا عن عمدٍ سأذيقك من نفس الكأس التي غصبتني عليها.

ـ ما الذي يعنيه كلامك هذا يا أسماء؟

ـ كلامي هذا يعني أن تخرج حالا من بيتنا، لا أريد أن أراك مرة أخرى، هيا اذهب من هنا.

ثم نظرتْ إلى أمها وقالت لها باكيةً:

ـ اجعليه يذهب يا أمي، لا أريد أن أرى هذا الكائن، لا أريد أن أراه أبدا.

أنهت جملتها الأخيرة ثم جَرت إلى غرفتها، فنظرت إليَّ أمها بحقد وهي تقول لي:

ـ قلت لكَ: أسماء لا رغبة لها في رؤيتك، فقلت: فلتقل هي ذلك بنفسها.

ها قد قالت، وها قد سمعت منها بنفسك، و وضعت نفسك في موقفٍ مُهينٍ كنتَ في غنىً عنه، فلتذهب قبل أن تسمع مني أنا الأخرى ما لم تتخيل سماعه يوماً.

****

ـ أهلاً يا سيف، تفضل يا أخي.

ـ هل يَسألُ الأخ الصغيرُ على أخيه الأكبر أم العكس يا حسام؟

ـ الأكثر تفرغاً يسأل على الآخر.

ـ وما الذي يشغلك عنا؟

ـ لن أقول لك يشغلني التفكير المتواصل، ولا التخطيط للمستقبل، ولا حتى العمل، ولكني سأذكر لك فقط عمار وياسمن.

ـ ما بهما عمار وياسمين؟

ـ يحتاجان إلى عشرة على الأقل حتى يعتنوا بهم يا سيف.

ـ ولهذا تحديداً أرسلتني أمك إليك.

ـ من أجل أن تحدثني في موضوع زواجي، أليس كذلك؟

ـ على العكس، ستستغرب مما سأقوله لك، أمك يئست من أن تتزوج، لذلك فهي تقترح عليكَ أن تشتري شقة في العمارة التي نسكن فيها لتكون قريباً منا أنت وأولادك، أحد ساكِني العمارة عرض شقتهُ للبيع منذ ثلاثة أيام.

تقول أمك أنك غالبا لن تتزوج لأنك عنيد كوالدك، ولن تفعل غير ما برأسك وفقط، على الأقل لتكن بجوارانا لنطمئن عليك ونعينك على الاعتناء بالأولاد.

ـ لا مانع عندي، بل هي فكرة ممتازة جدا، لكن هل تظن أمك مثلاً أن معي ذلك المبلغ الذي يشتري شقة ثمنها لن يقل بحال من الأحوال عن مائتي ألف جنيه على الأقل!

ـ ذلك ما قلته لها، وهي تقترح عليكَ أن تبيع شقتك وتضع ثمنها في الشقة الجديدة وما نقص من ثمنها أكملتْه هي لك.

ـ أبيع شقتي!

ـ ولماذا لا تفعل؟ إن كنت ستسكن معنا في نفس العمارة فلن تحتاج إليها.

ـ وإن كان، لا أستطيع أن أبيعها، حتى ولو عُرض عليَّ فيها مليون جنيه، لا تعرف ماذا تعني لي هذه الشقة، لقد أسستها أنا وملك قطعة قطعة، واخترنا كل شيء فيها معاً، شهدت أجمل أيام عمري هذه الشقة يا سيف، كيف تصورتَ أنت أو أمك أني من الممكن أن أفرط فيها!

ـ شهدت أجمل أيام عمركَ مع ملك، وقد ماتت ملك، كما أنها شهدت غالباً أتعس أيام عمرك مع أختها.

ـ لماذا تقول هذا؟

ـ أقول هذا لأنك طلقتها، وهل يلجأ الرجل منا إلى الطلاق إلا حين يضيق ذرعاً بالزواج وبزوجته!

ـ لم أكن كذلك، كان طلاقي من أسماء أمرا استثنائياً، حتى أسماء عشتُ معها أياماً جميلة في هذه الشقة، ثم هي شقيقة ملك أولاً وأخيراً، ومن باب العلم بالشيء فإني سوف أعود إليها قريباً، لكن لا تخبر أمك بهذا الآن.

ـ وتخبرني بهذا هكذا عرضاً يا حسام؟ لو لم أكن عندك الآن في بيتك وأتى ذكر أسماء في حديثنا ما كنت لتخبرني بلا ريب!

ـ كنت سأخبرك يا سيف، كيف تقول هذا يا أخي، هل رأيتني فعلتُ شيئاً بعد!

ـ وفقك الله يا أخي، افعل ما تراهُ صواباً، كما أن أولادك بحاجة إليها. لكن أخبرني.. ماذا أقول لأمكِ الآن؟

ـ قل لها ما سمعته مني منذ قليل.

ـ هل تُضيعُ فرصة كهذه بهذه السهولة؟

ـ لو كان ثمن اقتناصي لها هو ضياعُ ذكريات عُمْرٍبأكمله فلتضع تلك الفرصة غير متأسفٍ عليها ولا مُكترث، لكن باللهِ عليكِ لا تخبرها بشيء عن أني أريد أن أرجع إلى أسماء، سأستوثق أولاً من إمكانية ذلك ثم بنفسي سأخبرها.

ـ لا تقلق يا حسام، لن أخبرها بشيء.

****

ـ هل ستظلين على ذلك الحال طويلاً يا ابنتي؟

ـ أي حال يا أمي ذلك الذي تتحدثين عنه؟ هل في يدي شيء أفعله فتوانيت عنه!

ـ انظري إلى نفسك كيف أصبحتِ، الذي يراك لا يظن أنك فتاة في أول العشرينات؛ لكن يتوهمك امرأة قد قاربت الأربعين!

لستِ أول امرأة يطلقها زوجها في الدنيا يا ابنتي، ارضي بالأمر الواقع وتعايشي معه.

ـ قد رضيتُ به يا أمي وها أنا أتعايش معه.

ـ والدكِ لم يكن يرغب في أن يجعل أحداً ممن تقدموا لخطبتكِ يلتقي بكِ حتى تكوني مستعدة لذلك أتم الاستعداد. هل أخبره بأنكِ مستعدة الآن يا حبيبتي؟

ـ لماذا أنتِ متعجلة على زواجي هكذا يا أمي، هل أنا عبءٌ عليكم إلى هذه الدرجة!

ـ لستِ كذلك يا حبيبتي، لكن العمر يمضي، ولستِ صغيرة، كما أنكِ الآن..

ـ كما أنني الآن مطلقة، حفظت هذه الجملة منكِ يا أمي، هل أشعل النار في نفسي لأنني مطلقة حتى تستريحي!

ـ لم أقل ذلك يا حبيبتي، لكني قصدت أن فرصتك في الزواج من شخص مناسب ليست كبيرة، وليس من العقل في شيء أن يتقدم لك أحدهم فترفضينه هكذا دون أن يكون لكِ به أدنى علم.

هذا يسمى بطراً، والأولى بك والأجدر أن تحمدي الله أنك انفصلتِ عن حسام من دون أن تنجبي منه فتكون المصيبة مصيبتين والطامة اثنتين.

ـ الحمد لله يا أمي، ها قد حمدت الله، جيد هكذا؟

ـ ليس جيداً، الجيد هو أن تنتبهي لمستقبلك، وأن تنشدي لنفسك زوجاً يعوضك الله به عن حسام، منذ البداية وأنا مُعترضة على زواجك منه، وكلكم تعلمون ذلك، ها قد ثبت لكم جميعاً صحة كلامي.

ـ هل تشمتين بي يا أمي!

ـ ويحاً لكِ، وهل تشمت الأم بابنتها! لكني أقول لكِ ذلك لتعلمي أننا نحن الكبار لنا فراسة في الأشياء لا تدركونها أنتم الصغار، ولم تخب فراستي في حسام.

ـ دعينا من هذا الكلام رجاء يا أمي.

ـ لن أدعني منه حتى تُحَكِّمي عقلكِ، هل أخبر والدك باستعدادك لمقابلة ذلك الذي تقدم لخطبتكِ منه؟

ـ افعلوا ما يحلو لكم.

****

ـ لا تزالُ كئيباً حتى بعد أن ثبتت لك براءتها؟ عجيب أمرك!

ـ صدقني أصبحت أكثر كآبة.

ـ ولِمَ ذاك؟

ـ لأمور كثيرة، يكفي أنني أوقعت على أسماء ظلماً كبيراً، كم كنتُ جبّاراً معها.

ـ لم يفت الوقت، يمكنك أن تستدرك ما فات، أستغرب لقعودك عن ذلك وقد استبان لك كل شيء!

ـ كنت أنوي ذلك فعلاً يا أحمد.

ـ فما الذي أذهب تلك النية؟

ـ لم تذهب إن شاء الله، بل هي قائمة، لكني أفكر في كيفية إصلاح ما فسد، وإرجاع الأمور إلى نصابها.

ـ الأمر أبسط من أن يحتاج منك كل ذلك، اذهب إليهم في البيت وتكلم مع أسماء، أو مع والدها أولاً إن شئت ذلك.

ـ كنت سأفعل ذلك بمجرد اكتشافي الحقيقة، لكن رؤية رأيتها قذفت الرعب في نفسي، وأجبرتني على أن أتروَّى في الموضوع.

ـ وما تلك الرؤيا؟

ـ في الليلة التي كنت عندكم فيها كنت قد عزمت أن أذهب في الصباح إلى بيت أسماء وأتكلم معها ومع والدها، فلما نمت رأيت في المنام أني ذهبت إليها في البيت ولم يكن والدها موجوداً، فعاملتني والدتها بجفاء لم أرَ في حياتي من أحدٍ مثله، بل أهانتني إهانة بالغة، وطردتني من البيت، فرفضتُ أن أذهب قبل أن أرى أسماء!

فخرجت لي أسماء من غرفتها فأسمعتني كلاماً سيئاً جداً لا ألومها على حرف واحد منه لو قالته لي في الحقيقة، ثم طردتني هي الآخرى من البيت!

وكانت آخر جملة سمعتها في الحلم قبل أن أستيقظ مباشرة هي قول حماتي لي:

ـ (فلتذهب قبل أن تسمع مني أنا الأخرى ما لم تتخيل سماعه يوماً).

ـ سبحان الله! هل مجرد رؤيا تقلب الأمور في عينيك رأساً على عقب؟!

ـ نعم يا أحمد، تقلب الأمور في عيني رأسا على عقب، أتوقع من أسماء أن تفعل أي شيء، ماذا لو صدَّتني، ماذا لو كانت كرهتني بسبب تصرفي معها، ماذا لو طردتني فعلاً كما رأيت في المنام!

ـ ماذا لو كانت هذه الرؤيا لا معنى لها البتة؟

ـ لا أدري، أفكِّر في أن أستعين بزوجتك مرة أخرى.

ـ طبعاً لن أسمح بذلك أبداً.

ـ لماذا يا أحمد؟

ـ لأنك تستفيد من ورائي دون أي ثمن.

ـ وما الثمن الذي تريده؟

ـ أي شيء، لن أقول لك على شيء لا، إن شئت فقم بدعوتي للعشاء عندك، أو خذني في نزهة.

ـ خذني في نزهة؟! هل أتحدث مع ابن أختي مثلاً!

ـ اعتبرني ابن أختك، أو إن شئت فاعتبرني أختك نفسها، المهم هو أني لن أفعل لك شيئاً في هذا الموضوع المُرهِق حتى أستفيد منكَ في شيء.

ـ يا أخي ساعدني وإن تم فلك ما شئت.

ـ اتفقنا إذن. والآن أخبرني ماذا تريدُ تحديداً مني؟

ـ لا أريدُ منكَ شيئاً، وماذا سأريدُ منكَ أنت! أريدُ من مَي.

****

ـ آلو.. هل أنتِ معي يا أسماء؟

ـ نعم يا مي، كيف حالكِ يا حبيبتي؟

ـ الحمد لله.

ـ مُقصرة أنا في حقكِ، سامحيني بالله عليكِ.

ـ نعم مقصرة، ولن أسامحكِ بالتأكيد.

ـ هل أنتِ بحاجة لأن أشرح لكِ كيف كانت حالتي الصحية يا مي!

ـ لم تحضري زفافي فعذرتكِ من أجل حالتكِ الصحية، لكنكِ الآن بخير حال والحمدُ لله، ألن تأتي لزيارتي أيتها الجاحدة لحق الصداقة؟

ـ إن شاء الله سوف أكونُ عندكِ غداً، لو لم تتصلي بي لكنتُ اتصلتُ أنا بكِ لأخبركِ.

ـ لا بأس، اتصلتُ لأدّخر لكِ ثمن الاتصال، لابد وأنكِ مُفلسة كالعادة.

ـ ما شاء الله عليكِ أنتِ يا مليونيرة.

ـ لستُ مليونيرة، لكن أحمد لا يجعلني بحاجةٍ إلى شيء.

ـ هنأكما الله يا حبيبتي.

ـ شكراً لكِ يا أسماء، مضطرة لأن أغلق الآن لأن أحمد ينادي عليَّ، سوف أنتظركِ غدا إن شاء الله.

ـ إن شاء الله يا مي.

****

ـ لماذا أتيت؟

ـ ما هذا السؤال الغريب يا أمي؟

ـ وأي غرابة في هذا؟ هل لازلت تذكر أن لك والدة أنجبتك فتسأل عنها.

ـ نعم لا أزال أذكر من دون ريب، وهل مثل ذلك يُنسى يا أم حسام.

ـ لو كان كما تقول فلماذا لا تأتي لزيارتي إلا كل أسابيع.

ـ لا أحب أن أزعجكِ بأولادي يا أمي ليس أكثر.

ـ تبا لك يا حسام، وهل أشهى عندي من إزعاجهم لي، أم تظن أمكَ قد أصبحت عجوزاً ولا تقدرُ عليهم؟

ـ أعطاكِ الله الصحة والعافية يا أمي.

ـ مؤكد جئت اليوم تحديداً كي تناقشني في مسألة بيع شقتك، هل غيرت رأيك؟

ـ لم أغيره، وقطعاً لن أغيره أبداً، انسي أمر بيعها هذا يا أمي.

ـ لماذا يا حسام، ألا تريد أن تسكن هنا معنا؟

ـ بل لا أحب من ذلك عندي.

ـ فما الأمر إذن.

ـ ليس هذا وقت الحديث عن ذلك. سأتركُ عمار وياسمين عندكِ الآن لأن ورائي موعداً هاماً.

ـ هذا هو سبب الزيارة إذن، أن تتركهم عندي من أجل أن تتفرغ لمواعيدك.

ـ قطعاً لا، وحتى تصدقيني فسنقضي جميعاً عندكم الليلة. لابد وأن أذهب الآن حتى لا أتأخر على الموعد.

ـ في رعاية الله يا ولدي.

****

ـ السلام عليكم.

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. ادخل يا حسام.

ـ هل كل شيء على ما يُرام؟

ـ نعم.. مي اتصلت بأسماء منذ قليل وتأكدتْ أنها في الطريق إلينا.

ـ هل تعرف ما ستفعله؟

ـ الذي أعرفه هو أنك أنت الذي ستفعل لا أنا!

ـ يا أخي أقصد أن تتيح لي فرصة أن أجلس مع أسماء وحدي، ليس معنى أني اتفقت معك أن يكون لقائي بها في بيتك أن تتطفل علينا أنت وزوجتك.

ـ الله أكبر، الآن أصبحت متطفلاً أنا وزوجتي! صدق من قال: خيرا تزرع، شراً تحصد.

ـ ليس هذا وقت أمثال الآن، أخبرني كيف ستسير الأمور.

ـ الأمور ستسير كالتالي:

أسماء ستأتي كي تزور مي كما تعلم، هي الآن في الطريق، أول ما تصل أسماء ستجلس معها مَي، وأنا كذلك بكل تأكيد.

طبعا ستكونُ أنتَ مُختبئاً كلص في الغرفة المجاورة.

- ....

ـ لا تنظر إلي هكذا، نعم ستكونُ مختبئاً كلص، أم تريد أن تكون ظاهراً كضابط شرطة فتفسد الخطة؟! لكن لا أريدك أن تتقن الدور وتستغل فرصة غيابنا فأعود لأجد شقتي منهوبة.

ـ أكمل يا أحمد قبل أن أضربك الآن كمصارع.

ـ حسنا.. سأستأذنهما بعد ذلك وأقوم بحجة أني أريدهما أن يجلسا معا وحدهما، ربما يريدان الحديث في أمر خاص من أمور الزواج، ليس ربما، قطعا سيفعلان ذلك، قاتل الله الفتيات، يا أخي يعشقون الحديث في تلك الأمور الغريبة.

ـ مالي أنا وهذا الذي تقوله عن الفتيات الآن! أكمل يا أحمد ولا تختبر صبري باللهِ عليك.

ـ أحاول أن أمحو ذلك العبوس المرسوم على وجهك، هل ستلتقي بها وأنت بهذا الشكل الكئيب!

ـ ذلك لا يعنيك، أكمل من فضلك.

ـ حسنا، بعد قليل سأستأذن منهما وأقوم كما أخبرتك، ثم بعد ذلك ستستأذن مي أيضاً بأي حجة، وسنخرج أنا وهي من البيت كله حتى لا نتطفل على شخصك الكريم، سأذهب بها إلى أي مطعم وأمري إلى الله.

طبعاً أسماء في ذلك كله لا علم لها بأي شيء مما نخطط له الآن، أول ما أتصل عليك هاتفياً تعلم أن الأمور سارت وفق ما خططنا لها، وأنني خارجُ الشقة، لكن إياك أن تُجيب على اتصالي حين أتصل بك، لو تلفظتْ بأي كلمة ستسمعك غالبا لأنها في الغرفة المجاورة لك، أول ما أتصل بك تدخل عليها، وإلى هنا ينتهي دوري ويبدأ دورك، أم تريد أن أخبرك بدورك أيضاً؟

ـ لا، كفيتَ ووفيت يا صديقي.

ـ الحمد لله.

ـ شكرا لك يا أحمد، صدقا والله لا أعرف كيف أشكرك أنت وزوجتك.

ـ أنا أخبرك كيف تشكرني أنا وزوجتي.

ـ كيف؟

ـ أولاً تعطيني ثمن الطعام الذي سنأكله في المطعم بعد قليل، فسأذهب إليه من أجلك، وصديقك خارج من نفقات زواجه خروج الطفل من رحم أمه.

ـ وثانياً؟

ـ ثانياً وثالثاً وعاشراً سأخبرك بهم جميعاً بعد أن يصبح كل شيء على ما يرام وترجع إلى أسماء إن شاء الله.

ـ لا أدري ما أقول لك.

ـ لا تقل شيئاً واصمت، أسمعُ صوتَ طرق على الباب، يبدو أنها قد وصلتْ.

****

رغم مُعارضة أبي وأمي لزواجي من حسام إلا أننا تزوجنا، تزوجنا بعد قصة حب طويلة رغم قصرها، قصيرة رغم طولها، ممتعة رغم ما كان بها من ألم، مؤلمة مع ما كان بها من متعة.

صمَّمَ حسام على أن نحتفل بزواجنا، وأن ندعو الأهل والأصدقاء والجيران، وارتديت الفستان الأبيض للمرة الأولى في حياتي رغم كل ما حدث كما كنت أحلم بارتدائه، ولم يستطع أحد أن يعارضه، رغم اندهاش الجميع من ذلك.

كان حاسما كالسيف، وكانت صلابته تأسرني مرة بعد مرة، وكنتُ رقيقةً كوردة، وكانت رقتي تذيبُ صلابته.

كقعيدة لا حراك لها حالي في غيابه، وكعصفور من شدة البرد يرتجف حاله من غيري. كان كالعافية لجسدي، وكنت كالشمس لدنياه.

بسهولة كنتُ أستنشقُ عبقَ حُبي لهُ، ويوماً بعد يوم كان ذلك العبق ينمو حتى غدوتُ أستنشقه بكل سنتيمتر في جسدي.

أنجبتُ منه توأما، صبيا وفتاة، عمرهما الآن ثلاثة أعوام، وكنت أشعر أنه طفلي الثالث، ورغم ذلك كان يعاملني وكأني ابنته.

كنت أناديهِ بعينَي: أبتي.

فأسمعه بأذني قلبي وهو يقول لي: ما تريدين يا صغيرتي؟

ما أسعدني، تزوجتُ أبي، وأنجبت منه طفلين، وغدا هو طفلي الثالث.

قلتُ له يوماً:

ـ لماذا كُتب الفراق على العشاق في الدنيا؟

قال:

ـ العشاق لا يفترقون أبداً.

ـ الموتُ يفرقهم يا حسام.

ـ الموتُ يفرق أجسادهم، والحب لا يكون بين الأجساد، لكن بين الأرواح.

ـ ماذا ستفعلُ لو مت فجأة يا حسام؟

ـ لن أسمح لكِ أن تفعليها.

ـ ستمنعني من الموت؟

ـ سأمنعكِ من أن تموتي فجأة.

ـ لكني سأموتُ في النهاية.

ـ سأتزودُ منكِ ببعض نظراتي إليكِ ثم أسبقكِ إلى هناك.

ـ كل العشاق يقولون ذلك الكلام، وقلّ من يفعل ذلك.

ـ كل من ادَّعى العشق تقصدين، ليس كل من عشق بصدق.

ـ لا أخشى من الموتِ، أخشى على الأولاد من اليُتم، وأخافُ عليكَ من خوفك عليهم من بعدي.

ـ إنْ متِ فلن أخافَ من شيء، فالأحياءُ هم من يخافون.

ـ لكنك لم تمت بعد ملك.

ـ بل مت، والجميع كان يراني شبحاً، حتى جئتِ أنتِ فأحييتني من جديد.

ـ حقاً تحبني يا حسام؟

ـ أحبك بقدر ما أحب نفسي، وبقدر ما أحب فصل الشتاء.

ـ لم أسألك يوماً عن سر عشقك للشتاء، هيا أجبني.

ـ أحب الشتاء لأنه ربيع الحب.

ـ ولكن ما العلاقة بين الحب والشتاء؟!

ـ الشتاء هو أكثر فصول العام إثارة للحب وتشجيعاً للقلب على الخوض في بحره.

كلُّ شيءٍ في الشتاء يدعو إلى الحب، وكل شيء فيه يُذكر به.

في الشتاء ينتعشُ الحب أو يموت، يُزهر أو يذبل، يزداد لهيباً وتأججاً أو ينطفئ.

لذلك فالعشاق يلتقون في الشتاء غالبا، وغالبا ما يفترقون فيه حين ينعكس طقسه البارد على المشاعر فيُجمدها.

العشاق في الشتاء أجمل، والحب في الشتاء أشهى، والهجر في الشتاء أقدر على القتل منه في أي وقتٍ آخر.

ـ جميل كلامك عن فصل الشتاء، ولكن هل تعرف ما هي أروع لحظاته على الإطلاق؟

ـ الشتاء كله رائع، وأما أروع لحظاته على الإطلاق فهي حين يسقط الثلج، وتتعانق الأرض مع السماء ذلك العناق المُعتق برائحة الشوق، ونكهة الحنين، وطعم الحب.

حين يسقط الثلج فجأة فوق حبيبين يسيران معاً في طريق واحد فمن المستحيل أن يفترقا أبداً.

وهل في الدنيا أجمل أو أروع من رؤية عاشقين يسيران معاً مساء اللهفة حين يسقط الثلج فوق قلبيهما مانحاً لهما بعضاً من لونهِ ونقائهِ وصفائهِ.

ـ رحمة الله على أختي ملك، هي أيضاً كانت عاشقة للشتاء، وللسماء حين تُمطر ثلجاً.

ـ رحمها الله.

ـ أريدُ أن أراها يا حُسام، فقد اشتقتُ إليها كثيراً.

ـ إن شاء الله يا أسماء، سنذهبُ إليها جميعاً، أنا وأنتِ وأولادكِ وأولادها.

ـ حسام.. ما هذا الذي قلته الآن؟

ـ قلتُ سنذهب إليها جميعاً أنا وأنتِ وأولادكِ وأولادها!

ـ وتُكرر ذلك مرة أخرى!

كلهم أولادي يا حسام، إياكَ أن تفرِّق بينهم مرةً أخرى، عمار وياسمين وملك ومالك كلهم أولادي، لا تكرر ذلك أبداً يا حسام.

ـ أعرف ذلك جيداً، دعينا من كل ذلك، هل تصارعيني؟

ـ من دون ريب.

ـ اختاري فريقكِ الذي ستصارعيني به.

ـ كالعادة أختار عمار وياسمين، فهما الأكبر والأقوى أيضاً.

ـ ومع ذلك نسحقكم كل مرة أنا ومَلك ومالِك.

ـ الميدانُ بيننا يا أستاذ حسام!

تمت

شـــيءٌ منـها

عادل الجندي

facebook.com/adel.s12

وكان الفراغ من كتابتها في يوم الجمعة

الموافق

١١/١١/٢٠١٦م